في بلاد الرجال

هشام مطر

مكتبة | 182

النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

Originally published by the Penguin Group under the title
In The Country Of Men
Arabic text: Sukainah Ibrahiem

Cover: Random House
Printed in Sweden by Scandbook AB 2007

ISBN 978- 91- 85365- 34- 0

Dar Al-Muna
Box 127
182 05 Djursholm
Sweden
www.daralmuna.com

١

أتذكّر الآن الصيف الأخير قبل إرسالي إلى الخارج. كان ذلك سنة ١٩٧٩. والشمس كانت في كلّ مكـان، حيـث اسـتلقت طرابلس تحتها رائعة وساكنة، بينما استمات الناس والحيوانات والنمل بحثًا عن الظلّ؛ رقع الرحمة الرمادية التي نُحِتت فـي البياض الطاغي على كل شيء. لكن الرحمة الحقيقيـة تُقبـل ليلاً؛ نسيم برّدته الصحراء المقفرة، ونداه البحر المدمدم؛ إنـه ضيف متردّد يجتاز الشوارع الخالية صامتاً، غير متأكّد مـن المسافة التي سيُسمح له أن يقطعها في عالم النجم الهائل؛ إنـه يصعد الآن، مخلصًا كحاله أبدًا، يطارد النسيم المبارك، فيمـا الصباح يوشك أن يطلع.

كانت نافذة غرفة نومها مُشرعة، وشـجرة الـصمغ فـي الخارج صامتة وخجولة الخُضرة تحت الضوء المبكر. لم تنم إلا بعد أن تضمّخت السماء بالفجر الرمادي. وحتى حينـذاك كنتُ أكثر تشوّشًا من أن أستطيع مغادرة مكاني بجانبها، وكنت لا أنفكّ أتساءل، ما إذا كانت، ستهبّ جالسةً من جديد، مثلمـا يحدث مع عرائس الدمى اليدوية التي تتصنّع الموت، لتـشعل سيجارة أخرى وتعاود استعطافي، كما فعلت قبل دقائق قليلـة، أن لا أخبر أحدًا، لا أخبر أحدًا.

لم يعرف بابا شيئًا قطّ عن مرض ماما؛ فهي لا تمرض إلا في أثناء غيابه في رحلة عمل. كما لو أننا أنا وهـي، نـصبح عندما يخلو عالمنا منه، مثل تذكار غبي، صفحات فارغة ينبغي

أن تُملأ منِ الذاكرة بالحديث عن كيف تأتّى لهما أن يتزوجا.

جَلستُ أتأملِ وجهها الجميل، وصدرها يعلو ويهبط بالأنفاس، جلستُ عاجزًا عن ترك مرقدي قربها، وما أخبرتني به قبل قليل يتماوج ويتردّد في رأِسي.

في آخرِ الأمر تركتها وذهبتُ إلى سرِيري.

جاءتْ إلي عندما استيقظتْ. شعرتُ بوطأة جسمها وهو يحطّ قربي، ثم بأصابعها تتخلّل شعري. ذكّرني حفيف أظفارها على فروة رأسي بحادثة لم يحالفني فيها الحظ، حيث قذفتْ بتمرة في فمي قبل أن أفتحها، لأكتشف أنها تعجّ بِالنمل لما طقطقتْ تلك الهياكل الصغيرة تحت أسناني. بقيتُ ممددًا بلا حراك متظاهرًا بالنوم ومنصتًا إلى أنفاسها التي قطّعتها الدموع.

حاولتُ في أثناء الفطور أن أتكلم أقلّ ما يمكن، وجعلها هذا تنفعل. تحدّثتْ عمّا قد نتناوله على الغداءِ. سألتني إن كنتُ أرغب في شيء من المربّى أو العسلِ. أجبتُ بالنفي، لكنها مع ذلك ذهبتْ إلى الثلاجة وأحضرتْ شيئًا منهما. ثم، وكما هو المعتاد في الصباحات التي تعقب مرضها، أخذتني في نزهة بالسيارة لتخرجني من صمتي، لتعيدني إلى نفسي ثانية.

بينما انتظرنا رِيثما تحمى السيارة فتحتْ الراديو. تنقّلتْ بين المحطات ولم تتوقّف إلا حينما سمعتْ صوت عبد الباسط عبد الصمد الرخيم. سرّني هذا لأنه، كما يعرف الجميع، على المرء أن يلتزم الصمت ويستمع بتواضع إلى القرآن وهو يُتلى.

مباشرة، قبل أن ننحرف إلى شارع جرجارش، الشارع الذي يحاذي البحر، ظهر بهلول الشحاذ من حيث لا ندري، فكبحتْ ماما الفرامل وقالت *يا ساتر*. يمّم بهلول ناحيتها وهو يمشي الهوينى، يداه الوسختان تحتضنان بطنه بقوة، وشفتاه ترتعشان. «أهلاً بهلول،» قالت ماما وهي تنقّب في حقيبتها.

«شايفكم، شايفكم،» هذر بهلول. وبالرغم من أنها الكلمات نفسها التي يردّدها بهلول دائمًا، فكّرتُ هذه المرة كم أن بهلول أبله، وتمنيتُ لو أنه يتلاشى فقط. راقبتُه من المرآة الجانبية، كان يقف في عرض الشارع، وقد ضمّ يده المتشبّثة بالنقود التي أعطتها له ماما إلى صدره، كمثل رجل أمسكَ الآن فراشة.

*

اصطحبتني إلى وسط البلد، قاصديْن بائع السمسم في السوق المجاور لميدان الشهداء؛ الميدان المشرف على البحر، الميدان الذي ينتصب فيه بفخر تمثال سبتيموس سفيروس، الإمبراطور الرومانيِ الذي وُلد منذ زمن بعيد في لِبدة. اشترتْ لي الكمية التي طلبتها من أصابع السمسم، كل إصبع منها ملفوف بورقة شمعية بيضاء مبرومة من نهايتيها. لم أوافق عِلى أن تودِع الأصابع حقيبتها. ففي مثل تلك الصباحات كنتُ دائمًا عنيدًا. «ولكنني أريد القيام بمزيد منِ التسوّق،» قالتْ. «وأنت هكذا ستوقع الأصابع.» «لا،» قلتُ عاقدًا حاجبيّ، ثم وقبل أن أمضي غاضبًا، غير عابئ أن أضيعها أو أتيه عنها في المدينة الكبيرة، أضفتُ، «سأنتظركِ خارج السوق.» «اِسمع،» صاحت ورائي مثيرة بصوتها انتباه المارّة، «انتظرني عند سبتيموس سفيروس.»

كان ثمّة مقهى واسع عند أحد جانبيْ الطريق فاض بمرتاديه إلى ممّر المشاة. وفيه رجالٌ، وجوه بعضِهم لمحتها من قبل، قعدوا يلعبون الدومينو والكوتشينة. رأيتُ عيونهم على ماما، وتساءلت ما إذا يجدر بثوبها أن يكون فضفاضًا أكثر.

وعند ابتعادي عنها، شعرتُ بتناقص نفوذي عليها، أحزنني وآلمني كيف أنها في مثل هذه الصباحات تغدو دائمًا

معطاءة ومحرجة، كما لو أنها خرجت عارية. اجتاحتني رغبة في أن أجري عائدًا إليها، أمسك يدها، أتعلّق بثوبها وهي تتسوّق وتتعامل مع العالم؛ عالم يزحمه الذكور وجشع الذكور. قاومتُ نفسي لئلا أنظر إلى الوراء، وركّزتُ بدلاً من ذلك على الدكاكين القائمة ما بين القناطر على جانبي مسلك المشاة المسقوف؛ أوشحة حريرية سوداء تتطاير برفق فوق أحدها، أعمدة بطول الرجال من القبعات الحمراء المكدّسة تنتصب خارج آخر. كان السقف مصنوعًا من أشرطة نسيج داكنة، ومن فجواته المتفرّقة نفذتْ أنصال الضوء البيضاء، وشعّتْ ساكنة وبهية على القناطر والأرض، منيرة ذرّات الغبار السابحة في الهواء، لكنها انقضّتْ كالشّرر على رؤوس العابرين وأجسامهم، جاعلة ظلالهم أشدّ حلكة مما هي عليه في الواقع.

كان الميدان خارج السوق فيّاضًا بنور الشمس. أما الأرض التي بيّضها الوهج تقريبًا، فجعلت الأحذية والأجسام الداكنة التي اجتازتها أشبه بأشياء تطفو فوق العالم. ندمتُ لأنني لم أترك أصابعِ السمسم معها، بعد أن بدأتْ إبر صغيرة تخز ذراعيّ. وبّخت نفسِي على عنادها وعلى إلزام ماما شراء الكثير منها لي. ألقيتُ نظرة عليها بين يديّ، وشعرتُ أن نفسي تعافها.

اتكأتُ على القاعدة الرخامية الباردة لنصب سبتيموس سفيروس. وتأملتُ الإمبراطور الروماني الذي يعلوني، بحزامه المرصّع بالفضة يتدلّى تحت بطنه، وذراعه تشير صوب البحر، «يحثّ ليبيا لتنظر تجاه روما»، حسب ما وصف أستاذ رشيد تلك الوضعية. كان أستاذ رشيد يدرّس تاريخ الفنِ في جامعة الفاتح، وكان والد كريم أعزّ أصدقائي. استرجعتُ في ذهني قائدنا وهو يقف الوقفة نفسها في يوم الثورة، وقد تهندم بإحدى بزّاته العسكرية، وراح يلوّح بذراعه بينما مرّتْ الدبابات أمامه.

التفتُّ ناحية البحر؛ البحر الفيروزي المتألق وراء الميدان. لاح مثلِ مارد أزرق عملاق طالع عند حافة الدنيا. «غررر،» زمجرتُ مثله، ثم وجدتُ نفسي أتساءل ما إذا سمعني أحد. ركلتُ القاعدة بكعبي عدّة مرّات. أطرقتُ أحملق في الأرض صوب الحرارة والوهج اللذيْن جعلاني أرغب في النوم بعينين مفتوحتين. ثم فجأة، وبدون قصد، حاد نظري وحطّ على هدفي مباشرة؛ أبصرتُ بابا.

كان يقف عند طرف رصيف الشارع المقابل للميدان، يتحرّى حركة المرور من الاتجاهين وقد انحنى إلى الأمام كما لو أنه على وشْكِ السقوط. قبل أن يخطو إلى الشارع أشار بيده ثم طقطق أصابعه مرتين. كانت إشارة أعرفها، فقد درج على أن يلوّح لي بالطريقة نفسها، وكأنه يقول «هيا، هيا،» ثم يطقطق أصابعه، «يلا، انهض.» رأيتُ "ناصر كاتب بابا في المكتب يظهر خلفه وهو يحمل تحت ذراعه آلة كاتبة صغيرة سوداء لامعة، ويناضل ليجاريه في المشي. كان بابا في تلك اللحظة قد بدأ يعبر الشارع في اتجاهي، وللحظة ظننتُ أنه ربما أحضر "ناصر إلى سبتيموس سفيروس ليعلّمه كلّ ما علّمنيه عن الإمبراطور الروماني ولبدة الكبرى وروما. إذ لطالما اعتبر بابا "ناصر" بمثابة أخيه الصغير، وغالبًا ما قال هذا بنفسه.

«بابا؟!» همستُ.

كان يضع على عينيه نظّارة سوداء ذات عدستين محدّبتين كحدبتي سلحفاتين. لقد صبغ الله السماء والشمس والبحر بألوان يمكننا كلّنا أن نشير إليها ونقول البحر فيروزي، الشمس موزية، السماء زرقاء. أليست النظارات الشمسية فظيعة إذًا، فكرت بيني وبين نفسي، لأنها تغيّر كلّ ذلك، وتبقي أولئك الذين يضعونها بمنأى عن الأشياء. في تلك اللحظة

تذكّرتُ كيف أنه قبل يومين فقط ودّعنا. «أعادكَ الله لنا بالسلامة.،» قالتْ له ماما، «ووفّقكَ في رحلتك.» أما أنا فقبّلتُ يده كما علّمني، وحينها انحنى وهمس في أذني، «اعتنِ بأمك، أنت رجل البيت الآن.،» ثمّ ابتسم لي بتلك الابتسامة التي يرسمها الناس على وجوههم عندما يظنون أنهم وجّهوا إليك إطراءً. لكن يا للعجب، يا للعجب، ها هو يمشي حيث يمكنني لمسه، يمشي هنا، حيث يُفترض أن نكون معًا. قام قلبي وقعد وأنا أراه يزداد اقترابًا مني. ربما هو يقصدني، فكرتُ، بيد أنه استحال عليَّ أن أشاهد عينيه.

راقبته يمشي بطريقته المألوفة - رأسه مرفوع قليلاً، وحذاؤه الجلدي اللامع يلمس الأرض برشاقة مع كل خطوة يرميها - ملأني أمل بأن ينادي اسمي أو يلوح لي بيده أو يطقطق أصابعه. أقسم أنه لو فعل لقفزتُ إلى ذراعيه. عندما أصبح إزائي، قريبًا جدًا مني، بحيث يمكنني لمسه إذا مددتُ يدي، حبستُ أنفاسي، وآنستُ السكون في أذنيّ. تفحّصتُ سمات وجهه الرصينة - سمات أحببتها دائمًا وخشيتها - وبينما هو يتجاوزني، شممتُ ريح عطره، وأحسستُ بالهواء يتماوج حوله. تبعه ناصر فورًا، والآلة الكاتبة السوداء اللامعة تحت إحدى ذراعيه. تمنيتُ لو أنني هو، أتبع بابا كظلّه. دخلا بناءً يُشرف على الميدان؛ بناءً أبيض بنوافذ ذات درفات خضراء. ومع أن الأخضر لون الثورة، فإنك نادرًا ما ترى درفات النوافذ مطلية به.

«أما طلبتُ منك أن تنتظرني عند التمثال؟» سمعتُ ماما تقول من خلفي. استدرتُ واكتشفتُ أنني قد شردتُ بعيدًا عن سبتيموس سفيروس.

*

اعتراني غثيان استثار فيّ قلقًا من أنني أخطأتُ بطريقة ما؛ فبابا ليس في رحلة عمل، بل هنا في طرابلس، حيث يُفترض أن نكون معًا. كان بمستطاعي أن أمدّ يدي فقط لأصل إليه قبل أن يبلغ وِجهته؛ فلماذا لم أتصرّف؟!

قعدتُ في السيارة أنتظر، ريثما تضع ماما مشترياتها، وأنا ما زلتُ متمسّكًا بأصابع السمسم. تفحّصتُ المبنى الذي دخله بابا وناصر. لمحتُ نافذة في طابقه العلوي تهتزّ ثم تفتح على مصراعيها. ومنها ظهر بابا وتفحّص الميدان. كان قد نزع نظارته الشمسية، ووقف منحنيًا ويداه تستندان على حافة النافذة، كزعيم ينتظر توقّف التصفيق والهتاف. علّق منشفة صغيرة حمراء على حبل الغسيل ثم توارى في الداخل.

*

في الطّريق إلى البيت كنتُ أكثر صمتًا من السابق، بيد أنني لم أتكلّفه هذه المرة. إذ بمجرّد أن غادرنا ميدان الشهداء بدأت ماما تمطّ رقبتها لتنظر في مرآة المحور الخلفي للسيارة. وحينما توقفنا عند إشارة المرور التالية أخذتْ تلهج بالدعاء بينها وبين نفسها. رأيتُ سيارة تقف على مسافة جدُّ قريبة منا بحيث كان بمستطاعي لمس خدّ سائقها. وفيها قبع أربعة رجال يلبسون بزّات سفاري داكنة وعيونهم علينا. لم أتمكن من تمييزهم في البداية، ثم تذكّرتهم. تذكّرتهم على نحو مباغت جعل قلبي يقفز. كانوا رجال اللجنة الثورية أنفسهم الذين جاءوا قبل أسبوع وأخذوا أستاذ رشيد.

شَخص بصرُ ماما إلى الأمام، ظهرها على بعد بضعة سنتمترات من مسندِ الظهر، وقبضتاها مُحكمتان على المِقود. في لحظة ما، أفلتتْ يدًا واحدة، أنزلتها ولامست ركبتي

وهمستْ بصرامة، «انظُر قدامك.»

عندما غدتْ إشارة المرور خضراء لم تتحـرّك الـسيارة التي قربنا. وجميعنا نعرف أنه ينبغِي عليكَ ألا تتجاوز سيارة تابعة للجنة الثورية، وإذا اضطررت فعليـك أن تفعـل هـذا برصانة، بدونِ أن تظهِر أيّ استمتاع في ذلك. بـدأتْ بـضع سياراتٍ غفلتْ عن هوية مَن يقف بجانبنـا تطلـق أبواقهـا، فأقلعتْ ماما ببطء وهي تمعن النظر في مرآة المحور الخلفـي أكثر من الإمعان في الطريقِ أمامها. «لا تلتفتْ إلى الـوراءِ، إنهم يتبعوننا.» قالت. فحملقتُ في ركبتيّ العـاريتين وردّدتُ الدعاء نفسه مرّة تلو مرّة. أحسست بالعرق يتجمّع بين راحتيّ وبين الأغلفة الورقية المشمّعة لأصابع السمسم. ولم تقل ماما، «حسناً لقد رحلوا،» إلا بعد أن كدنا نصل إلى البيت تقريبًا، ثم غمغمتْ لنفسها، «ليس لدى تلك الجرذان النتنة مـن شـاغل يشغلها سوى مرافقتنا.»

حينها، هدأ وجيب قلبي واستطال ظهري وفارق الـدعاء شفتيّ.

الأبرياء، أخبرني مرةً الشيخ مصطفى؛ إمام مسجدنا، ليس لديهم سبب ليخافوا، المذنبون فقط يعيشون في الخوف.

*

لم أساعدها في حملِ الحاجيات إلى البيت كمـا درجـتْ عليـه العادة، إنما مضيتُ مبِاشرة إلى غرفتي، ألقيتُ أصابع السمسم على السرير ثم أخذتُ أهزّ ذراعيّ لأعيد جريان الدم إليهمـا. تناولتُ كتابي المصوّر عن لِبدة الكبرى؛ هذه المدينة القديمـة التي زرتها قبل عشرة أيام للمرة الأولى والأخيرة كما تبيّن لي لاحقًا. كانتْ أخيلة آثار تلك المدينة المهجورة لا تزال عالقـة

حيّةً في ذهني، وانتابني شوق عارم للعودة إليها.

لم أبرِح غرفتي إلا عندما صار لزامًا عليَّ أن أفعل: بعد أن أعدّتْ ماما الغداء، وحضّرتْ المائدة ونادتني.

عندما قطّعتْ الخبز ناولتني قطعة. وأنا بدوري إذ لاحظتُ أنها لم تسكب سلطة أدنيتُ منها الوعاء. قامتْ في منتصف الوجبة وفتحتْ الراديو. تركَتْه على صوت رجل يتحدّث عن استزراع الصحراء. قمتُ وقلتُ، «يسلّم يديك،» ومضيتُ إلى غرفتي. «سآخذ قيلولة،» هتفتْ من ورائي، فصمتي كثيرًا ما جعلها تقول أشياء ليست بحاجة إلى قولها، لأنها دائمًا تَقيل بعد الظهر. الكلّ يفعل هذا، الكلّ ما عداي، فأنا ما تمكّنتُ قطّ من الهجوع نهارًا.

لبثتُ في غرفتي إلى أن أنهتْ جلي المواعين ورفع الطعام، إلى أن تيقّنتُ أنها أوتْ إلى فراشها. عندئذٍ فقط خرجت.

كنتُ أتجوّل في البيت بحثًا عن شيء أتلهّى به عندما رنّ جرس الهاتف. هرعتُ لأردّ قبل أن يوقظها الرنين. كان المتصل بابا. تسارع قلبي وأنا أسمع صوته. وخطر لي أنه ما بادر إلى الاتصال بنا بعدما رأيته إلا ليخبرني لماذا لم يحيّني.

«أين أنت بابا؟»

«في الخارج. دعْني أكلّم أمك.»

«أين في الخارج؟»

«في الخارج،» كرّرَ، كما لو أنني أعرف جيدًا أين هو ذلك الخارج.

«سأعود إلى البيت غدًا.»

«اشتقت لك بابا،»

«وأنا كذلك، نادِ أمك.»

«هي نائمة. هل أوقظها؟»

«أعلِمها فقط أنني سأعود إلى البيت غدًا، وقت الغداء تقريبًا.»

لم أشأ لتلك المحادثة أن تنتهي بيننا، ولذلك سارعتُ أقول، «لحقتْ بنا اليوم السيارة البيضاء نفسها التي أخذتْ أستاذ رشيد. كنّا جنبًا إلى جنب عند إشارةِ المرورِ ورأيتُ وجوههم. كنتُ قريبًا جدًا منهم بحيث لو أردتُ للمستُ خدّ السائق، لكنني لم أخَف. لم أخَف قطّ، ولا حتى قليلاً. لا، لم أخف بابا.»

«أراكَ غدًا،» قال وأغلق الخط.

بقيت واقفًا بجانب الهاتف برهةً وأصغيت إلى الصمت المطبق الذي يحطّ على بيتنا خلال ساعات الظهيرة تلك. صمت يطوّقه هدير الثلاجة في المطبخ وتكتكة الساعة في الرواق.

ذهبتُ أتفقّد ماما وهي نائمة. قعدتُ قربها، وتأكّدتُ قبل كلّ شيء من أن صدرها يتردّد بالأنفاس. تذكّرتُ الكلمات التي قالتها لي في الليلة الفائتة، «نحن نصفا روحٍ واحدة، صفحتان من كتاب واحد مفتوح.» تلك الكلمات التي شعرتُ أنها أشبه بهدية لا رغبة لي فيها.

٢

أيقظني في منتصف الليل صوت زجاج يتهشّم. ولمحتُ ضوءاً ينبعث من المطبخ. وجدتُ ماما فيه جاثيةً على ركبتيها، تحاكي نفسها وتلملم شظايا زجاجٍ من على الأرض. كانتْ حافية القدمين، وحالما رأتني غطت فمها بباطن رسغها، ويدها قابضة على حفنة من الزجاج المكسور، ثم أطلقتْ تلك الكركرة العصبية التي هي في مكان ما بين الضحك والبكاء. هرعتُ لأجلب لها خفّها، ثم رميته إليها، لكنها هزّتْ رأسها ومضتْ بخطوات متعثّرة إلى صندوق القمامة وأفرغتْ يدها. شرعتْ في كنس الأرضية، ولما وصلتْ بالمكنسة إلى الخفّ، توقّفتْ وانتعلته.

رأيتُ قنينة دوائها نصف فارغة على طاولة الفطور، وليس ثمّة كوب قربها، فقط سيجارة تحترق في منفضة طافحة بأعقاب سجائر وعيدان ثقاب مستعملة. لا بدّ أن كوبها قد تحطّم. لقد عاود المرض ماما. شعرت بخديّ يتأججان غضبًا: أين بابا؟ بابا الذي ينبغي عليه أن يكون هنا، لأن كلّ شيء في البيت يغدو طبيعيا حينذاك؛ هي لا تمرض البتة وأنا لا أوقظ قطّ بهذه الطريقة لأجد كل شيء مقلوبًا رأسًا على عقب.

قعَدت، ثم قامتْ ثانية، جلبتْ كوبًا آخر وملأته بالدواء. ففاح المطبخ برائحته الكريهة، وثقل رأسي من حدّتها. التفتتْ إليّ، كنتُ ما أزال واقفًا عند الباب. كركرتْ مرة أخرى وسألتني مستوضحةً، «ماذا؟» ثمّ حوّلتْ عينيها عني. «ما بكَ؟ لماذا تحملق فيَّ هكذا؟ أليس لديكَ شيء أفضل تعمله؟» قالت

وهي تهزّ رأسها كأنما تحدّث نفسها. «لا أدري لماذا تتطلّع إليَّ هكذا. فأنا لم أفعل شيئًا.» ثم عادت وأردفتْ بنبرة جديّة مبالغ فيها، «عُد إلى سريركَ فالوقت متأخر.»

عدتُ إلى السرير لكنني عجزتُ عن النوم. سمعتُها تذهب إلى الحمّام. بقيتْ هناك وقتا طويلاً، ولم يتناه إلى مسمعي صوت ماء يجري. أخذ قلبي يخفق بشدة. ثم فجأة سمعتها تخرج وتقصد غرفتها. مضيتُ إلى بابها لكنني ما لبثتُ أن تردّدت.

«أهلاً حبيبي،» قالتْ. «ما الحكاية، لم تستطع النوم؟»

هززتُ رأسي كأنما أقولُ لا، وقد سرّني الانخراط في لعبتها، في ادّعائي أن حلمًا مزعجًا راودني وعكّر نومي. سارعتُ إلى الرقود بجانبها حالما رأيتها تربتُ السرير. وما إن همّ سلطان النوم باحتوائي حتى بدأتْ تحكي؛ فمها عند أذني، ورائحة دوائها تفعم الغرفة.

*

كانتْ الأمور الوحيدة التي شكّلتْ لها أهمية تتعلّق بالماضي. وأكثر ما همّها في الماضي هو كيف تأتّى لها وبابا أن يتزوجا في ذاك «اليوم الأسود» كما سمّته دائمًا. لكنها ما بدأتْ قطّ في سرد القصة من البداية؛ وكشهرزاد، لم تتحرّك مطلقًا بخط مستقيم، بل قفزتْ من حادثة إلى أخرى، مخلّفة أسئلة لا أجوبة لها. أسئلة لطالما خشيتُ من طرحها لئلا أعرقلِ بوحها. ولذلك غالبًا ما اضطررتُ إلى ضبط نفسي، وجاهدتُ في الوقت نفسه لأحتفظ في ذاكرتي بجميع مقاطع القصة، والأمل يحدوني في أنني ذات يوم سأتمكّن من التوفيق بينها ووضعها في إطار سردي مباشر وواضح وسهل. فأنا على الرغم من

أنني خفتُ تلك الليالي التي نقضيها وحدنا ويصيبها خلالها المرض، ما رغبتُ قط في أن تتوقف عن الكلام. حكايتها كانت حكايتي أيضًا، حكاية ربطتنا معًا، جعلتنا شخصًا واحدًا، «نصفي روحٍ واحدة، صفحتين من كتابٍ واحد مفتوح،» كما اعتادت أن تقول.

مرةً افتتحتْ الحكاية بقولها، «أنت أميري. وذات يوم ستصبح رجلاً وتحملني بعيدًا على حصانكَ الأبيض.» ثم وضعت راحتيها عليِ خديّ، وعيناها مغرورقتان بالدموع. «لقد كدت ألا... أنتَ معجزتي. والحُبوب، وجميع الوسائل التي استخدمتُها للمقاومة. لم أعلم أنكَ ستكون بهذا الجمال، وأنك ستملأ قلبي...» لهذا السبب غالبًا ما وجدتُ نفسي أستلقي في غرفةِ نومي المعتّمة أحلم بإنقاذها.

عندما سمعتْ ماما أن أباها وجد لها عريسًا، ابتلعتْ حفنة من الحبوب السحرية. «كانوا يسمونها كذلك،» قالتْ، «لأنها تجعل المرأة عديمة النفعِ. فمَن الذي يريد أن يبقى متزوجًا من امرأة لا تنجب؟ واعتقدتُ أنني خلال بضعة أشهر، أو سنة على الأكثر، سأغدو حرّة وأستأنفُ دراستي. كانت خطّة ممتازة، أو هذا ما تهيأ لي.

«عجّلوا إتمام الزفاف كما لو أنني عاهر، كما لو أنني كنتُ حبلى وينبغي أن أتزوّج قبل افتضاح أمري. تضمّن عقابهم عدم السماح لي ولا حتى برؤية صورةٍ لزوج المستقبل. لكن الخادمة تسللتْ لتخبرني أنها شاهدتْ العريس. ''قبيح،'' قالت لي عابسة، ''أنفه كبير،'' ثم بصقتْ على الأرض. داهمني خوف شديد. جريتُ إلى المرحاض عشر مرات أو أكثر. أبي وأخوتي؛ أعضاء المجلس العالي – الذين قعدوا لي متربصين خارج الغرفة مباشرة – ازدادوا عصبية، مستقرئين في معدتي الضعيفة دليلاً على جريمتي. ما عرفوا

قطّ كُنه شعوري وأنا أنتظر في تلك الغرفة، حيث ذلك الغريب عني غربة مطلقة، الذي أصبح الآن زوجي، سيدخل الغرفة وحده، وينزع عني ملابسي بدون مقدمات، ليقوم بأفعال فاحشة ومقزّزة.

«كانتْ غرفة كئيبة. لا شيء فيها سوى سرير ضخم، وعلى إحدى وسائده منديل أبيض مربّع مكوي. وحينها لم أدرك البتة لِأي شيء هو.

«ذرعتُ الغرفة جيئةً وذهابًا بثوب عرسي وأنا أتساءل أيّ وجه هو وجه جلادي. لأنني رأيتُ الأمر هكذا: هُم أصدروا الحكم، وهو، الغريب المسلّح بعقد الزواج الذي وقّعه أبي، سيقوم بتنفيذ العقوبة. وعندما يلمسني، وكنت متأكّدة من أنه سيفعل، لن يجديني الصراخ نفعًا، فأنا حقّه الشرعي، زوجته بمشيئة الله. كنتُ في الرابعة عشرة فقط، لكنني كنتُ أعرف ما الذي على الرجل أن يفعله بزوجته. فابنة عمي خديجةِ الثرثارة التي صمتتْ كجدار بعد ليلة عرسها، أخبرتني مرةً ونحن وحدنا كيف فقدَ زوجها صبره معها وثقبها بأصابعه وجعلها تنزف. إنه واجب كلّ رجل أن يثبتَ عُذريةِ زوجته.»

لم أفهم ما عنته ماما، ومع ذلك خشيتُ أنني عندما يحين الوقت قد لا أكون مؤهلاً «لأثقب» امرأة.

«كانت الخيانة يدًا تمسك بخناقي،» تابعتْ. «بدتْ تلك الساعات أبدية. خضخضتْ معدتي، وصارتْ أصابعي باردة كمكعبات الثلج، أما يداي فلم تكفّا عن مصارعة بعضهما بعضًا.

«في إحدى روحاتي للمرحاض وأنا أرفع ثوب عرسي عن الأرض وأهرول كالبلهاء، لمحتُ أبي يدسّ مسدسًا في جيبه. "سيُراق الدم بطريقة أو بأخرى،" هذا ما قاله لجدّتكَ آنذاك، كما أخبرتني فيما بعد متضاحكةً، مسترخيةً، ومنتشيةً بالسعادة. "لو، لا سمح الله،" قالتْ، "تبيّن أنكِ لستِ شريفة

وعذراء لما توانى والدكِ عن قتلكِ."

«كان أبوكَ، العريس المجهول، في الثالثة والعشرين من العمر، وبالنسبة لي أنا ابنة الأعوامِ الأربعة عشرة، بدا عجوزًا. عندما دخل عليَّ أخيرًا غبتُ عن الوعي. ولما أفقتُ لم أجده في الغرفة، بل رأيتُ جدّكَ قربي يبتسم، وجدّتكَ خلفه تضمّ المنديل الذي تلطّخ بالدم إلى صدرها، وعيناها تذرفان دموع السعادة.

«بقيتُ متوعّكة لعدّة أيام. والحبوب العقيمة لم تؤتِ مفعولها. فبالرغم من أنني تناولتُ الكثير منها، لفظها جسمي مع القيء. وبعد تسعة أشهر أنجبتكَ.»

*

كان الدواء يُزيغ عينيها ويُفقدها توازنها. وفي بعض الأحيان، حتى قبل أن أراها على تلك الحال، أعرفُ أنها مريضة. أدخلُ البيت وألاحظُ فيه هدوءاً معيّنًا، شيئًا متبدّلاً، فأعرف بدون أن أعرف كيف عرفت؛ كيوم سقطتُ مغشيًا عليَّ بعد أن أصابت إحدى ضربات أسامة الجبارة للكرة مؤخر رأسي. كنت حينها ألعبُ كرة القدم مع الصبيان. وقبل أن تصيبني الكرة مباشرة، أتذكر رؤية وجه كريم وهو يحاول تحذيري، ثم سمعتُ ذلك السكون الغريب يملأ أذنيّ. هكذا الأمر مع مرض ماما. قد أكون في غرفتي أقرأ أو ربما في الشارع ألعب، ثم ينتابني ذلك القلق الكامن. فأمضي لأبحث عنها حتى لو لم أحتج إليها في شيء. وعندما أرى عينيها سادرتين وأسمع صوتها وتلك الكركرة العصبية المبهمة أتيقّن من أن المرض عاودها. أحيانًا ينتابني الذعر، ثم لا ألبث أن أجدها على ما يرام، مستغرقة في قراءة أحد كتب نزار قباني؛ شاعرها المفضّل. وهذا كثيرًا

ما جعلني ازداد اضطرابًا.

كانت حينما تمرض تتكلّم وتتكلّم وتتكلّم، ولكنها لاحقًا لا تكاد تتذكّر شيئًا من كلامها. كما لو أن مرضها ينبش داخلها روح امرأة أخرى.

في الصباح الذي يعقب ليالي كتلك، حين لا يطرق النوم أجفاني إلا بعد أن يكون هذيانها وسهري عليها قد استنزفاني -خشية أن تحرق نفسها أو تتركَ الغاز مفتوحًا في المطبخ، أو لا سمح الله، تغادر البيت برمّته وتجلب لنا العار والأقاويل - تأتي وتجلس قربي، تمشط شعري بأصابعها وتعتذر، بل وقد تبكي في بعض الأوقات. آنذاك وإذ يلسعني نَفَسُها المثقل برائحة الدواء، لا أتمكّن من العبوس، أو حتى من أن أشيح وجهي بعيدًا عنها، لأنني أريدها أن تظنني مستغرقًا في النوم.

لطالما صُعقتْ ماما وهي تسمعني أعيد على مسامعها الأحاديث التي تكون قد روتها لي في ليلة سابقة. وكثيرًا ما تنبري سائلة، «مَن أخبركَ هذا؟» فأجيبها صائحًا، «أنتِ.» أصيح لأنني أعجز عن مقاومة الصياح. حينها تحوّل عينيها عني وتقول، «ما كان ينبغي أن تسمع هذا.»

تتطرّق أحيانًا إلى الحديث عن شهرزاد. فقد كانت *ألف ليلة وليلة* حكاية أمها المفضلة. وبالرغم من أن جدّتي لا تُحسن القراءة، استظهرتْ الكتاب حرفيًا، كلمة كلمة، وروته لأطفالها، وأول ما علمتُ بهذا حلمتُ بجدّتي التي نادرًا ما رأيتُها، وهي تناضل لتبتلع الكتاب بأكمله. في الحقيقة لا شيء أثار حفيظة ماما أكثر من حكاية شهرزاد. أما أنا فكنتُ دومًا اعتبر شهرزاد امرأة شجاعة نالتْ حريتها بوساطة اختراع الحكايات، وفي معظم الأوقات، في لحظات الخوف الشديد، كنتُ اتخذها مثالاً أحتذي به.

«عليكَ أن تجد لنفسكَ نموذجًا آخر،» بدأتْ ماما ذات

مرة. «فشهرزادك مجرّد امرأة جبانة فضّلتْ العبودية على الموت. ألا تتذكّر الخاتمة؟ ''زواج الملك شهريار وشهرزاد؟'' لمّا استجمعت شجاعتها أخيرًا، بعد أن عاشرته لمدة لا يعلمها إلا الله، بعد أن نامت معه – وطبعًا لا شيء من هذا ذُكِر قطّ – وأنجبتْ له، لا ولدًا ولا ولدين بل ثلاثة أولاد، بعد كلّ ذلك، تجرأتْ شهرزادك *الشجاعة* لتطرح أخيرًا سؤالها: ''هل تسمح يا مولاي في أن أتجرأ وأسألكَ صنيعًا؟'' وما هو ذاك الصنيع الذي تعترف أنه يتطلب الجرأة لتسأله؟ ما هو؟» صاحتْ ماما يومها، وعيناها مسمّرتان عليَّ. «أطلبتْ أن تبسط سلطتها على رقعة أرض منعزلة أو حتى على كهف حقير قذر في مملكته؟ أطلبتْ أن يمنحها وزارة ما؟ أو ربما مدرسة؟ أو أن يهبها منضدة كتابة في حجرة هادئة مِن حجرات قصره الكثيرة؟ حجرة يمكن للمرأة أن تعتبرها ملكها، لتكتب في الخفاء عن حقيقة هذا الوحش شهريار؟ لا، ما لهذا جمعت أطفالها حولها، ''أولهم يمشي والآخر يحبو والثالث يرضع''، كما يخبرنا الكتاب. وكلهم أولاد طبعًا، وأحيانا أتساءل ماذا لو أنهم كانوا ثلاث عاهرات مثلها؟ أسيحالفها النجاح عندئذ؟»

أشدّ ما روعني في تلك الليالي هو التغير الذي يطرأ على ماما؛ تتلفّظ بكلمات تجعل قلبي يختلج وخديّ يتضرّجان من الخجل، ويتجمّع اللعاب عند زاويتي شفتيها، ويفارقها جمالها.

«جرأة بطلتكَ كانت في استعطافه ليسمح لها...؟» تركتْ ماما الكلمة معلّقة في الفضاء، حملقتْ إليَّ، وببطء مدّتْ ذراعها وثنتها كما لو أنها تفتتح احتفالاً، «أن تعيش.»

أبقتْ عينيها مصوبّتين عليَّ وكأنها تتوقّع مني أن أقول شيئًا، أن أثور، أن أصفع فخذي، أتنهّد، أتمطق بلساني وأهزّ رأسي. نكست بصري إلى حضني، متظاهرًا أنني مشغول بشيء بين أصابعي، وأنا آمل أن تمرّ تلك اللحظة بسلام.

وعندما بدأتْ تتكلّم ثانية، تنفستُ الصعداء لأن صـوتها عـاد ليملأ الفراغ.

«أن تعيش،» كرّرتْ. «ليس لأن لديها الحقّ نفسه فـي الحياة مثله تمامًا، ولكن لأنه إذا قتلها فسينشأ أطفالها ''بـدون أمّ''.غطّتْ ماما فمهـا بظـاهر يـدها وكركـرتْ كطفـل. «''أعتقني،'' استجدتْ شهرزادك، ''أعتقني من الموت رحمة بهؤلاء الأطفال. فأنت لن تجد امرأة واحدة بين جميـع نـساء مملكتك تستطيع تنشئتهم كما ينبغي.'' تلك البغي الحمقاء. أكاد أجزم أنها حظيتْ بخمس سنوات أو عشر على الأكثر، قبل أن يهبط عليها السيف. وبمجـرّد أن بـدأ ''الرضـيع يمـشي''، وبمجرد أن ترهلتْ عـضلاتها، عـضلات شـهرزاد اللدنـة المرنة...» قالتْ ماما وهي تقطّب اشمئزازًا. فتـساءلتُ وأنـا أرنو إليها ما إذا كان يجدر بي أن أطفئ ضوء السقف الـذي حطّ بخشونة على وجهها، وأضيء المصابيح الجانبيـة. «... تلك العضلات المهمة جدًا لإرضاء الملـك الجبـار المهيـب شهريار...» تابعتْ فيما أخذ الدمع يترقرق في عينيها، وبدأتْ شفتها السفلى ترتعش. «نعم، ما إن أصبحت غيـر مغريـة أو مفيدة، ما إن فقدت محاسنها: طاخ! طار رأسها.» هتفتْ وتركتْ رأسها يسقط ومدّتْ ساقيها أمامها. للوهلة الأولى ظننتُها سـتقع من على الكنبة، لكنها بقيتْ بلا حراك، وصامتة لبضع دقـائق. فرحتُ أتخيّل حياتي بدونها. حوّمتْ في بطني دوامـة عنيفـة، وشيء مؤلم ودخيل اعتصر قلبي واندفع خلالي. ولا أدري أخوفًا كان ما اعتراني من فكرة فقدانها أم إثارة. ثم أفاقتْ من جمودها، وتطلّعتْ إليّ كما لو أنها المرة الأولى التي نلتقي فيها. وبعـدما أجالتْ طرفها في الغرفة، لبثتْ ساكنة للحظة، ثم أشعلتْ سيجارة وقالتْ وهي تشيح بنظرها، «عليكَ أن تنام.»

*

في الصباحات التالية كانت دائمًا لطيفة. ولطالما راقها أن تصطحبني بالسيارة، وفي أيام المدرسة تبادرني بالسؤال، «أي شيء مهم اليوم؟» فأهزّ كتفي، فتقول، «سأتصل بالمدرسة وأخبرهم أنك مريض.» وفي السيارة تتكلّم كثيرًا ولا تبدو دهشة من صمتي. بل لا تجد ضيرًا في الوقوف تحت جسر المشاة فوق شارع جورجي ليتسنى لي التفرّج على الأولاد الأشقياء وهم يتعلقون بحافة الجسر بأيديهم ويتدلّون فوق السيارات المندفعة تحتهم، وبعضهم، الشجعان منهم حقًا يتعلّقون بكواحلهم. عادةً، كنا كلما مررنا بهم، طلبتْ مني أن أغمض عينيّ. ولكنها في تلك الصباحات لا تمانع التوقف قريبًا منهم لتدعني أتفرّج. وأحيانا قد تقول، «أعترف أنهم شجعان جدًا.» ثم تضيف، «عِدني ألا تفعل مثلهم أبدًا، عدني أن تحمي نفسك دائمًا.» كنت في بعض الأوقات أومئ برأسي موافقًا، وفي أوقات أخرى لا أفعل.

وفي صباحات أخرى كانت تتجشم عناء اصطحابي طول الطريق إلى المدينة لمجرّد أن تشتري لي أصابع السمسم. أو، إذا نال منها المرض كثيرًا في الليلة السابقة تأخذني إلى مطعم سينيور آل كالزوني عند البحر، لأتناول الروبيان المشوي والسباغيتي. وفي الشتاء حساء البنجر والطماطم مع الخبز والجبنة واللحم المقدّد. ولكم أعجبني كيف يصبغ البنجر لعابي ولساني باللون الأرجواني لساعات.

كان لدى سينيور آل كالزوني ماكينة كبيرة تعصر البرتقال وحدها. وكان يدعني أضغط على الزرّ الذي يشغل تلك العملية كلها؛ ابتداءً من تقطيع البرتقال إلى عصره أمام عينيك. لم أكن في الحقيقة مولعًا كثيرًا بعصير البرتقال، لكنني كنت في بعض

الأيام أكرع منه خمسة أكواب، لأتفرّج فقط على الماكينة وهي تشتغل. غالبا ما كنتُ أتناول الجيلاتي بعد الطعام. أما ماما فتطلب كابوتشينو وترشف فنجانها بروية وهي ترنو إلى البحر، أو تضيّق جفنيها لتحدّد النظر في الأفق، حيث يمكننا في الأيام الصافية أن نلمح مالطا، كقطعة بسكويت عملاقة عائمة على الماء.

كان سينيور آل كالزوني يُسرّ بحضورنا دائمًا. ولا يكاد يرانا حتى يقودنا إلى طاولتنا عند النافذة، ثم يتلكأ هناك ليفتح باب الحديث معنا. كيف أنه يفتقد إيطاليا كثيرًا، وكم يحب ليبيا. ومن وقت لآخر قد يهتف بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه كلّ من في المطعم، «يعيش القائد،» وعيناه صوب جدارية كبيرة في أحد أطراف المطعم، جعل بعض طلبة الفنون الجميلة يرسمونها له. ويظهر فيها العقيد بكامل زيّه العسكري، عاقدًا حاجبيه وعلى وجهه سيماء الحزم. وإذا كان ثمة طاولة في المطعم يشغلها رجال اللجنة الثورية أو المخابرات؛ الناس الذين ندعوهم بـ *الأنتينات*، تسمعه يهتف، «الفاتح، الفاتح، الفاتح،» وهو يلكم الهواء بقبضته إلى أن يضمّ النوادل أصواتهم إلى صوته. أحيانا، قد يخرج رئيس الطهاة أيضًا ويشترك معهم، وحينها يتسنّى لي التفرّج على قبعته البيضاء الطويلة المنفوشة.

كانت الأشياء التي تقصها عليَّ تثقل صدري، تثقله إلى درجة تجعلني أشعر أنه من المستحيل مواصلة الحياة بدون البوح بها. لكنني لم أكن أرغب في أن أحنث بوعدي لها – الوعد الذي ترغمني دائمًا على أن أقطعه، أحيانا ربما أكثر من ثلاثين مرة في ليلة واحدة، الوعد بألا أخبر أحدًا، أن أقسم بحياتها، مرة تلو مرة، ثم تحذّرني بقولها، «إذا أخبرت أي شخص ثم مت فحياتي برقبتك.» – لذلك حاولت أن أبوح بتلك

الأشياء لها. كنا يومها في مطعم آل كالزوني، ولم تكف عن مقاطعتي واستعطافي لأتوقّف، لكنني سددتُ أذنيّ، أغمضتُ عينيّ وواصلتُ الكلام كرجل آلي. فخبطتْ الطاولة وقالت، «أرجو ألا تحرجني يا سليمان، أتوسّل إليك،» ثم لوتْ شفتيها وهمستْ بصرامة، «ولد في عمرك لا ينبغي أبدًا أن يتفوّه بأشياء كهذه.» ثم غيرتْ نبرتها وأردفتْ، «يا حبيبي، يا نور عيوني، عِدني ألا تخبر أحدًا، خصوصًا موسى. أعرفُ كم تحبّ موسى، لكن لا شيء يبقي في صدر ذلك الرجل. عِدني.»
فأومأتُ برأسي موافقًا وأنا ألفّ ذراعيّ حول جسمي بشدّة: هذه بدتْ لي الطريقة الوحيدة التي قد تساعدني على الاحتفاظ بتلك الأشياء داخلي.

كان سينيور آل كالزوني يتجنّب الاقتراب من طاولتنا عندما يرانا هكذا. ويفضّل آنذاك الوقوف قرب أمين الصندوق متظاهرًا أنه لا ينظر ناحيتنا.

في بعض الأوقات كنتُ لا أستطيع التحايل على نفسي لآكل، وحينها تعتقد ماما أنني أعاقبها. «ماذا تريد مني؟» تسألني هامسة بغضب. «تخليتُ عن كلّ شيء من أجلكَ. ولكنك مع ذلك غير راض.»

وإذا أجهشتُ باكيًا، يأخذني سينيور آل كالزوني لأعصر مزيدًا من البرتقال، وهو يمسك يدي ويحاكيني بلكنته الطريفة. وحين يكون المطعم خاليًا تمامًا من الرواد، يجلس قربي وينظر إلى البحر ويقول، «ها، انظر يا سليمان كم هو جميل بلدك. إنه الآن بلدي أيضًا، صح؟ أنا ليبي مثلك، وأتكلم كالليبيين، صح؟» «لا،» أقول عندئذ لأجعله يضحك، فقد كانت له ضحكة رائعة تجعل جسمه كله يهتزّ. وقد مكّنتني المقاعد المزوّدة بزنبركات من تقليده دائمًا. فيحمرّ خجلاً أمام ماما. «عليكَ أن تغير اسمك من سينيور آل كالزوني إلى سينيور

الحسيني.» وكان هذا يجعله يستغرق أكثر في الضحك والاهتزاز.

بيد أن الندم على ما بدر مني من ضحك وكلام سرعان ما يساورني ونحن في طريقنا إلى البيت. أندم على كسر صمتي، على السماح لنفسي بأن أُخدَع كهرّة تمّ التحايل عليها بِخيط لتخرج من تحت السرير. وكنت أعرف أيّ فشل منيتُ به، عندما تعرّج ماما ونحن في طريق العودة، في وقت متأخر بعد الظهر، على المخبز الذي خلا من الناس وفقد خبزه آنذاك طراوته. فأتنحّى جانبًا وأتظاهر أنني أرسم بصندلي أشكالاً على الأرضية المعفرة بالطحين، وأخالس مجدي الخباز النظر وهو يفتش عن شيء تحت منصّة البيع الضخمة، وأنا أقول لنفسي هذا هو الشيطان بعينه. ثم أراه يناولها قنينة ملفوفة بكيس بلاستيكي أسود، لتسارع هي إلى دفنها في حقيبة يدها. وعندما نصبح في السيارة، لا تضع الحقيبة بجانبها كما تفعل عادة، ولكن تحت ساقيها، بمنأى عن العيون. كنتُ أعرف أنه دواؤها؛ دواء ضارّ لها وضارّ لي، ولكن ارتيابي في الدنيا ومكاني فيها جعلني أصمت دائمًا. وعندما تراني أسلّط انتقامي على نهايات أرغفة الخبز اليابسة، لا تتذمّر أبدًا من تفتيتي لها.

*

كنا أنا وماما نمضي أغلب الوقت معًا. هي وحدها، وأنا غير قادر على تركها. ولكم أرّقني الخوف ممّا قد يطرأ على العالم من اختلاف لو أنني غضضتُ طرفي عنه ولو لثانية، لو خففتُ من حدّة تحديقي فيه. كنت مقتنعًا أنني إذا بقيت يقظًا، فلن تطالنا الكارثة، وستعود ماما إلى وعيها سالمة ومعافاة، غير ضائعة ولا منبوذة عند الضفة الأخرى. لكن، على الرغم

من استحالة التنبؤ بتصرفها وحاجتها الملحّة إلى سرد حكايات تعذبني، فإن حراستي لها وما كنت أعتبره آنذاك مرضًا، ربطانا منذ تلك الأيام بألفة أخذت بمجامع أعمق درجات الحب في ذاكرتي. فإذا كان الحب يبدأ من نقطة ما، إذا كان قوة خفية تظهر إلى العلن على يد شخص ما، مثل ضوء ينعكس من مرآة، فهي ذلك الشخص بالنسبة لي. كان هناك غضب، كانت هناك شفقة، بل حتى طوق من الكراهية الغامضة الموجعة، لكن الحب كان دائمًا موجودًا، ودائمًا كانت هناك تلك المسرّة التي تحيط ببداية الحب.

٣

في ذلك الصيف علّم أستاذ رشيد ابنه قيادة السيارة. كان يضع لكريم وسادة تحته ويدعه يقود في شوارع جرجارش الهادئة. وقبل أسبوع من ذهابنا إلى لبِدة، أخذ كريم مفتاح سيارة أبيه بدون أن يطلب أذنه، وقاد بنا السيارة إلى البحر. حاول أن يقترب بها أكثر ما يمكن من الماء، لكن عجلات السيارة غاصتْ في الرمل حين بلغنا الشاطئ.

«لماذا لا تريد الذهاب إلى لِبدة؟»

«لن تسمح لي ماما.»

«دعكَ من اختلاق الأعذار، لقد أخبرتْ بابا أنكَ تستطيع الذهاب. مِمَّ أنت خائف؟»

«لَستُ خائفًا.» أجبتُ، لكنه لم يبد مقتنعًا بجوابي، وخشيتُ أن يظنني دلوع ماما، لذلك أخبرته. «إنها مريضة، وأعتقد أنها ستموت قريباً.»

«لكن جميع النساء مريضات،» هتف كريم. «ماما تنزف دائمًا.»

«حقًا؟»

«إي. أحيانًا أدخل الحمام وأجد ماء المرحاض أحمر. إنه شيء مقزّز. ولكن ليس عليكَ أن تقلق، فهذه لعنتهن، وهذا لا يعني أنهن سيمتن.»

كان سطح البحر مستويًا وساكنًا كالزيت. جرينا إلى أن أزلّ أقدامنا الماء. ثم تسابقنا سابحيْن صوب الزرقة الفيروزية العميقة والأكثر برودة. شعرتُ بالأسى على كريم، وبالارتياح

لأن أمي على الأقلّ لا تنزف.

«ستعجبكَ لِبدة،» قال كريم وهو يغطس ويدغدغ قدمي.

حينما عدنا إلى الشاطئ جمعنا أحجارًا وأخشابًا وأيّ نفايات أخرى عثرنا عليها، لنحشرها وراء العجلات، وقبل أن تشقّ السيارة طريقها خارج الرمل، أنَّ محركها ومالت بنا على الجانبين.

*

أخبرني كريم أنه زار لِبدة الكبرى عدّة مرات مع أبيه. ورأى أيضًا غدامس وسبراطة ورسوم الكهوف في فزان. وأبحر إلى كريت بقارب، حيث النساء هناك، كما قال، يسبحن عاريات. كان مثلي ابنًا وحيدًا لأبويه. هذا يُعتبر أمرًا نادرًا جدًا عندنا، لأن الآباء الذين ليس لديهم إلا ابن واحد يقعون دائمًا في مأزق اعتقاد الناس أنه إما المرأة ما عادت صالحة للإنجاب، أو أن كلاً من الأمّ والأب، لا سمح الله، يعارضان مشيئة الله. وكثيرًا ما سُئلت ماما لماذا لم تنجب مزيدًا من الأطفال. وكان السؤال يربكها، حتى بابا غالبًا ما شعر بالإحراج كلما وكزه صديق وسأله همسًا لماذا لم يتخذ لنفسه زوجة أخرى. ولعل هذا سبب تقاربنا أنا وكريم – كان كريم في الثانية عشرة، أما أنا ففي التاسعة – بالرغم من اختلاف عمرينا، لأن ما جمع بين كريم وبيني لا يكاد يشبه الصداقة، إنما هو شيء أقرب إلى رباط الدم أو المزية المشتركة. وقد رغبت بشدة في أن أصير مثله.

أول ما انتقل كريم ووالداه إلى جيرتنا ذهبت ماما لزيارتهم. طلبت مني يومها أن أنتعل حذائي الجلدي الأسود الذي ما انتعلته إلا نادرًا لأنه ثقيل ويحف بكاحلي، وكوت لي قميصي الأبيض وأصرّت على أن أزرّ ياقته. ولم أمانع لأنني

كنتُ متحمسًا جدًا للقاء جاري الجديد، الجار الذي أخبرني الصبيان فيِ الحي أنه مثلي بلا أخوة أو أخوات. لكن عندما ذهبنا علمت من خالة سلمي؛ أمّ كريم، أنه رافق أباه لاستكشاف المنطقة، ثم ابتسمتْ وأمالتْ رأسها وقالتْ، «آسفة.»

كان معظم حيّنا مخططًا للبناء، لكن أساسات الأبنية حُفرت وهُجرت. والبيوت الخمسة الوحيدة المستكمَلة فيه، تماثلتْ في تصميمها وتجمّعتْ متقاربة بعضها من بعض في الوسط تقريبًا: بيتنا وبيت كريم على جانب من الشارع، والبيوت الثلاثة الأخرى التي يسكن فيها عدنان ومسعود وعلي وأسامة على جانبهِ المقابل.

تجولّتُ في بيت جيراننا الجدد مستمتعًا بالشعور الغريب الذي تملّكني لأنني في بناء هو صورة مطابقة لبيتنا من الخارج، ولكنه مختلف من الداخل لاختلاف الأثاث وألوان الجدران: كأخوين نشأ كلّ منهما بعيدًا عن الآخر. كانت جدران بيتنا مكسوّة بورق الجدران الإيطالي، تزخرفه أزهار أوروبية متفتّحة، وأوراق خريفية أبدية التساقط، والطير نفسه يعتلي الفرع نفسه وينقد الغصين نفسه مرارًا وتكرارًا، وعلى الأرائك ذات المساند فراشات أجنبية، والطاولات من الخشب الفاخر الداكن، وستائر نوافذنا من القماش الهولندي والمخمل الفرنسي. أما جدرانهم فمطلية بلون المعجون، وحواشي الأرض باللون البني الغامقِ. «حتى لا يظهرِ عليها الوسخ،» أوضحتْ خالة سلمى وهي تري ماما البيتَ. «يا لها من فكرة ذكية،» قالت ماما بنبرة متحمّسة جديّة. كانت نوافذ بيتهم مجللة بالنسيج القطني نفسه، ذلك النوع المتوافر في ليبيا عمومًا والمستورد من مصر. لم يكونوا أثرياء مثلنا؛ فأستاذ رشيد شغل منصب أستاذ جامعي، بينما كان بابا رجل أعمال يجوب الدنيا بحثًا عن أشياء جميلة وعن حيوانات وأشجار

ليحضرها إلى بلدنا. في تلك الليلة حمدتُ الله على يسر حالنا وسألتُه أن يديم نعمته علينا أبدًا وأبدًا.

*

قبل يومين من اعتقال أستاذ رشيد، انضممتُ إليه هو وكريم وطلابه في رحلة إلى لِبدة. لم يكن بابا في البيتِ، وحينما التفتّ ورائي ورأيت ماما تلوّح لي مودعة، شعرتُ بوتر في قلبي ينقطع.

في بداية الرحلة تملّكني الاضطراب، بيد أن رواد الحافلة ما لبثوا أن أخذوا كلهم يصفّقون ويغنّون. كان تلامذة أستاذ رشيد في أوج سرورهم، وجعلني تأمّلهم أتحرّق شوقًا لبلوغ الجامعة. تمّ استدراج صبيتيْن أو ثلاث ليرقصن، وبعيون حيية هززن أوراكهنِ وحرّكن أذرعهن في الهواء. فراحت السيارات العابرة أسفل منا تطلق أبواقها. كنا وكأننا في حفل زفاف.

قعدتُ أنا وكريم في المؤخرة. أما أستاذ رشيد ففي المقدمة. ومن حين لآخر كان يلتفتُ إلينا ويبتسم. وحينما همد الرقص والغناء، علا هتافنا ونحن نردّد: *الدكتور، الدكتور، الدكتور*... ولم نتوقّف إلا عندما نهض أستاذ رشيد وواجهنا.

«يُشرّفني حقًا أن يكون لدي مجموعة محترمة منضبطة حسنة السلوك من الطلاب مثلكم. بودّي فقط أن أعرف أيها الجامحون أين أخفيتم تلك الخصال.»

ضحكنا جميعًا ونحن نصفّق ونصفّر بأعلى ما نستطيع.

«أسّس مدينة لِبدة الكبرى رهط جاء من صور...»

«لبنان.»

«نعم – أحسنتم – لبنان حاليًا. ولذلك أصبحتْ على التوالي فينيقية ثم رومانية، كما تعرفون طبعًا، واشتهرت

حينذاك بفضل ابنها الوفي، الإمبراطور سبـــ...»
«سيبتيموس سيفيروس.»
«نعم، الإفريقي العبوس، أفريقينا العبوس، مصدر فخرنـــا وخزينا.»
«فخرنا فخرنا.»
«طيب، ما دمتم تصرّون.»
استدارت الحافلة ميممة دربًا ترابيًا يؤدي إلى البحر.
«أهلاً بكم في لِبدة،» هتف أستاذ رشيد.
بدا ساعتها مأخوذًا. ترجّل من الحافلة وهو يبتسم للمدينـــة المهجورة المنثورة قرب البحر المتلاطم، وأعمدتها الملتويـــة كعمالقة ضخمة غافية على الشاطئ. زفر زفرة عميقة وانبرى يتلو قصيدة:

لماذا السكون من بعد الفرح؟
وهذي النهاية من بعد مجد؟
وما العدم ذا وكان يومًا مدينة
هل من مجيب سوى الرياح التي
تسرق ترانيم القساوسة
وتفرّق الأرواح التي تلاقت مرةً

صفّق بعض الطلاب له، فابتسم وانحنى وخدّاه يتضرّجان.
«رثاء سيدي محرز لقرطاجة يمكن أيضًا وصف لِبدة به،» قال وهو يحثّ الخطى قدمًا، ونحن نكافح وراءه لنلحق به.
أخذنا لنشاهد إفريزًا مكسورًا عليه جزء من اسم الإمبراطور. كان الغيابُ حاضرًا في المكان؛ الأقواس القائمة بدون حيطان وسقوف المحلات التي تعود إليها، لاحت في الميدان المهجور تحت السماء المكشوفة كرجال مسنين

يحاولون أن يتنكّروا ما هي وجهتهم، أما حجارتها فكانت منقوشة باللبلاب المتشابك وعناقيد العنب. الطرقات المرصوفة بالحجارة البيضاء - بعضها يتجه إلى البحر، وبعضها إلى الخلاء الأخضر الذي يطوّق المكان - تقدّمت ببسالة صوب الرمل الصاعد الذي محاها. ومن خلال الأرض المعبّدة بالحجارة بزغت أوراق السرخس والحشيش والقصعين البري. وعند حواف المدينة انحنت أشجار النخيل كعجائز ثرثارات.

أرانا منحوتات «ميداليات الميدوزا» الرخامية المُقحمة عاليًا عند مواضع انحناء القناطر الكلسية. كانوا صبيانًا بخدود مستديرة معافاة كأنها الأقمار، تؤطرها خصلات شعر غزير أجعد، شفاههم منفرجة قليلاً وجباههم مقطبة وعيونهم تراقب المدى بقلق. «يُعرفون أيضًا باسم ''وحوش البحر''، قال أستاذ رشيد، «دائمًا يراقبون البحر، دائمًا يتوقّعون الأسوأ.»

بقي كريم يحدق في ميداليات الميدوزا لوقت طويل بعد ابتعاد المجموعة وانتقالها إلى الهدف التالي.

«ما العبرة؟» تساءل.

«لإرهاب العدو،» قلتُ.

«وكيف تتوقّعهم أن يفعلوا هذا؟»

«لا أدري،» أجبت وأنا أهمّ بالانصراف.

«الأطفال عديمو الفائدة في الحروب،» قال وهو يتبعني.

لحقنا أستاذ رشيد إلى ما يُطلق عليه الحمّامات؛ مكعبات مستطيلة مبلّطة منحوتة في الأرض تحت سقوف مُقببة. حيطانها وسقوفها مخططة بنماذج جصية متقشّرة لرجال يطعنون برماحهم أعناق الأسود والفهود، وآخرين على قوارب في نهر يعجّ بأسماك فاغرة الأفواه. توقّف أستاذ رشيد أمام رسم امرأة عارية.

«هذه مينادة؛ أي وصيفة من الوصيفات التابعات لديانة

الإله باخوس، الإله الذي ينفّس المكبوتات ويلهم الإبداع.»

كانت عيناها غريبتين كأنهما عينا طائر، شفتاها ممتلئتان وحزينتان، المنطقة حول حلمتيها تتوهّج بلون وردي، وبطنها الممتد نزولاً يتّسع برقةٍ عند الوركين. كانت ترقص، إحدى يديها فوق رأسها، والأخرى قريبة من خصرها. وقفتُ أتأملها. تناهى إلي صوت أستاذ رشيد وهو يبتعد، وخطوات الآخرين تمضي وراءه. دنوتُ منها أكثر، تركتُ إصبعي يتتبع دوامة سرّتها الداكنة، ثم درتُ به حول حلمتها الوردية. ولما حطّت عيناي على شفتيها الداكنتين، قبّلتهما، وأنا أسمع ترداد أنفاسي على الحجر الجاف البارد. شيءٍ ما كأنه الشعور بالذنب أو الخوف جعلني أتراجع. اجتاحتْ بطني دوامة من الإثارة. بدا لي أن عينيها تتفرّسان فيَّ. قبّلتها ثانية قبلة عجلى وجريت لألحق بالآخرين.

تناولنا الطعام في الخلاء، ولما استلقى الجميع يرتاحون عند الأشجار، مضيتُ وكريم للاستكشاف. لمحنا اثنين من طلاب أستاذ رشيد يتعانقان تحت شجرة كستناء. راقبنا الشاب يدسّ يده تحت قميص الفتاة. ندّت عنها أنة غريبة. فيما بعد اشتبك الشاب نفسه في عراك بالأيدي مع طالب آخر، لكننا لم نتمكن من الجزم أنه بسبب الفتاة. وعندما لكم أحدهما الآخر على وجهه، لم يصدر عن اللكمة ذلك الصوت المعهود الذي في الأفلام، بل بدا أقرب إلى صوت قبلة ندية. وقفْ أستاذ رشيد بين المتعاركيْن ليضع حدّا للعراك، فسقطت نظارته أرضًا. حينئذٍ أطبقِ الصمت على الجميع. وفيما انهمك يبحث عن نظارته والكل يراقبه افتر ثغره عن ابتسامة غريبة. ثم عثر كريم عليها في التراب، فالتقطها ووضعها في يد أبيه. ثبّتها أستاذ رشيد على عينيه وابتسم ثانية مطرق الرأس، وكأنه هو من فقد أعصابه ووجد نفسه الآن في موقف محرج.

لما بدأ الجميع يستعد للمغادرة اصطحبني كـريم لرؤيـة المدرج. هناك، تبادلنا الأدوار في الجري إلى المنصة لنـسمع أصواتنا وهي تتضخم عند الدرج الذي بُني على شكل أَهِلّـة. في هذا الوقت كانت الغيوم الكثيفة تتراكم في السماء، قاتمـة ومكفهرة، وأخذ البحر الذي ازداد تلاطمـه يخـبط الـشاطئ بأمواجه، وأخيرًا هطل المطر.

في طريق العودة نام معظم مَن في الحافلة. أما أنا فقعدتُ أراقب "كريم" وقد غمر نفسه في حضن أبيه.

*

مرّتْ بي أوقات تمنيتُ فيها لو أن بابا يشبه أستاذ رشيد، بيـد أن عدم تشابِههما لا يعني أنهما لم يكونا صديقيْن مقربيْن. كان بابا أشدّ تحفظًا. والمرّات التي شعرتُ فيها أنني أكثر قربًا إليه هي في أثناء غفلته عن حضوري: عندما، على سبيل المثـال، أراقبه وهو يستعرض على السرير ثروته من ربطات العنق، مدندنًا لنفسه لحنًا غير مألوف. حتى طريقته في السباحة نمّت عن انعزاليته: إذ يعوم على ظهره، وأصابع قدميه تشير إلـى السماء، وعيناه مغمضتان، غير آبه إلى أين قد يجرفه المـاء. وفي البيت غالبًا ما شُغل بكتاب أو بكميات الـصحف الهائلـة التي تظهر عند عتبة بابنا كلّ صباح. كنت في بعض الأحيان أتكوّر قربه وهو يقرأ، لكنه كان يمتلك قوة تركيـز مدهـشة، ونادرًا ما لاحظ وجودي، لذلك كنت أكتفي بالتمعّن في وجهه. حتى حلوى النعناع الإنجليزي التي يشتريها في أثناء رحلاتـه خارج البلاد، ويحفظها في صندوق فضي صغير، بـدت لـي غامضة: كانت بحجم حبة الأسبرين، ولكنها تلسع فمي لـسعًا بمجرد أن أضعها فيه. درج في بعـض الأوقـات أن يعلّـق

بالإيطالية على الصحيفة. وهذا ما كان يجعل ماما تضحك دائمًا قبل أن تنبري قائلة، «أبوك يشتم الصحيفة.»

وعلى الرغم من أنه يسافر أكثر بكثير من أستاذ رشيد، لم يصطحبني يومًا معه. وكم رجوته أن يفعل. وذات مرة استبد بي الحزن إلى درجة أنني صرخت وركلت قصبتي ساقيه وأوسعت فخذيه ضربًا. ولما ردعتني ماما بكيت ودعوته بـ «القبيح!» ومع ذلك انطلق بالسيارة غير عابئ. بعد تلك الحادثة ما سألته قطّ أن يصطحبني معه، وما بكيت أمامه كلما همّ بالرحيل.

في أوقات أخرى تمنيت سرًا لو أن موسى هو أبي؛ صديق بابا المقرّب. كان موسى يصغره سنًا، أقرب في العمر إلى ماما، وطويلاً كشجرة. وكثيرًا ما حملني على كتفيه لأطال ثمرة فاكهة أنضجتها الشمس على رؤوس أشجار الإجاص والبرتقال في حديقتنا.

*

عاد بابا ذات مرة من إحدى سفراته التجارية بشاحنة كبيرة مفتوحة محمّلة بأشجار جاءت من السويد عن طريق البحر. وكم بدا غريبًا أن تبيت خارج بيتنا. كانت داكنة وندية ورائحتها كرائحة جسم بشري. فتحت أنا وماما الأطلس على طاولة المطبخ لنرى أين تقع السويد بالضبط، وعن أيّ طريق بحري جاءت أشجار بابا. مرة أخرى حُمّلت الشاحنة بأبقار ذات لون أسود أو بُنّي قاتم من إسكتلندا. وقمنا – أنا وبابا وماما وموسى – بإطعامها دون أن نخرجها من الشاحنة. أقحمنا العلف من خلال السياج، وعيونها السوداء الكبيرة الشبيهة بالزجاج تلاحقنا بصمت. غنت لها ماما كما تغني لنفسها في

الحمّام، أو وهي تعلّق الملابس على حبل الغسيل في الحديقة، غنّت برقّة طفلة غافلة عما حولها. وحرصِ بابا على أن يدور حول الشاحنة عدة مرات ليتأكّد من أن كلّ بقرة نالت حصتها من العلف. وطوال تلك الفترة بقيت الأبقار صامتة ومستغرقة في المضغِ على نحو كئيب.

قِضيتُ ذلك اليوم وأنا غير قادر على ترك الأبقار وحدها. درتُ حول الشاحِنة، وعيناي تتفحّصان حلمات ضروعها الوردية، تسلقتُ لأتفرّس في عيونها الغريبة. بعد القيلولة جاء الصبيان وأخذوا يستفزونها. هزهز مسعود مؤخرته في وجوهها وخار، فجعل أخاه "علي" يضحك بشدّة حتى انتفخت أوداج رقبته الصغيرة. أراد أسامة أن يسمع خوارها، ولما قذفها ببضعة أحجار، احتشدتْ الأبقار معًا ليحتمي بعضها ببعض. تسببتْ حِركتها المفاجئة في ترنّح الشاحنة قليلاً. وبدا أن هذا أيقظ خوفًا كامنًا في علي؛ إذ ركض إلى باب بيته، ووقف يعاين أصابعه عابسًا. وحينما صاح به شقيقه مسعود، «تعال، لا تتصرّف كالأطفال،» جِرى إلى داخل البيت ولم يخرج لبقية اليوم. أخيرًا توعّدتُ أسامة بإخبار بابا، فتنهّد ورمى الأحجار من يديه.

مع حلول الظلام بدِأتْ الأبقار بالخوار.

«لعلها خائفة،» قلتُ مقترحًا.

لكن موسى قال إن الحرارة هي ما يضايقها. «شمس المكان الذي جاءت منه ليست حارّة، والضوء شبه معدوم.»

«أتريد إقناعنا أنه سبق لك وزرتَ اسكتلندا؟» تصدّت له ماما.

«لا. رأيتُ ذلك في فيلم. وتملكتني القشعريرة من مجرد مشاهدته.»

أما بابا فلم يستطع أن يجزم كم هي باردة اسكتلندا، لأنه

في الواقع اشترى الأبقار من رجل في مالطا التي تقع في الطرف الآخر من البحر.

في الصباح التالي بعد أنِ غادر بابا بالشاحنة وحملها، قصدتْ أمّ مسعود بابنا متشكّية. كانت أمَّ كلٍّ من مسعود وعلي، تقطن في البيت المقابل لبيتنا. وكانتِ بدينة مثل ولديها، وردفاها بحجم بطيختين عملاقتين. وقد كنتُ متأكدًا من أنني أستطيع أن أوازن قدح ماء على هذا الردف أو ذاك، مع أنني بالطبع ما حاولت قطّ تجربة ذلك. قالت وإحدىِ يديها تمسك بعلي، والأخرى تلوّحها قرب أذنها، «ما زلتُ أسمع خوارها في أذني، وأظن أنني سأظل أسمعه لوقت طويل. ولم يقدر علي أن ينام.» كان علي لا يتجاوز السادسة مِن العمر، وبدا وٍهو واقف إلى جانب أمه الضخمة كالقزم. مددتُ له لساني مغيظًا، فعبس وأشاح بنظره. «قام عدّة مرات وهو يصرخ. هذا إذا لم نأتِ على سيرة النتانة التي خلفتها أبقارْكم في حيّنا.»

«ها قد فعلتِ للتو،» غمغمتْ ماما.

«ماذا، ماذا قلتِ؟» استوضحتْ أمّ مسعود التي جعل الشكّ حاجبيها يتقوّسان بشكلٍ لافت للنظر.

«لا شيء،» ردّتْ ماما.

انصرفتْ أم مسعود وهي تجرّ "علي" من يده، وتردّد بينها وبين نفسها، «أبقار يا ربي؟ أبقار في شارعنا؟»

«في المرة القادمة سنستورد أفاعي،» قالتْ ماما وهي تصرّ على أسنانها. «أفاعي عديمة الرائحة وصامتة.»

«ماذا سيقول الناس عنّا؟» واصلتْ أم مسعود لغوها. «نجلب الأبقار إلى بيوتنا؟ هذا ليس شيئًا طبيعيًا. لا، ليس طبيعيًا.»

حمدتُ الله لأن أمّ مسعود لم تسمع ما قالته ماما عن الأفاعي. فقد كان أستاذ جعفر، زوج أم مسعود من الأنتينات،

واحد من رجال المخابرات، «قادر على إرسال النـاس وراء الشمس،» كما سمعتُ في مناسبات كثيرة.

*

بعد يومين من رحلتنا إلى لِبدةٍ، وقبل أسبوع من رؤيتي لبابا وهو يجتاز ميدان الشهداء، اعتُقل أستاذ رشيد.

كنتُ قد شاهدتُ من قبل في التلفزيون رجالاً يخضعون للاستجواب. وأتذكّر مرة أنني شاهدتُ تحقيقًا مع رجل يمتلك معمل ألبسة في طرابلس، اتهِم بالبورجوازية والخيانة. كان يرتدي بذلة إيطالية بلون رمادي فاتح بدت تحت الأضواء ذات لمعة طفيفة. وكان يقعد على كرسيه هامدًا كأنه يشتكي وجعًا. يومها وقفتُ خارج مدخل الغرفة تمامًا، حيث لا يمكن لأحد أن يلاحظني. كان بابا وموسى يشغلان الكنبة، وماما تجلس قربهما على الأريكة. قال موسى لبابا بصوت خافت، «تعمّدوا عدم المساس بالوجه. أراهنكَ أن جسمه خريطة كدمات.» فجأة ظهر من لا مكانٍ كدرٌ داكن عند إربية الرجل؛ لطخة أخذت تتسع وتتسع. كنتُ أول من لاحظها. جريتُ إلى الشاشة، وأغمدتُ فيها إصبعي. «ابتعد،» هدر بابا. هرعتُ إلى ماما ووقفتُ بجانبها. «اذهب إلى غرفتكَ،» صاح. «لا بأس، دَعه،» قالت ماما، بيد أنه عاد وصاح، «لا ينبغي أن يرى هذا.» «لكنها بلاده أيضًا،» ردّت ماما بهدوء وعيناها على الشاشة. فاندفع خارجًا من الغرفة. وبقينا نراقب الرجل وهو يتململ في كرسيه محاولاً تغطية اللطخة الرطبة بيديه.

لكن رؤية أستاذ رشيد وهو يُعتقل كانت شيئًا مختلفًا. كنتُ قد سمعتُ من قبل أن لا أحد أبدًا بعيد من متناولهم. لكن أن أشاهدهم بأمّ عيني، أن أشاهد كيف يتمّ ذلك، وبأيّ سرعة،

وكيف أنه لا مجال للمجادلة، للرفض، جعل بطني يتشنج. لاحقًا، عندما أبصرتْ ماما وجهي قالت، «كأنكَ رأيتَ شبحًا.» وإذ أخبرتها بما شهدتُ وضعت يدها على جبينها وهمست، «مسكينة سلمى.» ثم أخذتني إلى الحمّام وغسلتْ وجهي وقالت، «ما كان ينبغي أن تقف وتراقب. في مرة قادمة اركض مباشرة إلى البيت.» ثمّ أعدّتْ لي حساءً وكوب شاي كأنني مصاب بالزكام.

*

كان شخص ما، أو بعض الخونة، يطبعون منشورات تنتقد القائد ولجانه الثورية، ثم يأتون في منتصف الليل ويضعونها على عتبات أبوابنا كالصحف. أقول بعضهم، ولكن لا ريب أن أعدادهم تجاوزت المئات، أو ربما حتى الآلاف. وقد تناوبت أنا والصبيان على السهر ليلاً أملاً في أن نضبط أحدهم. وتخيلناهم مقنّعين، سريعي الحركة، ومتشحين بالسواد. ومرة ادّعى علي أنه لمح واحدًا، فعاجله مسعود بخبطة على رأسه وقال، «إذا كذبتَ مرة أخرى في مثل هذه الأمور فسأخبر بابا.»

خاف الجميع من تلك المنشورات، وحرصوا على تبيان وجهة نظرهم بتمزيقها على مرأى من بقية الجيران. آخرون، مثل ماما، أخذوا الأوراق إلى الداخل، وراقبوها وهي تحترق في حوض المطبخ، ثم سلطوا على رمادها صنبور الماء البارد. تارةً سمعتها تقول لخالة سلمى، «سيورطوننا كلّنا في المشاكل.» ولما سألتُها عما عنته، تنهّدتْ وقالتْ «لا شيء.» وتارة أخرى رأيتها تقف متيبّسة في الخارج عند الرصيف تستمع إلى أمّ مسعود وهي تذمّ «الخونة» قائلة، «جعفر مكروب جدًا من تلك المنشورات،» وعلى غير المعتاد حاورت

ماما أمّ مسعود بطريقة مختلفة، أبدتْ لها تعاطفًا؛ عبستْ، هزّتْ رأسها، ووافقتْ أم مسعود في كلّ ما قالته، وتمتمتْ، «إيه، سامحهم الله، إنهم لا يدركون كم كانت الثورة رائعة لهذه البلاد.»

في صبيحة يوم اعتقال أستاذ رشيد، كنتُ أنا والصبيان ضجرين جدًا إلى درجة أننا أخذنا المنشورات التي تركها لنا الخونة ليلاً، ورحنا نرشقها فوق جدران حدائق البيوت، حيث حطّت مباشرة وبطريقة رسمية داخل تلك البيوت. فعلنا هذا فقط في الأحياء المجاورة التي لا نعرف أحدًا من سكانها. كنا نربط المنشورات الورقية الخفيفة بأحجار صغيرة ونقذفها من فوق الجدران العالية، كطريقة قذف القنابل في الأفلام. وبالرغم من أن ما فعلناه أنعشنا، إلا أن السأم سرعان ما اعترانا ثانية، فعدنا إلى شارعنا وبدأنا نهيئه لمباراة كرة قدم.

كانت جرجارش منطقة حديثة البناء، وبمعزل عن طرقاتها الرئيسة التي ربطتها بوسط المدينة، بقيت معظم شوارعها تنتظر تسميتها أو تزفيتها. لذلك أطلقنا على شارعنا اسم شارع التوت، لأنه كان في الماضي بستان توت. وآخر ما تبقّى منه شجرة وحيدة في حديقة بيت جيراننا؛ أستاذ رشيد وخالة سلمى.

عندما توسطت الشمس كبد السماء، سمعنا خشخشة مكبر صوت مسجدنا المحلي. كنا نستطيع أن نلمح في الفضاء مئذنته الشبيهة بقلم رصاص والمشرفة على بيوت شارعنا الواطئة. وما لبث أن جاء منها صوت الشيخ مصطفى.

حدّدنا موقعي المرميين بالصخور الصغيرة وقناني البلاستيك الفارغة، تجادلنا بخصوص الحدود الجانبية، ثم انطلقت اللعبة أخيرًا. بعد عدة دقائق من بداية المباراة اندفعت تجاهنا سيارة وهي تثير الغبار كما لو أنها المخلوق الوحيد في العالم. عندما رأيناها، بيضاء تحت الشمس، توقّفنا عن اللعب

وعدونا إلي الرصيف، تاركين الكرة تتدحرج بعيدًا.

توقفت السيارة أمام بيت كريم. تسمّر كريم فــي أرضــه، وكأن قلبه انخلع وسقط في حذائه. خرج أربعة رجــال مــن السيارة وتركوها مفتوحة الأبواب، فلاحت تحت الشمس مثــل حشرة عث عملاقة ميتة. اقتحم ثلاثة من الرجال البيت، أمــا رابعهم الذي تولّى قيادة السيارة وبدا أنه رئيسهم، فانتظر على الرصيف. ابتسم في وجه الشقيقين السمينين مــسعود وعلــي. وحينها لم يدر في خلدي قطّ أنه يعرفهما، فلا أحد منا رآه في الجوار من قبل. كان له وجه شنيع، كأنه حجر خفان بما فيــه من ندوب. بعد هنيهةٍ ظهر رجاله ثانية، يمسكون أستاذ رشيد بينهم بدون أن يبديٍ مقاومة. وعلى الفور تبعته خالة سـلمى كما لو أن هناك خيطًا غير مرئي يربطهــا بزوجهــا. صــفع الرجل ذو الوجه المجدور أستاذ رشيد فجأة وعلى نحو همجي. فصدر عن الصفعة صوت يشبه صوت نسيج يتمــزّق، هــذا أوقف خالة سلمى في أرضها. ركل آخر أستاذ رشـيد علــى مؤخرته، بيد أنه كان بدون شكّ يتوقعها لأنه اندفع إلى الأمامٍ قبل أن تأتيه. ومع أن قوتها جعلته يقفز، لم يُــصدر صــوتًا. كانت ترتسم على محياه تلك الابتسامة الغريبة المرتبكة نفسها. لم يجادل ولم يتوسّل، وكأن الأسباب كلّهــا، جميــع الأســئلة والأجوبة معروفة. أدهشني قميصه الممزق الذي لمٍ يحمل أثر دماء. وفيما بعد قلتُ لنفسيٍ إنه لو نزف، ولو قليلاً، ربّما هان الأمر على كريم، لأننا عادة نحترمٍ الرجال الذين ينزفون. نظر أستاذ رشيد في اتجاهنا، ولما التقت عيناه بعيني كــريم تغيّــر وجهه، كما لو أنه يوشك أن يبكي أو يتقيأ. ثم انثنى على نفسه وأخذ يسعل. احتار الرجال في أمرهم. تبادلوا النظرات، ثــم نظروا إلى خالة سلمى التي وقفتْ وإحدى يديها تحجب فمهــا، والأخرى قابضة على ضفيرتها التي حطّت على كتفها سميكة

كأنها حبل مرساة. بعدئذٍ شدّدوا قبضاتهم على أستاذ رشيد، قذفوه داخل السيارة، صفقوا أبوابها، وانطلقوا بها وسطنا، ساحقين في طريقهم مرميي ملعبنا. لم أتمكّن من رؤية رأس أستاذ رشيدٍ بين الرجلين الجالسيْن إلى جانبيه في المقعد الخلفي؛ فتيقّنت من أنه ما زال يسعل.

مضى كريم وراء السيارة بضع خطوات، ولبرهة خطر لي أنه سيلاحقها. لكنه ما لبث أن وقف وظهره لنا، ثم استدار ويمّم البيت. كانت خالة سلمى واقفة بلا حراك ويدها لا تزال قابضة على شعرها، تنظر صوب الاتجاه الذي اختفت فيه السيارة، كما لو أنها ستظهر ثانية، كما لو أن أستاذ رشيد في طريق عودته إلى البيت أخيرًا بعد طول سفر.

*

لم يعرف أحد لماذا أُخذ أستاذ رشيد، لكن في اليوم التالي بدأتْ تنتشر إشاعات تقول إنه خائن. ثم جاءت أمّ مسعود إلى بابنا، تمطقتْ بلسانها، وتلفتتْ حولها وقالت، «هذا مصير الخونة.»

كثيرًا ما سمع بابا ثرثرة أمّ مسعود من قبل: زعمتْ مرة أن بهلول الشحاذ أغنى منا كلنا مجتمعين، وأن مجدي الخباز لم يبع فقط «الخبز الحلال» - حسب قولها - ولكن شيئًا آخر أيضًا، اسمه «جرابا،» وهو ليس من المحرّمات فقط، ولكن غير قانوني في بلادنا كذلك. لم يعبأ بابا قطّ بإشاعات كهذه، بل أحيانًا اعتبرها مسلية. لكن أستاذ رشيد كان صديقه، وغالبًا ما كانا يتمشيان معًا قريبًا من البحر، بعد أن تنخفض الشمس. ويجلسان كثيرًا في مكتب بابا ليتحدثا بنبرة خفيضة، حيث ينضمّ إليهما ناصر أحيانًا. وأقوم أنا بإحضار القهوة لهم. تقرع عليهم ماما الباب مرتيْن، ثم تفتحه لي، فأدخل ببطء موازنا

الصينية بين يديّ، ليصفعني على الفور هواء الغرفة العبق بدخان السجائر، والذي يجعل رائحة المصطكي والهال الحادّة المنبعثة من القهوة لطيفة بالمقارنة معه. «لا تهرقها،» تكون عادةً كلمات ماما الأخيرة قبل أن تقاطع تلك الاجتماعات السرية بفتحها الباب. بيد أنني سرعان ما توصلتُ إلى طريقة ناجحة لحمل الصينية، وهي أن أنظر أمامي، وأتجاهل أمر القهوة، أو أتظاهر بذلك. أما في البداية فكنتُ أمشي ورأسي يواجه أحواض القهوة السوداء الثلاثة على الصينية الفضية، آمراً يديّ أن تتماسكا، وطرف عيني يلتقط عن يساري ركب الرجليْن المسترخييْن على أريكتي رسوم الفراشات الوثيرتين، وعن يميني طرف منضدة بابا الخشبية العريضة ذات اللون البني. وعندما أضع الصينية سالمة على المنضدة، يقول بابا، «أحسنتَ يا سليمان.» وفي بعض الأحيان أسمع وأنا أرفع نظري إليه طقطقة عظام رقبتي. كان حديثهم يتوقف منذ لحظة قرع ماما الباب. وما من مرة إلا وانتظروا ذهابي بفارغ الصبر. «أغلق الباب،» ينبري بابا قائلاً، لكنه في أكثر الأوقات يعود ويناديني ثانية في اللحظة الأخيرة، «هاك،» يقول، «أفرغ هذه،» ويناولني منفضة سجائر طافحة بالأعقاب وبعيدان الثقاب المحروقة. وقبل أسابيع من اعتقال أستاذ رشيد، وأنا أضع الصينية على منضدة بابا لمحتُ دموعًا في عينيه. كان يقرأ شيئًا، وأستاذ رشيد وناصر قابعيْن بصمت يراقبانه. مضيتُ إلى جانبه وسألته وأنا أكزه، «مَن أزعجكَ بابا؟» فرفع أستاذ رشيد يده وابتسم، «أخشى أنه أنا يا سليمان.» تملكني حينذاك الارتباك. لِمَ يزعج أستاذ رشيد بابا؟ ندّت عن ناصر ضحكة مقتضبة، ووضع بابا يده على رأسي وقال بصوت متحشرج، «لا أحد أزعجني سلومة، كنت اقرأ فقط...» ثم رنا إلى الورقة في يده. «رائعة. علينا أن

نشرها،» أردف وهو يعطيها لناصر. طوى ناصر الورقة طيتين، ودسّها في جيب قميصه.

لم يسبق لي قطّ أن رأيت بابا يبكي. ولم أفهم كيف تجعله قراءة شيء جميل يبكي.

عندما سمع بابا أمّ مسعود تتمطق بلسانها وتقول، «هذا مصير الخونة،» لم يستطع السكوت. «هذه كذبة،» قال لها بصوت يتفجّر غضبًا. «كذبة نشرتها السلطات لتبرير اختفاء الأبرياء.»

أمعنتْ أمّ مسعود النظر في أصابعها وكأنها تقارن بين طول أظفارها.

«لكنهم في الحقيقة ليسوا في حاجة إلى الكذب، فهناك دائمًا متطوعون على استعداد لأن يكذبوا عنهم. فالآلية والسهولة التي تتمّ الأمور بها...»

سحبته ماما من كمّه. «دعيني،» صاح بحدّة. ثم نظر إلى أمّ مسعود شزرًا. «الأعشاب الضارة يا أمّ مسعود،» وفيما هو ينطق الكلمة لوى يده كما لو أنه يُحكم تثبيت برغي، وكأن تلك الكلمة ستلصق أمّ مسعود في مكانها. «الأعشاب الضارة مثل الإشاعات لا تحتاج إلى مساعدة،» ثار الدم في وجه بابا، وروّعني أن أراه هكذا، فهو بالرغم من الجديّة الغالبة عليه لم يغضب إلا في ما ندر.

تلهّتْ أمّ مسعود بتأمّل أصابعها، مبتسمة ابتسامة المتيقّن الآن، كما لو أن شكًا قديمًا تنازعها ثبتتْ صحته أخيرًا.

*

قال أستاذ رشيد ذات مرة لبابا إن زوجتيهما أشبه بأختين التقتا بعد طول افتراق. في اليوم الأول للقائهما - وهما واقفتان في

مطبخ خالة سلمى بين الصناديق نصف المفرّغة - بدتا ممتنتين للقدر لأنه جمعهما أخيرًا. ومنذ ذلك الحين، ما مرّ يوم أو يومان بدون أن تتلفن أحداهما للأخرى أو تزورها، بل كثيرًا ما اختلقتا الأعذار لتقتحم كلٌ منهما حياة الأخرى. في صباحات كثيرة تدقّ خالة سلمى بابنا لتقترض السكر أو الطحين أو الملح، وحينها تطلب منها ماما الدخول. «وقتي ضيق،» تتحجج خالة سلمى، لكنها لا تلبث أن تنسى نفسها حتى يأتي أستاذ رشيد أو كريم في طلبها منزعجيْن لأنها لم تشرع حتى في إعداد الغداء لهما. في أحيان أخرى يكون دور ماما في الذهاب إلى بيت الجيران، وكنا نحن مَن يبقى بدون غداء. ما نسيتْ ماما نفسها قطّ مثلما فعلتْ وهي في صحبة خالة سلمى.

كانتا تشربان الشاي وتتجاذبان أطراف أحاديث لا نهاية لها، وفي بعض الأوقات تعمدان إلى التهامس، ثم تصفّق إحداهما وتنفجر ضاحكة. كانتا تشتريان آخر صرعات الموسيقى لتسمعاها معًا، وأحيانا قد تقرع إحداهما الطبلة وهي تهتف - *أيوه أيوه* - مع الإيقاع، والأخرى ترقص وتهزّ وركيها من طرف إلى طرف. مرةً رأيتهما ترقصان في غرفة نوم ماما على صوت خوليو إيغليسياس، ترقصان ببطء كطريقة رقص الرجال مع النساء في الأفلام الأجنبية. لما أنهتا الرقصة انحنتْ خالة سلمى وقبّلتْ يد ماما. وما إن لمحتني ماما حتى سارعتْ إلى سحب يدها. فجاءت خالة سلمى إلي، أمسكتْ يدي ورقصنا معًا. كانت مخلوقة رائعة، باسمة الثغر دومًا، وذات وجنتين حمراوين.

اعتدنا، عندما يكون بابا غائبًا، وتصاب ماما بالمرض، ألا نفتح الباب لأحد، متظاهريْن أننا لسنا في البيت. لكنني ذات يوم خفت كثيرًا إلى درجة أنني جازفت وفتحت الباب لخالة

سلمى. وعندما أبصرتْ ماما على الأرض في غرفة النوم، وشمّتْ رائحتها، بدتْ وكأن ظلاً أسود حطّ على وجهها. تركتْ الغرفة وعادتْ بمنشفة مبللة مسحتْ وجه ماما بها. فأفاقتْ ماما والأمور مختلطة عليها. «ماذا تفعلين هنا؟» قالت لخالة سلمى التي ساعدتها على اللجوءِ إلى السرير، ثم أرسلتني لأجلب قدح ماء. وعندما عدت وجدت ماما تبكي، وخالة سلمى تقول لها، «صلّي على النبي يا بنت،» فاستجابت ماما وصلّت على النبي وهي تزفر بعمق.

ما عادتِ ماما تذهب إلى خالة سلمى بعد اعتقال أستاذ رشيد، وكفّتْ خالة سلمى عن الاتصال والزيارة. بل إن ماما أرادت أن أمتنع عن معاشرة كريم. «لا داعي للاقتراب كثيرًا من ذلك الصبي،» قالت، هي التي لم تلقبه قطّ بـ «ذلك الصبي». «هذا زمان المشي بجانب الحيط،» أردفتْ. ولما سألتها عما تعنيه بقولها هذا، أجابت «لا شيء، حاول فقط ألا تقترب منه كثيرًا، هذا كلّ شيء.» وإذ شعرتْ بعينيّ تلاحقانها وأنا أحاول أن أفهم، أضافت، «ليس من مصلحتكَ الاقتراب من الحزن الذي يعتمل فيه. الحزن يعشق الخواء، كلّ ما يريده هو أنْ يسمع رجع صداه. فكن حذرًا.»

أثّرتْ في كلمات ماما؛ وتملّكني إحساس بالذنب كلما بقيتُ وكريم وحدنا. كانت على صواب: فقد استوطن عينيه حزن محتوم منذ أن اعتُقل أستاذ رشيد، لكنه ليس حزن الشوق، بل حزن الخيانة، الحزن الصامت الذي يولّده خذلان الآخرين لك. أو على الأقل هذا ما أراه الآن. غدا أكثر هدوءاً – كان دائمًا هادئًا لكن ليس بهذا القدر– ورفض الانضمام إلينا في أيّ من الألعاب التي لعبناها. كان يكتفي بالاتكاء على سيارة قريبة فيما نحن نلعب كرة القدم في الشارع، ناظرًا إلينا بطريقة جعلتني أشعر أنني بعيد جدًا عنه. كم تمنيت في لحظات كتلك

أن يعود رجال اللجنة الثورية ويأخذوا أبي لأتعادل وإياه ونتحد مجددًا بأواصر الدم الغامضة التي بدت حتى ذلك اليوم امتيازًا.

في وقت لاحق، عندما تسنّى لنا أن نكون وحدنا قلتُ له، «سامحنا يا كريم، سامحنا لأننا لم نقف كلّنا يدًا بيد لنسدّ عليهم الطريق. فشارع التوت هو في النهايةِ شارعنا *نحن*.» يومها لوى شفته السفلى وهزّ كتفيه. شعرتُ بالشعور نفسه الذي لا بدّ أنه ينتاب ماما عندما أكون غاضبًا جدًا منها بعد نوبة من نوبات مرضها. كم رغبتُ في أن أخرجه من صمته. أخذتُه لنسبح. ولكنه سبح على مضض، ولم يتوجّه صوب الماء العميق الصافي الذي يلامس الأفق، متجاوزًا على عجل الشريط الأزرق المسوّد الذي لطالما أخافنا لأن قاعه الحي يعجّ بطحالب داكنة وأشياء متحركة. وعندما تخطيتُ وحدي المياه القاتمة، وأنا أتحرّك كالعلم الخفّاق بزعنفتيّ الطويلتين، ضاربًا ذراعيّ بسرعة في الفيروز الباهت، نظرتُ إلى الوراء ورأيته على الشاطئ في طريقه إلى الانصراف

٤

عندما وصل بابا إلى البيت في اليوم التالي بدا كاسف البال. كان قد مضى ثمانية أيام على اعتقال أستاذ رشيد. وخلافًا لعادته في إحضارِ الهدايا كلما رجع من سفراته، لم يجلب معه شيئًا. وهذا ما أكّد كذبه: زعمه لنا أنه مسافر إلى الخارج، بينما هو في الحقيقة يهرب إلى حياته الأخرى هنا في طرابلس، في ميدان الشهداء.

انتظرت وانتظرت، ثمّ سألته، «ماذا جلبت لي؟»

«لا شيء،» قال بدون أن ينظر في اتجاهي حتى.

في المرة السابقة أحضر لي ساعة مقاومة للماء وفيها ضوء. وهو عادة يحضر لماما زجاجة عطر، فتبادر إلى فتحها، تضع نقطة منها على باطن رسغها، تشمّها ثم تبتسم لنفسها.

ثم إنه لم يحمل في جعبته أيّ أقاصيص، ولم يعلّق على ما عملته ماما لتبدي ترحيبها به. كانت قد صرفت الصباح بأكمله في المطبخ؛ نقرت الكوسا وحشته باللحم والأرز، ففعمت المطبخ روائح البقدونس والليمون والهال، نقعت حبوب الرمان بماء الورد والسكر. ثم بعد أنِ اغتسلت، ونشّفت شعرها بالمجفف، ولبست فستانًا هفهافًا، أشعلت أعواد بخور المسك، ووضعتها في أصص النباتات داخل البيت بانتظار قدومه. بدت جميلة جدًا؛ ودائمًا كانت تبدو جميلة في أثناء وجوده في البيت.

كانت طريقة بابا المميزة في رنّ جرس الباب تتألف من

رنّة واحدة تتبعها ثلاث رنات سريعة: دينغ- دونغ، ثم دينغ- دونغ- دينغ - دونغ- دينغ- دونغ. كأرنب يحجل مرة ثم يثب ثلاث مرات. ولما سمعت ماما الجرس تناولتْ وردة قرنفلية اللون من الزهرية الطافحة بالورود وغرستها في شعرها فوق أذنها تمامًا قبل أن تسارع إلى فتح الباب.

جاء ساعة الغداء تقريبًا، مثلما قالَ إنه سيفعل. ولما جلسنا لنأكل لم يتنفّس الصعداء كعادته ولم يقُل، «لا مكان في العالم مثل البيت.» وكمْ تمنيتُه أن يفعل لأنٍ تلك الكلمات تجعل وجنتي ماما تتضرّجان بالحمرة. بدلاً من ذلك، رفع ذقنه صوب السقف وحشر منديله عند عقدة ربطة عنقه، مما جعل شفتيه تختلجان، وبدأ يرشف الحساء.

أمسكتْ ماما دفّة الحديث كله وبالكاد أكلتْ شيئًا. حاولتْ أن تسكب له ثانية، لكنه وضع يده فوق صحنه وهزّ رأسه بالرفض.

«أيّ أخبار عن رشيد؟»

«ما زلنا نجهل أين هو.»

«أنا قلقة يا فرج، قلقة علينا.»

«سنكونِ بخير. كيف حال سلمى؟»

تنهّدتْ ماما.

«إنها تحتاجنا الآن أكثر من أي وقت مضى،» قال وهو يضع منديله عليِ المائدة ويغادر الغرفة.

«لقد اخترتَ طريقًا مسدودًا،» قالت من خلفه، ولما لم يردّ عليها نظرِت إليَّ.

دِفعت صحني نحوها لتعاود سكب المزيد لي، مع أنني كنتُ قد امتلأتُ.

حينما خرج من الحمّام ذهب إلى غرفة الجلوس وصاح، «أين الشاي؟» فبابا لا بدّ أن يشرب الشاي الأخضر بعد

الغداء. كان يقول إنه يساعد على الهضم. ذلك الشاي شديد المرارة الذي يسبب الحكّة لسقف حلقي.

عندما تأكدتُ من أنني بمأمن وهو في غرفة الجلوس، وهي في المطبخ تعدّ الشاي، اغتنمت الفرصة لأتسلل إلى غرفة نومهما. فتشتُ في سترته عن تلك النظّارة الشمسية الهائلة، ورائحته - ذلك المزيج من عطره ودخان الغليون - تسطع في الغرفة كأنها وجود قائم بذاته. لم أعثر على النظارة. مضيتُ لأجلس بجانبه، أقبّل يده وأخبره كم أنا سعيد لأنه عاد إلى البيت. لكنني وجدتُ ماما بين ذراعيه، مكياجها يميع على وجهها، وهو يقول، «هيا الآن، تعرفين كم أكره الدموع.» فرنتْ إليه واغتصبتْ ابتسامة. «أحتاجكِ،» همس، هزّت رأسها مستجيبة باستكانة، ثم مسحتْ وجهها وغادرتْ الغرفة. «ها يا مايسترو،» هتف لما رآني. «ابني الحبيب.» ثم أمسكني من خديّ وجذبني إليه وقبّلني من أنفي. ملأتْ الدموع عينيّ من الألم المبرح الذي عاناه خداي، لكنني ابتسمت ابتسامة عريضة جدًا إلى درجة أنني حتى لو أردت أن أخفي أسناني لما استطعت.

عادت ماما بصينية الشاي. ولكزني بابا بركبته، فصببتُ الشاي وبخار النعناع والقصعين الحادّ يتصاعد منه. رفعت الإبريق بأعلى ما استطعتُ، مشكّلاً أكثر ما يمكن تشكيله من رغوة. «حسنا، يكفي،» قال، ومع ذلك استمررتُ برفعه أعلى فأعلى. «انتبه،» هتف بنبرة قلقة، بيد أنني شعرتُ به وهو يبتسم لي مفتخرًا، مما جعل صدري يطفر حبورًا.

عندما أنهى شرب شايه نظر إلى ساعته، ثم نهض وقال، «أيقظيني في الرابعة. لدي موعد مهم.»

«مع مَن؟» سألتْه وهي تلحق به. «لكنّك وصلت الآن.»

كان بإمكاني سماعهما يتحدّثان قبل أن يستغرقا في النوم.

وعلى الرغم من أنهما ما استيقظا قطّ قبل وقتهما المحدد، تجولتُ في البيت بهدوء. خفضتُ صوت المذياع ووضعته عند أذني لأستمع إليه، قعدتُ على بعد سنتمترات قليلة من التلفزيون، والشعور بالارتياح يغمرني لأن بابا في البيت الآن. كلّ شيء سيعود طبيعيًا مرة أخرى، قلت لنفسي، ولي أن أغادر البيت وأنا مطمئن البال.

*

في الصيف على وجه الخصوص، عندما تتورّم الشمس بالحرارة، يُخلد العالم بأسره إلى النوم: الأطفال، البالغون، حتى الكلاب تعثر لنفسها على بقعة ظل لتهجع فيها. أما أنا فما تعلّمتُ يوما كيف أقيل. ولطالما استهجنتُ فكرة أن ألبس منامتي في الثالثة بعد الظهر. فهذا يذكّرني بالأيام التي أمرض فيها. وبدلاً من النوم أخرج لاستكشف بقع الأبنية المجاورة بحثًا عن أشياء تعجبني أو أراها ذات فائدة لي؛ أشياء كانت يومًا سكاكين أو أجزاء من مذياعات قديمة، ثم أجلبها إلى حديقتنا. وهناك أكشط الصمغ الذي ينزّ دائمًا من عُقد شجرة الصمغ، أجمع أي أخشاب أستطيع العثور عليها، ثم أحمل كلّ شيء بين ذراعيّ وأصعد الدرج المستقيم المؤدي إلى سطح البيت.

كان طوب السطح يصطلي يومها إلى درجة أنه يمكنكَ أن ترى وهج الحرارة يضطرم فوقه. كنت قد نسيتُ صندلي، ولذلك وثبتُ ناشدًا الظلّ الذي نشره خزان الماء، ومن هناك إلى ورشتي. دعكتُ قدميّ بالطوب الذي فتر الظل لظاه. نظرتُ عاليًا إلى الشمس، وفكرت، كم أن الشمس قوية، كم أنها هائلة، واعتراني الخوف منها، من احتمال أن لا تتحرك،

أو أن تزداد اقترابًا منّا، لتعصرنا كأنها منطاد عملاق. تذكّرتُ قصة الشيخ مصطفى الذي يعلّمني القرآن عن الجسر المؤدي إلى الجنة، الجسر الذي يقطع جهنم الأبدية لينقل المؤمنين إلى الجنة. جميعنا يتحتم علينا أن نجتازه في يوم ما، وبعضنا لن ينجح في العبور. هؤلاء سيسقطون في النار تحتهم، النار التي تناديهم. يا له من مشهد حينذاك! السعير والعويل – هناك حتمًا عويل – وألسنة اللهب تلعق جانبي الجسر، جاعلة الدرابزين – لم يأتِ الشيخ مصطفى على ذكر الدرابزين، لكن هناك حتمًا درابزين – حارق الملمس. «السخونة ستصل بعضنا بأسرع مما تصل إلى غيرهم،» قال الشيخ مصطفى، «لأن اللظى، ونار جهنم نفسها، ستكون للبعض مثل صوت يناديهم.» أفترضُ أن هذا شبيه بما يحدث عندما تسمع اسمك يُنادى ولا تجد أمامك مفرًا سوى أن تلتفت نحو مصدره. بعضنا سيكون متعطشًا إلى جهنم الأبدية – لا قدّر الله – كتعطشنا إلى الاستجابة، إلى الإذعانِ عندما يُنادى اسمنا حتى من قِبل شخص ما قابلناه من قبل قطّ، أو يُنادى من قِبل معلم سأل سؤالاً نعرف أننا نجهل جوابه، لكننا نرفع أيدينا لنرد على النداء، نقول «نعم،» وإذا لم يتمكّن من رؤيتنا، نتطاول ونصيح «هنا يا أستاذ!» مع تيقننا من أن لا جواب لدينا سوى ليِّ شفاهنا وهزّ أكتافنا. لأن النار تسعى وراء النار. لقد حذرني الشيخ مصطفى من هذا، قال لي «عليكَ يا سليمان أن تحاول تجاهل الحرارة وأنت على الجسر المؤدي إلى الجنة، يجب أن تبقي عينيكَ مسمّرتين على الجنة وجمال الجنة. ومهما حدث، إياكَ والنظر إلى الأسفل.»

فيما راقبتُ الحرارة تتلظى على طوب السطح، فكّرتُ أنه يجدر بي أن أتدرّب استعدادًا لذلك اليوم. قررّتُ أن أقطع المسافة إلى الدرج مشيًا – لا قفزًا ولا عدوًا بل مشيًا – بخطٍ

مستقيم كاستقامة السهم، بدون حتى أن أقوّس باطن قدميّ. واعتبرتُ الدرج جنّتي. لم تكن خطوتي الأولى بالسوء الذي توقعته، ولكن النارِ اشتعلتْ في أخمص قدميّ بعد بضع خطوات، ووجدتُ نفسي أثب وأركض متسائلاً ما إذا كان من المسموحِ الوثوب أو الركض على الصراط المؤديٍ إلى الجنة.

تمنيتُ لو أنني مثل الشيخ مصطفى. فقد رأيتُ أنه رجل تقي، ولن يحسّ قطعًا بأيّ حرارة. كان يؤم الصلاة في مسجدنا المحلي. ولأن بابا يحبّ صوته، كان يحضره بعد صلاة الجمعة، في وقت متأخر من الظهيرة، ليبارك بيتنا بقراءة بعض السور. وكم تراءى لي أن صوته الجهوري الرخيم يصل إلي كلّ غرفة على حدة ويملأها. كان أعمى. ولمِ تسنح لي قطّ فرصة رؤية عينيه جيدًا، لأنه حجبهما دائمًا بنظارة سوداء سميكة، لكنني لمحتُ أحيانًا إحداهما من الجانب؛ مفتوحةً تفتش عن الضوء كحلزون استيقظ تحت المطر. كنتُ أحبّ الجلوس إلى جانبه، لأراقب جسمه يتثنّى في لحظة سكون فاصلة: وجهه مسدّد إلى الأعلى ويده اليمنى قرب أذنه، قبل أن ينطلق، ينطلق صوته، من حيثما ينطلق، ويبحر طليقًا في كافة أنحاء بيتنا. أحيانًا كان ذلك الصوت يجلب إلى عينيّ دموعًا أسارع إلى تجفيفها. وأحيانًا، تتملكني الرغبة في أن أسأله ماذا يرى، وكيف يتخيلنا ويتخيل الدنيا. لكنني وقتذاك ما كنتُ أعرف كيفِ أطرح مثل هذه الأسئلة.

كانتِ قدماي تحترقان. نزلتُ الدرج ركضًا إلى الحديقة ومشيتُ تحت ظل شجيرات الفاكهة وأنا أقحم أصابع قدميّ بالتربة الرطبة، ثم أنفض قدميّ إلى الأمام مع كلّ خطوة، مقلدًا مشية بابا. قطفتُ خوخة زرقاء، لكن مذاقها الحامض جعلني أرميها تحت شجرتها. وحيث استقرّتْ، رأيتُ علامات أسناني عليها، والفجوة البيضاء التي خلّفتها عضتي فيها. عند أسفل

الحائط الذي يفصل بيتنا عن بيت أستاذ رشيد كانت هناك بضع حبات توت على التراب والنمل يشنّ هجومه عليها. وهذه هي شجرة التوت الوحيدة الباقية علىٍ قيد الحياة من بستان التوت الذي محاه شارعنا. عاينتُ فروعها الدقيقة وِحبات التوت الصغيرة التي بقيتْ عليها وتدلّت فوق الحائط. ترى، قلتُ لنفسي، كم ستصمد قبل أن تسقط هي أيضًا إلى النمل.

أحضرتُ السلّم وارتقيته ببطء شديد. كانتْ كلّ حبة توت مثل تاج من كرات أرجِوانية دقيقة. ذكّرتني بالعنب المنحوت على أقواس لِبدة. جزمتِ بيني وبين نفسي أن التوت هو أفضل فاكهة خلقها الله، وبدأتُ أتخيّل ملائكة فتية مفعمة بالحياة تتآمر لزرع محصول منها في تربة الأرض بعد أن سمعتْ أن آدم عليه الصلاة والسلام، وحواء عليها الصلاة والسلام سيُطردانِ إلى الأرض عقابًا لهما. كان الله يعلم بالطبع، فهوِ العليم بكلّ شيءٍ، لكن الفكرة راقته، ولذلك ترك الملائكة تنفذ خطتها. قطفتُ حبة وكادت تقريبًا تنصهر بين أصابعي. فسارعت إلى التقامها لتذوبِ في فمي، وكراتها الصغيرة تتفقع كأنها الألعاب النارية. أكلتُ أخرى ثم أخرى.

أجهل المدّة التي وقفتها على السلّم، لكن من المؤكد أنِ الأغصان القريبة مني أخذت تبدو أكثر عريًا عندما بدأتُ أشعر بالدوار. تحسستُ أعلى رأسي، واكتشفتُ أنه حار كحرارة غطاء سيارة في منتصف النهار.

كان التوت مُكتمل النضوج لأنني استطعتُ أن أرى الكثير منه على الأرض في الناحية الأخرى من الحائطِ. وخطر لي أن جيوش النمل بدون شكّ تحتشِد لأكله. رفعتُ عينيّ نحو الزرقة الصافيةِ للسماء وشكرتُ الملائكة وسألتُ الله أن يغفر لها عبثها. كنتُ قد امتلأتُ، وبدأت أحسّ أن معدتي ليست على

ما يرام – فهذه الفاكهة لذيذة المذاق في الفم ولكنها تصبح ثخينة كالدم في المعدة – لكنني مع ذلك كلما حاولتُ الكفَّ عن الأكل طالبني فمي بالمزيد. فقرّرتُ أن أعتلي الحائط، وأدلّي ساقيّ على جانبيه كما لو أنني أمتطي حصانًا وآكل كل ما أستطيع أن أصِل إليه من توت. التفتُ وأدنيتُ مني الأغصان. ولما ما عدتُ قادرًا على أكل المزيد حشوتُ جيوبي به.

عندما وصلتُ إلى الأرض كدتُ أفقد توازني. فتحتُ حنفية الحديقة ووضعتُ رأسي تحتها. سرى في داخلي شعور بالراحة من الماء البارد، لكن الدنيا دارتْ بي حالما وقفت. فسارعتُ إلى وضع رأسي تحت الماء ثانية وأغمضتُ عينيّ، فرأيتُ ألوانًا وأشكالاً غريبة تتراقص أمامي؛ جلّلتْ عينيّ ستارةٌ أغشت كلّ شيء. أذناي أيضًا سكّهما صفير صاخب. ازداد دوران الدنيا بي. جلستُ حيث كنتُ واقفًا. أحسستُ برطوبة التربة تتغلغل في بنطالي القصير. يجب أن أغلق الحنفية، فكّرتُ. ثم سمعتُ ماما تناديني. أفرغتُ جيوبي من كل ما فيها من توت وحشوتُ به فمي، ورحتُ أمضغ وأبتلع بأسرع ما يمكنني. حينها انتبهتُ إلى بهلول الشحاذ الذي وقف خارج سياج الحديقة. كان يتفرّسني. كم مضى عليه وهو واقف هناك، قلت لنفسي. أشار بإصبعه نحوي. «شايفكم، شايفكم،» هذر. وعلى الرغم من أنني أعرف أن بهلول مجنون، تلك الكلمات، تلك الكلمات الخالية من المعنى التي يردّدها دائمًا، ضاعفتْ ارتباكي. تساءلتُ ما إذا اعتقدَ أنني أسرق توت جيراني، وأعلن نفسه الشاهد على فعلتي. أكنت أسرق؟ لم أكن متأكدًا من هذا، لكن ما اعتبرته أكيدًا هو أنني سأُسامح حتى لو كنتُ أسرق فعلاً. فالتوتُ في النهاية يعود إلى كريم وأستاذ رشيد وخالة سلمى. لكن كلّ هذا لا يهمّ، فبهلول إذا راح ينشر الإشاعات عني سيصدقه أحدهم، لأنه «لا دخان

بلا نار». ارتعد قلبي. حاولتُ أن أبدو، أن أظهر، أن أشعر أنني بريء؛ فالأبرياء، كما أخبرني الشيخ مصطفى، ليس لديهم ما يخافونه. نادتني ماما مجددًا. اتكأتُ على الحائط متلمّسًا الخطى وأنا أسمع الماء ينهمر على التربة خلفي. فكّرتُ في أن أعود وأغلق الحنفية، لكنني تابعتُ المشي نحو المطبخ. «لا دخان بلا نار»، كررتْ الجملة نفسها في رأسي مرة أخرى.

فرّ الدم من رأسي بمجرّد أن دخلتُ بيتنا الوارف. وبالرغم من أنني عجزتُ تقريبًا عن رؤيةِ أي شيء ما عدا تلك الستارة الغريبة من النور والغبار، جلستُ حيث أعرف أن ثمة كرسيًا. ومن بعيد تناهى إليّ – أسمعَته ماما أيضًا يا ترى؟ – صياح بهلول المسعور، «شايفكم!» وتساءلتُ ما إذا كان انصرافي على هذا النحو، واهنًا ومترنحًا، يؤكّد ذنبي وبالتالي يوثق اتهامه.

«لِمَ أنت مبلل؟ ما هذا الأحمر على يديك ووجهك؟ ما بكَ؟ ماذا حدثَ؟ ماذا حدث؟ لماذا لا تجيبني بحق الله؟»

جثمتُ منطويًا على طاولة المطبخ، واللعاب يقطر من شفتي السفلى. أردتُ أن أتكلم لأخفّف عنها لكنني لم أستطع. حملقتْ عيناي إلى اللاشيء من خلال ستارةٍ من الأضواء الوامضة. لم أعرف ما خطبي، لكنني كنتُ أكثر قلقًا عليها. عادةً، في مثل هذا الوقت، آتي وأشدّها من يدها إلى ورشتي في الأعلى، لأريها آخر ما صنعتُ. فتقبّلني وتمضي إلى حافة السطح لتسرّح نظرها في البحر، وعباءتها الطويلة الحريرية المزينة برسم ذيل طاووسٍ عملاق ومنفوش تتماوج وراءها. والشمس التي تكون قد خفّتْ حدتها واكتسبتْ بالعديد من الألوان تتمرى بالبحر. فأقف إلى جانبها، متكئًا على ساقها، ولا أنظر إليها مرّة إلا وأجد عينيها تحدقان ثابتتين في الماء

المتلألئ. ثم تحدّثني عن البحر وكيف تغير لأن البحر يتغير كلّ يوم. في تلك اللحظات كنتُ أتمكن دائمًا من طرح أي سؤال عليها، ودائمًا تعطيني الجواب، أي سؤال قد يخطر على بالي، وأي عدد من الأسئلة يخطر لي أن أطرحها.

«ماذا دهاكَ؟» خبطتْ الطاولة وقامتْ. تمكّنتُ من سماع حركتها حولي وهي تخاطب نفسها: «هذا كلّه ذنبكِ. إذا حدث له شيء فالجميع سيلومونكِ. سيقولون إنكِ كنتِ نائمة بينما ابنك في حاجة إليك. إنه مجرّد طفل يا نجوى، أين كان عقلكِ؟»

إنه من المستهجن حقًا أن تسمع أمكَ تدعو نفسها باسمها، بل من المستهجن أن تسمع أيّ شخص يفعل هذا، لكن الأمر يسري على ماما بوجه خاص، لأنه لا أحد تقريبًا ناداها نجوى. بالنسبة لي هي ماما، ونعومة بالنسبة إلى عائلتها، وإلى بقية العالم أمّ سليمان. بابا يدعوها أمّ سليمان أو نعومة أو ماما، وفي أحيان نادرة جدًا نجوى. وحينها يخرج الاسم من فمه بعذوبة بالغة.

فيما راودتني هذه الخواطر سمعتُ صوت ماما يبتعد ويصرخ باسم بابا. لم أشعر بحالي وأنا أنهض وأغادر المطبخ، لكنني وجدتُ نفسي عند مدخل غرفة نومهما. وبصعوبة بالغة لمحتُها تتحنى وتهزّه. فقام مجفلاً ومشوشًا. هل أصبحتْ الساعة الرابعة، تساءلتْ، موعد اجتماعه المهم. نظر كلّ منهما إليّ. غلظتْ الستارة التي على عينيّ، لمحتُ في وجه بابا تعبير الاستياء من ماما لأنها أيقظته بتلك الطريقة، فها أنا كما رأى أقف هناك وعلى أحسن ما يرام. ثم طغتْ الظلمة على كل شيء.

٥

عندما أفقتُ كان الوقت ليلاً. شعرتّ بالأمور تختلط في ذهني. آنستُ أصواتًا خارج غرفتي لكنني لم أتمكّن من تحديد المكان الذي انبعثتْ منه. كان بيتنا ينقسم إلى نصف أمامي ونصف خلفي، يفصل بينهما دفتا باب الرواق الهزاز. في الأمام توجد الغرف الرسمية: الصالون حيث نستقبل الضيوف الذين لا نعرفهم جيدًا، وحيث أتمرّن على البيانو. وحجرة الطعام التي لم نستعملها قطّ مقابل الرواق. وفي الخلف غرفة الجلوس حيث التلفزيون، ثم المطبخ، ووراءهما الحمّام وغرف النوم.

كان باب غرفتي مفتوحًا، ومن مدخله لاحظتُ أن غرفة الجلوس مضاءة. سمعتُ ماما تسعل ثم تسأل: «أين هو؟»

«لا أعلم. توارى عن الأنظار إلى أن نعرف ماذا حلّ برشيد.»

كان ذاك موسى. ووجوده عندنا سرّني دائمًا.

«ألم يخبركَ أين هو؟»

«لا. عدتُ الآن من ساحة الشهداء، ولم أجده هناك.»

«طلبتُ منه ألا يورّط نفسه مع رشيد ومنشوراته.»

«لا تقلقي، رشيد لن يتكلم.»

«أنا لستُ طفلة، وأعرف جيدًا ما يقدر هؤلاء الناس على فعله.»

«قُدتُ السيارة قريبًا من الجامعة، وعرفتُ أن الطلاب سيطروا على الحرم الجامعي بأكمله، وعلّقوا رايات على النوافذ: *لسنا ضدّ الثورة. نحن ضدّ تطرّف الثورة. الحكم الذاتي*

لاتحاد الطلاب. إنها شعارات ألهمتها منشوراتنا.»

تخيّلتُ ماما تلوّح بيدها بجانب أذنها كما تفعل عادةً عندما تسمع شيئًا لا توافق عليه، لأن موسى ما لبث أن أضاف، «لا تكوني ساخرة إلى هذه الدرجة يا أمّ سليمان. هذه أوقات عصيبة. وقد يتغير كلّ شيء.»

«غيوم،» قالت. «مجرّد غيوم. تتجمّع ثم تنقشع. ما الذي تظنونه: سيتمكن بضعة طلاب قاموا باحتلال الجامعة من الإطاحة بدكتاتورية عسكرية؟ والله لو كان الأمر بهذه السهولة لعملته بنفسي. رأيت ما حدث قبل ثلاث سنوات عندما تجاسر أولئك الطلاب على الكلام. علّقوا برقابهم المشانق. والآن مكتوب علينا أن نشهد الأمر كلّه ثانية. الحالمون الحمقى! وتشجيعهم غباء وانعدام مسؤولية.»

«الواجب يحتّم علينا أن ندعو الظلم باسمه.»

«اِذهب وادعه باسمه في بلدك. هنا إما السكوت أو المنفى. اِمش بجانب الحائط أو اِرحل. اِذهب وكن بطلاً في مكان آخر.»

«إلى متى؟ إلى متى يجب أن نبقي رؤوسنا محنية؟»

«إلى أن يفرجها علينا الله. لا شيء يدوم إلى الأبد.»

خرجتُ من غرفة نومي وسمعتُ موسى يتنهّد قائلاً، «بالفعل، الله لا ينسى عباده المؤمنين أبدًا.» وحالما رآني بدأ يصفّق. «أهلاً، أهلاً يا بطل!»

قامتْ ماما من على الكنبة وهي تقول، «كيف تشعر سلومة؟ هل أنت بخير؟»

«إي،» أجبتُ فورًا لأنني عرفتُ أنها تحتاج إلى جوابٍ سريع، جواب مطمئِن سريع. أعلمتُها أنني بخير، وأنني نلت أفضلِ رقاد على الإطلاق، وحلمتُ أجمل الأحلامِ، وعندما أتيتُ على ذكر هذا الجزء المتعلق بالأحلام، طلبت مني أن

أجلس وأقصّها عليها.

كانت ماما تحبّ الأحلام، وتؤمن أنها تتضمّن رسائل سرّية تتنبأ بالمستقبل أو تكشف عن طبيعة الشخص الحقيقية. كان بإمكانها أن تخبركَ ما يعنيه الحلم لأن كلّ تفصيل فيه يحمل رمزًا. وهذا صحيح بالفعل؛ فالبحر في الحلم على سبيل المثال يعني الحياة. إذا كان هائجًا ومتلاطمًا فستواجِه بعض الصعوبات، أما إذا كان هادئًا فأيامك مستقرّة وجميلة. السمك يعني الجشع. البنت ترمز إلى الفأل الحسن وتعني الحياة أيضًا. الولد يدلّ على حظ سيئ. وأهمّ ما ينبغي تذكره عن تأويل الأحلام هو شعوركَ عندما تستيقظ منها. فإذا حلمت ببنت جميلة متّشحة بالبياض تغرق في بحر متلاطم، ثم رأيت نفسكَ مطوّقًا بعصابة من الأولاد يضربونك بسمك ميت، لكنكَ استيقظت سعيدًا، فلا تبتئس، ولا تخف، فهو حلم جيد.

اختلقتُ بسرعة حلمًا، وذلك أنني كنتُ أمشي على مقربة من بحر هادئ. فابتسمتْ ماما وقالت إنه فأل خير.

«ماذا حلمت أيضا؟» سألتني.

أخذتُ أعمل جهدي في التفكير، ثم أنقذني موسى. وقف وحملني على كتفيه.

كان موسى طويلاً جدًا إلى درجة أنه يتحتم عليه أن ينحني قليلاً ليمرّ عبر مدخل الباب. من على كتفيه تمكنتُ من رؤية بلورات الثريا تتلألأ قربي، أما هو فراح يعتصر ساقيّ بأصابعه. «إنه بخير، إنه بخير،» قال. «لا يشكو من شيء. إنه البطل، بطلنا العظيم، ولا علّة فيه على الإطلاق. انظري إليه فقط، انظري إلى عضلاته. إنه بخير، بخير. نحن نحب فقط أن نثير ضجة حول بطلنا.»

لطالما أحببتُ تدليك موسى لي، لكن جسمي كان ما يزال خدرًا من النوم، ومن شدّة ما آلمتني أصابعه الكبيرة وهو

يعصر بها فخذيّ وساقيّ ضحكتُ.

«ما عدتُ أُدعى إلى ولائم الغداء،» قالت ماما. «وإذا دعوتُ الأصحاب لا يأتون.»

«جبناء،» قال موسى.

«لا، إنما عقلاء.»

مررتُ أصابعي خلال خرزات الثريا البلورية. وبدت راحتاي اللتان ما زالتا حمراوين من التوت مثل راحتي بنت حنتهما للعيد.

«متى كانت آخر مرة زارنا فيها أقاربي، أو أقاربه؟ وكلّ ذلك من أجل ماذا؟»

«ليس بإمكانكِ أن تهبي الناس قلوبًا شجاعة.»

«لا. الشجعان الوحيدون المتبقون في هذه البلاد هم أنت وزوجي وناصر ورشيد والطلاب السُذج الذين تورطونهم معكم،» تنهّدت. «ساعدني،» عادت وهتفت بصوت متداعٍ. «ساعدني كي أقنعه بالتخلي عن هذا الدرب التعس.»

«لستُ أفضل مرشحٍ للقيام بهذا العمل،» قال.

«لكنّه يصغي إليك.»

أفلت موسى أحد كاحليّ ونظر إلى ساعته. كان الوقت يشير إلى التاسعة وعشر دقائقٍ.

«من هم المؤمنون؟» سألتُ.

«أنزِله،» قالت ماما، وكالرافعة تقوّس موسى. جاءتْ ووضعتْ يدها على جبيني. كانت راحتها باردة ورطبة.

«كيف تصبح واحدًا من المؤمنين؟ أراهنُ أن أقدامهم لن تحترق على الجسرِ إلى الجنة.»

«ما زالَ ساخنًا لكنه ليس محمومًا. سأعدّ شيئًا نأكله،» قالت وتركتْ الغرفة.

«أكل، أكل، أكل، كلما لم نجد شيئًا آخر نعمله أكلنا،» قال

موسى ضاحكًا. كانت ضحكة موسى تجعلكَ تضحك حتى وإن لم تجد ما يُضحكه طريفًا.

«الولد في حاجة إلى استِعادة قواه،» هتفتْ من المطبخ.

نظرِ إليَّ وابتسم. قعدتُ قربه على الكنبة ويداي تحتي. اعتدتُ على فعل هذا لأن يديّ كانتا في معظم الأوقات ببرودة مكعبات الثلج. هذا ما تقوله ماما. قدماي أيضًا كانتا تبردان كثيرًا. وما من مرة لمستهما ماما إلا وجفلتْ، ثم سارعتْ إلى فركهما أو إلى جلب جورب شتوي سميك.

«هل أعجبتكَ لبدة؟»

«إيه.»

«ماذا أعجبك فيها؟»

«وحوش البحر. متى ستأخذني إلى السيرك؟ لقد وعدتني.»

«ربّما غدًا.»

«كيف تصبح من المؤمنين؟»

«تصلّي لئلا يعثر عليك الشيطان.»

«ولماذا يبحث الشيطان عنّا؟»

«هذه مهمته.»

«أعتقدُ أن التوت من الجنة.»

كنتُ آمل بقولي هذا أن يأخذني إلى مكتب بابا لنبحث في بعض الكتب السميكة، عسانا نطّلع على كلّ ما يمكن الاطلاع عليه عن التوت.

عندما يقرأ موسى يتحتم عليكَ أن تهدأ وتستمع إليه. وما كان يرضى أن يتمّ الأمر على غير ذلك النحو. يجلس على حافة كرسيه ويجلسني أمامه؛ يداه تتجاوبان مع كلماته، تغدوان أحيانًا سريعتيْن وملحّتيْن وأحيانًا حانيتيْن وبطيئتيْن. وعندما يبلغ فقرة تعجبه يترك الكتاب مفتوحًا في حضنه، ثم يصفق

ويغني في الهواء «الله! يا سبحان الله كيف يمكن للكلمات أن تكون بهذه العذوبة،» أو يعلّق على المؤلف، «ما هذا النور كلّه، هذه الروعة، هذه الفخامة المدهشة، هذه الدّقة، أقسم أنها الدّقة المتناهية للغة!» ثم يعاود التقاط الكتاب ويكمل القراءة.

إذا كان ما يقرأه شعرًا، يحمل الكتاب بيد وبالأخرى يضمّ سبابته إلى إبهامه وينطق - كل - كلمة - كما - لو - أنها - بنيان - قائم - بذاته، وإذا عثر على مقطع يعجبه، لا يصفّق أو يصيح مادحًا المؤلف أو عائلة المؤلف - لا - بل يتناول سيجارته المشتعلة ويسحب نفسًا عميقًا بطيئًا وعيناه تعاودان قراءة السطور، وساقه تهتزّ بعصبية، ثم يقول وعيناه على الصفحة، «هل تسمع وقعها يا سليمان؟ وقع الحركة؟ الحركة موجودة دائمًا في الكلمات.» ثم يعيد قراءة المقطع ويطلب مني أن ألاحظ وقع الحركة هذه المرة لأن الشعر، كما اعتاد أن يكرّر دائمًا، هو كلمات في حالة حركة. حاولتُ أن أستوعب ما يعنيه عندما قرأ قصائد شاعره المفضل، الذي تربطه به صلة المواطنة؛ صلاح عبد الصبور:

واعتنقتْ صحيفة السماء والغبراء
لطّخن الجبين بالغبار
وانطفأتْ نوافذ المرضى وأنوار الجسور
أعين الحراس والمآذن

عجزِي عن استيعاب مثلِ تلك المقاطع لم يدهشني. إلا أنني كنت أتزعزع كلما ميّزتُ شيئًا مألوفًا في قصيدة، شيئًا أشعر أنني اختبرته:

أوّاه يا نور الضحى
ملأتَ قلبي فزعًا وترحا
لأنني رأيتُ فوق ما أردتُ أن أرى.

أو:

سويعة ويهبط السواد حين ينقضي الأصيل
فالشمس ألقتْ نظرة الوداع
واتكأتْ مرهقة على التلال
وهكذا تمضي الحياة بي
أعيش في انتظار

وأحيانًا كان ما يدهشني هو الغليان في صوت موسى عندما يقرأ أبياتًا مثل:

وكلنا مؤجَّر بالقطعة
ونستعير ثوبنا المذهب الأطراف
من خزنة السلطان
وبيننا صداقة عميقة، كالفجوة.

كان موسى مولعًا بصلاح عبد الصبور، وفي سنة ١٩٨١ لما مات الشاعر بطريقة مأساوية عن عمر يناهز الخمسين، وضع موسى ربطة عنق سوداء لمدة أربعين يومًا.

نقل لي موسى عدوى عشقه للغة، ومع ذلك، كثيرًا ما كان يزعجني، عندما يتجاوز مقاطع كبيرة أو يضيف من عنده في أثناء القراءة. كان بإمكاني أن أعرف متى بدأ الإضافة لأن عينيه تتركان الصفحة وتحدقان إليَّ. فهو إن لم يكن يخترع ساعتها فمن أين يحصل على تلك الكلمات؟

«الإنسان الذي ألّف هذا الكتاب الضخم السميك يا موسى لم يكتب تلك الكلمات،» أقول حينها. «لم يرغب فيها هناك وإلا لوضعها بنفسه. لا يمكن لك أن تضع كلماتك في فمه.»

وإذ ذاك يبتسم لنفسه، يهزهز ساقه، ثم يخبط الكتاب بظاهر يده. «لكنه يدور في دوائر.»

«اِقرأ القصيدة كما هي في الصفحة فقط،» أرجوه.

«إنه يتلمّس طريقه تلمّسًا. يحبو ليقول ما يريد قوله. أعرف ما الذي يرمي إليه، لذا دعني آتيك به من النهاية.» ثم وبأسلوبٍ عسكري يردف، «سكوت! انتباه!» ويكمل القراءة حالما يتمكّن من محو الابتسامة عن وجهه.

وهكذا حداني الأمل في أن يأخذني إلى مكتب بابا ليقرأ لي عن التوت. لكنني لما أخبرته أن التوت جاءنا من السماء لم يأتِ جوابه جيدًا. فقد قال ببساطة، «هي فاكهة صغيرة طرية بدون بزر مثل أيّ فاكهة أخرى.»

«لا، ليست كذلك. إنها هدية الملائكة. إنها فاكهة سماوية، ولم تُقصد الأرض بها مطلقًا، لكن الملائكة تصرّفتْ من وراء ظهر الله مع أنها تعرف أنه العليم بكلّ شيء وأنه البصير لأنها تحبّنا. خاطرتْ بكلّ شيء يا موسى بكلّ شيء لتهبنا مذاق الجنة في هذه الحياة. حسبتكَ تعرف هذا.»

فرك يديه الكبيرتين معًا ورفع حاجبيه ونظر إليّ بدهشة. تمامًا كما فعل لما سألته مرّة كيف يُصنعُ الأطفال. ثم قال، «إنها فكرة.»

دخلتْ ماما وهي تحمل صينية كبيرة، فقفز موسى وتناولها منها ووضعها على الأرض. تربّعنا نحنُ الثلاثة حول الطعام في وسط الغرفة وأكلنا. كان الخبز ساخنًا، ولما قطّعته تصاعد منه البخار كسحبٍ صغيرة. أراحني الشاي وهو ينزل من حنجرتي مدفئًا صدري.

«والآن يا سليمان،» قالت ماما، «يجب أن تنتبه من الشمس. لا بأس في الحديقة تحت الأشجار، ولكنها قد تقتلكَ يا حبيبي على السطح غير المسقوفِ.»

كان الطعام يملأ فمي فاكتفيتُ بالإيماء موافقًا.

اقتطع موسى لقمة خبز كبيرة جدًا، أمسكها بين أصابعه الثلاثة وغرف بها قدرًا وافرًا من التونة، ثم غمسها بالهريسة، وقبل أن يقطر منها شيء التقمها كلّها دفعة واحدة. هو أيضًا أومأ برأسه موافقًا على ما قالته ماما، ثم رشف الشاي بصوتٍ عالٍ. «الشمس! الشمس يا صغيري قد تقتلكَ.» قال أخيرًا ورأسه يتمايل مع كلماته، وإصبعه المصطبغ بحمرة الهريسة يشير إلى السماء، وعيناه الكبيرتان مثبّتتان عليّ كحجري مغناطيس أعجزاني عن فعل أيّ شيء سوى مبادلتهما النظرِ. فجأة رفع صحن الزيتون الصغير وعرضه عليّ، فأخذتُ زيتونة. في تلك اللحظة رنّ جرس الباب. كان أشبه بانفجار صغير، وللحظة أخرس كلّ شيء.

نظرتْ ماما إلى موسى. «هو إن شاء الله،» قالت ثم نهضتْ وهرعتْ إلى الباب.

«ألم أقل لكِ يا أمّ سليمان؟» صاح موسى من ورائها، «الله لا ينسى أبدًا عباده المؤمنين.»

٦

لاحقتْ أذناي ماما. ومع أن رنين الجرس تتـــالى بإلحـــاح لا معنى له، وَمض بصيص أمل ضئيل في صدري بأن الطارق بابا. تخيّلته يتكئ بإحدى ذراعيه على البـــاب، وهـــو يلهـــث ويتصبّب عرقًا، أحد حاجبيه ينزف بطريقة أنيقة - تمامًا مثل الأبطال الذين رأيتهم في الأفلام - منتظـــرًا البـــاب أن يُفـــتح ليسقط بين ذراعي زوْجته.

«حاضِر،» هتفتْ ماما بصوت متقطّع الأنفاس.

سمعتُ الباب يُفتح، ثم صوتِ رجل غريب. كنتُ متأكـــدًا من أنه ليس بابا، ومع ذلك سألتُ موسى، «أهو بابا؟»

«ششش،» نهرني وهو يجاهد ليصغي.

«نعم. نعم،» قالت ماما بنبرة رسمية. «هذا بيته. هو ليس هنا... لكن أقول لكم هو ليس في البيت.»

تهيأ لي أن الرجل انبرى يقرأ كلماته عليهـــا فـــي تلـــك اللحظة، ناطقًا بها كأنها رتل من الدبابات يمشي قُدمًا في يـــوم الثورة. كان موسى ينظر إلى الأعلى نحو اللاشيء، كما يفعل الناس عندما يحاولون الإنصات إلى شـــيء يتعـــذّر ســـماعه بوضوح، شيء لم يُقصد بهْ أن يبلغ آذانهم.

«لن تدخلوا،» زعقتْ ماما.

حينِها نهض موسى. «لا تغادر الغرفة،» همس ومـــضى. أحسستُ بِقشعريرة بارِدة تسري في جسمي.

بدأتُ أسمع خليطًا من الأصوات. ولم أميّز صوت مامـــا بينها إلا بصعوبة. صاح رجل، «ابتعدي عن طريقـــي.» كـــم

كان عددهم؟ تساءلتُ، مئات؟ آلاف؟ ثم في خضمّ الضجيج والصياح سمعتُ صوت ماما. بدا وقعه مثل سمكة صغيرة قلقة ووحيدة في أعماق البحر. «رأيتكم تلاحقونني أمس،» قالت. «عيب عليكم أن تلاحقوا امرأة وابنها على ذلك النحو. أليس لديكم شيءٍ أفضل يشغلكم؟»

هم إذًا الرجال أنفسهم الذين تبعونا أمس من ميدان الشهداء. الرجال أنفسهم الذين ضربوا أستاذ رشيد وجعلوه يختفي، «يختفي مثل ملح في ماء،» هكذا وصفته خالة سلمى، بعد أن لابتْ عليه بين مراكز الشرطة ومكاتب اللجنة الثورية ثم عادتْ تصفق يدًا بيد وتتمتم «اختفى مثل حبة ملح في ماء.» مَن جاؤوا يأخذون هذه المرة، تساءلتُ في سرّي: ماما، موسى، أنا؟ كيف يستطيع أيّ منا أن يثبت لهم أنه أو أنها أو أنهم ليسوا، ولم يكونوا قطّ، خونة؟ كيف يمكنكَ أن تبرهن على شيء لم يحدثْ؟ عضضتُ شفتي لأمنع أسناني من الاصطكاك. تذكّرتُ كلمات بابا، ما يهمس به في أذني كلما همّ بتركنا: «اِهتمّ بأمكِ، أنت رجل البيت الآن.» دفنتُ يدي تحت إبطي، محاولاً التوقّف عن الارتعاش.

بذل موسى جهده ليتكلّم بصوت هادئ في محاولة منه لاختراق البلبلة. ما شعرتُ يومًا بالامتنان له أكثر من ذلك اليوم. لكن سرعان ما زعق أحد الغرباء فيه. غريب له صوت يشبه صوت امرأة عجوز ولكنك في الوقت نفسه تعرف أن صاحبه شاب.

«من أنتَ؟» زعق.

حاول موسى أن يحافظ على نبرته اللطيفة نفسها.

«أتعرِف من نحن؟» زعق الرجل ثانية. «أتعرِف؟ أجِب!»

في تلك اللحظة هدأ الجميع.

«قبل أن تتكلّم عليكَ أن تعرف من تخاطِب،» صاح الرجل.

«هو لا يعيش هنا،» تدخّلت ماما.
«دوّن اسمه،» أمر الغريب أحد رجاله.
سمعتُ موسى يعطيهم اسمه بصوت مترجرج ندمًا. ذكّرني بتلك الأوقات التي ليس لي من خيار فيها سوى الاعتراف لمعلمي، أمام الصفّ كلّه، أنني لم أنجز فروضي المدرسية.
«ما عنوانكَ؟ ها، ها، تعيش هناك وحدك؟ ما أسماؤهم؟ الأسماء الكاملة. أليس هو القاضي المصري؟ أنت ابنه؟ أتربطكَ بهؤلاء الناس صلة قربى؟ إذًا لا شأن لك بهذا. تنحّ جانبًا،» قال الرجل، ثم وبأعلى صوته كرّر، «قلتُ تنحّ جانبًا.»
ثمّ حدثت بلبلة. قال موسى شيئًا. حاولتْ ماما التدخّل. سمعتُ الباب يُصفق والأصوات تزداد تصاعدًا. كان صوت ماما يقترب، كانت تتجه إلى غرفة الجلوس حيث أنا قاعد. «أرجوكَ،» توسّلتْ. «أخبرتكَ أنه ليس هنا.»
«ما الذي يقلقكِ إذًا؟» قال صاحب الصوت النسائي العجوز.
«ابني، ستفزعه.»
تسمّرتْ عيناي على مدخل باب غرفة الجلوس، متوقّعًا جثته أن تظهر أمامي في أيّ لحظة. وأخيرًا أصبح هناك، رجل السيارة، الرجل الذي كان بإمكاني أن ألمس خدّه الأسمر المُجدَّر. وقف عند مدخل الباب وهو يسدّ المنفذ الوحيد إلى الخارج. سمعتُ ماما تقول، «هذا هو.» وبينما حدجتني عيناه المرتابتان، فكّرت في كيف سأتمكّن، لو أنني اضطررتُ، من أن أثبتَ له أنني ابنها.
«أين أبوكَ يا ولد؟» قال.
«لا يعلم،» تدخلت ماما.

«اخرسي،» نعق وهو ما زال يواجِهني. كانت سلطته حتمية ومباغِتة وغير قابلة للنقاش. «قلتُ أين أبوكَ يا ولد؟»

هززتُ رأسي، قرّبتُ يدي من صدري ولوّحتها وكأنني أقول، «لا أعرف ما الذي تتحدّث عنه،» أو، «ليس أنا، والله ليس أنا.»

خبط أحد جانبي مدخل الباب ثم مضى يتوغّل في بيتنا. تبعته ماما. بعد ثوان قليلة رأيته يمرّ ثانية. وفي البداية لم أصدّق عينيّ: كانت إحدى يديه تمسك قنينة دواء ماما من عنقها. وماما تقف أمامه مطأطئةً بيأس.

«أتوسّل إليك،» قالت، «استرني.»

«هذا ليس فقط مما يحرّمه الله والعُرف، بل هو أيضًا غير قانوني.» بدا أنه يستمتع بالصمت الذي تلا كلماته، ثم دفع القنينة إلى بطنها وأردف، «لكن لدي الآن أمورًا أخرى أهم يجب البت فيها،» ومضى وهو يقول، «سنفتش المكان.» ولم تحتجّ ماما.

*

لا بدّ أن موسى كان قد وثّق معرفته بالرجال قليلاً خلال هذا الوقت، لأنني سمعته يضحك ثم يقول، «الشاي من فضلكِ يا أمّ سليمان.»

«هل فتشتم البيت؟» سألهم رجل اللجنة الثورية الذي كان يبحث عن بابا. «لا نملك الليل بطوله.»

«لا لا لا، إننا نُصِرُّ،» قال موسى كما لو أنهم أصدقاؤه. «اشربوا الشاي أولاً، ثم فتشوا البيت. تفضلوا يا سادة، من هنا.» تخيلته يقودهم إلى الصالون، وربما يفتح إحدى النوافذ

ليسمح لنسيم البحر العليل بالدخول، باذلاً جُلّ ما يستطيع من جهد ليريحهم.

كنتُ ما أزال ملتصقًا بمكاني، ولما أحسستُ بالبلل في ملابسي التحتية أدركتُ ماذا فعلت. كان البول حارًا ولزجًا ورطبًا على جلدي. وشممتُ فيه رائحة التوت الحادّة، التي انبعثتْ نتنة وثقيلة إلى درجة أنها خبطتْ معدتي. ضغطت فخذيّ بعضهما إلى بعضٍ بقوة. ثم أصختُ السمع إلى ماما في المطبخ وهي تُعدّ لهم شيئًا يأكلونه مع الشاي لأنه عليكَ دائمًا أن تكون كريمًا مع ضيوفك.

يمّمتُ باب الرواق الهزاز، وفتحتُ إحدى دفتيه لأسترق السمع على الحديث الجاري بين موسى والرجال.

«سيجارة؟» قال موسى. «سيجارة؟ ما رأيكَ بواحدة؟ أرجوكَ تفضّل خذ سيجارة، أنا أصرّ.»

«إنه ليس صنفي،» قال أحد الأصوات.

«ما صنفكَ، روثمانز؟»

«نعم،» أجاب الصوت، ثم سأل بارتياب، «وكيف عرفتَ؟»

«الخبرة،» قال موسى ضاحكًا. «هذا النوع يضاهيه جودة، بل هو أفضل. جرّب أرجوك.»

«لماذا؟» سأله الرجل مرة ثانية بارتياب. «ألأنه أمريكي؟»

«لا - روثمانز أمريكي أيضًا - ولكن هذا أقوى.»

«كلّها ضارة،» تعالى صوت آخر. «أقلعتُ عن التدخين منذ ثمانية عشر شهرًا، وصدّقني، هو ليس سوى هدر للمال والصحة.»

«بالضبط،» وافقه موسى، «ولذلك هذا الصنف أفضل فهو أقوى وأغلى، وبالتالي الخراب الذي يسببه أشدّ.» ثم عاجلهم

بواحدة من ضحكاته المجلجلة التي بدت وكأنها هزّتْ البيت، بيد أن أحدًا لم يجارِه في الضحك. فصمتَ فورًا، ثم عاد وتنحنح وقال، «يا أهلاً بكم، شرفتمونا.»

عدتُ إلى غرفة الجلوس. وبعد بضع دقائق نادتْ ماما موسى. استطعتُ أن أستشف في صوتها الجهد الذي بذلته لتجعل نبرته طبيعية. وميزتُ فيه أيضًا رجفة، كما يحدث في اللحظات الأخيرة عندما تتشبّث البطلة بالحياة الغالية، وتحاول تبليغ وصيتها الأخيرة؛ شيء مباشر وبسيط، للإنسان الوحيد الذي يمدّ يده إليها، الإنسان الوحيد الذي رُفع فجأة، بسبب وضعه الراهن، إلى مرتبة أقرب روح إليها على الأرض، مرتبة وريثها، مرتبة الشخص الذي سيحمل كلماتها الأخيرة النفيسة، فتلد بينهما ألفة أبدية، ثقة غير مقيّدة لا يعوقها احتمال الخيانة - فلا وقت هناك للخيانة - تحاول الوصول إلى يده وهي تعرف أنه لن ينجح في إعادتها إلى الأرض الصلبة، ولكنها متأكدة من أنه سيبقى إلى الأبد مخلصًا لتلك اللحظة. اعترتني رغبة مستميتة في أن أذهب إلى الصالون لأكون ذلك الإنسان الذي يمدّ يده إليها.

سمعتُ موسى يستأذن. خشخشتْ مفاتيحه وهو يتوغّل في البيت حاملاً معه روائح ذلك الاجتماع؛ نتانة الدخان المُثقل بالعرق وبخار أنفاسٍ منفرة، أنفاس تشبه أنفاس رجال صائمين. «لماذا كلّ هذا؟» تذمّرتْ بنزق. «أنا لا أريد تلك الجرذان في بيتي. ونقدّم لهم الشاي...»

«يستطيعون إرساله وراء الشمس. من الأفضل أن نكسب مودتهم، ثم إن هذا قد يصرفهم عن تفتيش البيت.»

صلصلت مفاتيح موسى بمزيد من القوة وهو يحمل الصينية ويعود إلى الصالون. لا بدّ أنها كانت ثقيلة جدًا، عامرة بالأكل، كتلك الصواني التي غرف منها الملك شهريار

وهو مضطجع يستمع بعينين كسلتين إلى شهرزاد التي كانت فرائصها ترتعد سرًا، وهي تغزل وتغزل خيوط حكاياتها بدقّة متناهية لتدوم ألف ليلة وليلة. كيف نجحتْ في ذلك؟ كيف حافظتْ شهرزاد على هدوء أعصابها؟

مرة ضبطتُ خالي خالد يكتب، كان يؤلف قصيدة في الحديقة وقد جلس على كرسي خيزران منجَّد، يضع رِجلا على رجل، ويرنو إلى السماء كشخص يحاول حل مسألة رياضية. إن الكتابة تتطلّب الكثير من التركيز، فأي نجاح يا ترى كان يمكن أن يحالف خالي خالد، «الشاعر العظيم» كما يدعوه بابا، لو أنه قعد يكتب وسيف شهريار على رقبته؟ ماذا سيطلع منه؟ وهل سيتمكن من تأليف الموسيقى؟ أو الغناء؟ شهرزاد فعلتْ هذا، ليلة بعد ليلة، بدون أن يتسنى لها أن ترنو إلى السماء أو تسترخي بسكينة وحدها في حديقتها، يتناهى إليها صوت كرسي الخيزران يصرّ من وزنها المتثاقل بارتياح عليه. أنا متأكّد تماما أنها من أشجع من عاش من الناس؛ فأن لا تخشى الموت شيء، وأن تغني وسيفه على رقبتك شيء آخر.

ألحّ موسى على الغرباء كي يأكلوا. وكلما تلكأ أحدهم شدّد عليهم الدعوة، مُقسِمًا، على الرغم من أنه أعزب، بطلاق زوجته إذا لم يأكلوا. فعل هذا عدّة مرّات كانت تتخللها فجوات من هدوء لم يعكره سوى رنين ملاعق الشاي وهم يذيبون السكر.

ذهبتُ أبحثُ عن ماما. لم أجدها في المطبخ. ولم أجدها في غرفة نومها. كان بابُ الحمّام مغلقا، وثمة ضوء ينبعث من أسفله. «ماما؟» ناديتُ. الصمت الذي خيّم قبل أن يأتيني جوابها بدا لي أبديًا.

«نعم حبيبي.»

لم أعرف ماذا أقول، ولذلك سألتها، «هل تحتاجين إلى شيء؟»

فتحتْ الباب. لم يكن وجهها باكيًا. عادت وتحسّستْ جبيني ثانية بيد باردة.

«الحمد لله أنت بخير. زالت الحمّى نهائيًا.»

«آسف ماما،» قلتُ بدون أن أعرف ما الذي أعتذر منه على وجه التحديد، لم أعرف سوى أنني أشعر بالأسف، وأن حلقي غصّ عندما قلتُ ذلك.

«أنت بخير وهذا ما يهم، هذا كلّ ما يهم،» قالت.

غشيتني الدموع وحجبتْ عني الرؤية، ثم سمعنا الرجال عند باب البيت.

«لكنّنا هنا،» قال صاحب صوت العجوز بنبرة حادة.

«اِسمع،» خاطبه صوت آخر، «جئنا نبحث عن فرج، لا لنفتّش البيت.»

ثم سمعتُ أحدهم يتثاءب ويقول، «تأخّر الوقت.»

«يجب أن نفتّش البيت الآن،» أصرّ الرجل ذو الوجه المجدَّر.

«هيا، لا تكن عنيدًا هكذا.»

«غدًا يوم آخر،» قال آخر ملطّفًا الجو.

أخيرًا سمعنا موسى يغلق الباب ويُحكمُ رتاجه.

نظرتُ إلى ماما، كانت شفتاها تتمتمان بحمد الله بدون صوت.

اجتاز موسى باب الرواق الهزاز وتوجّه مباشرة إلى غرفة الجلوس وجلس وهو يكلّم نفسه، مردّدًا آيات من القرآن الكريم ألحق بها دعاءه الخاصّ. «يا غفّار الذنوب اِغفر لنا ذنوبنا، واحمِ هذا البيت ونجّه من كلّ شرّ. أبعد عنه كل من لا يريد له الخير.» ثم كرّر بسرعة، «يا غفار اغفر لنا ذنوبنا. يا

غفّار اغفر لنا ذنوبنا.» وقفتُ أنا وماما نراقبه. قام، ذرع الغرفة جيئة وذهابًا. عدّل الستائر، فتح بعض النوافذ، ثم راكم الصحون على صينية الأكل التي كنا نجلس حولها قبل أن يقاطعنا الرجال، وأخذها إلى المطبخ. عاد، جلس وأشعل سيجارة. سحب منها نفسًا عميقًا، ولما نفخ الدخان صدر عنه صوت صفير.

«ماذا أخبروكَ؟» سألته ماما.

كان يجلس على حافة مقعده، وعيناه مثبتتان على المسافة التي بينه وبين الأرض، وبدا وكأنه لن يتكلّم ثانية أبدًا.

«ماذا قالوا؟» سألَته مجددًا وهي ترفع صوتها فتطلّع إليها. «هل طرشتَ؟»

هزهز ساقه ونفث الدخان مُطلقًا معه دوامة صافرة أخرى. ثم رفع إصبعه إلى شفتيه ونظر بسرعة في اتجاهي.

«سليمان،» هتفتْ ماما، «اذهب وتمرّن على سلّم الموسيقى.»

٧

لم أطلب يومًا أن أتعلّم عزفِ البيانو. كان تعلّم البيانو واحدًا من تلك النشاطات التي فُرضتْ عليَّ، كالمدرسة والشطرنج والاستمرار اللانهائي عِديم الجدوى في تقليم أظفار يديّ وقدميّ. وقد اضطررتُ دائمًا إلى مزاولة جميع هذه الأمور المدرجة ضمن السلبياتِ الناجمة عن كون المرء ذكرًا بقدر كافٍ من الجدّية. مشيتُ إلى البيانو، وأنا أحس بإعياء تام. أردتُ أن أذهب وأغتسل وأبدّل ملابسي قبل أن يكتشف أحد أنني تبولتُ على نفسي. لكنكَ أحيانًا تجد نفسك موجّها في مسار معيّن، وعلى الرغم من أنك لن تراه منطقيًا، تبقى مندفعًا نحوه.

في نهاية الرواق الطويل المعتم بِصّ ضوء من الصالونِ فيما حوّم الدخان عند مدخله. مشيتُ بخطىٍ قصيرة وتوقّفت لأنظر خلفي. لما وصلتُ إلى الغرفة رأيتُ سحب الدخان تعوم في وسطها؛ سحبًا حيّة ذات أطراف فضية ناصعة، تتلوى كالأفاعي. عندما كنت متربّعًا على الأرضِ في غرفة الجلوس وأنا أحاول أن أستوعب ما أسمعه، تخيّلتُ موسى يفتح النوافذ، لكن حتى الستائر لم تكن قد زُحزحتْ. كانت الغرفة مثل صندوق مفعم بالدخان. وكانت علامات مواضع جلوس الرجال مدموغة على وسائد المقاعد الوثيرة. عددتها: سبعة عدا موسى. سبعة! من المستحيل أن تكون سيارة واحدة قد وسعتهم. لم تأتِ في طلب أستاذ رشيد سوى سيارة واحدة، وها هم يرسلون سيارتين لبابا: أربعة رجال في واحدة وثلاثة في أخرى، مع مكان لشخص آخر، مكان حجزوه لبابا.

أبصرتُ أكواب الشاي تنتصب قبالة كل مقعد على الطاولات الصغيرة، أو على أيّ شيء يمكن الوصول إليه بسهولة؛ سواء وُضع الكوب على الأرض أم وقف غير ثابت على مسندِ ذراع. لاحظتُ أن تلك الأكواب فارغة ما خلا واحدًا، فمضيتُ إليه. جلست في مكان صاحبه الذي ما زال مقعده دافئًا. تخيّلت أنه الموضع الذي شغله الرجل الكريه ذو الصوتِ العجائزي، وهو لا شكّ غبي بما يكفي ليرفض شاي ماما. تذكّرتُ وجهه؛ وكم كنتُ قريبًا منه عندِ إشارة المرور، وكيف دفع بقنينةِ دواء ماما إلى بطنها. تذكّرتُ كيف ضرب أستاذ رشيد. تساءلتُ عنِ شعور المرء عندما يصفع رجلاً، عندما يركل مؤخرته. حملت قدح الشاي الذي برد وشكّل الحليب قشرة علىٍ سطحه، قشرة تتوسطها زهرة مجعدة أو جلدة محروقة. نفختُ القشرة بعناية صوب حافة الكوب ثم شربتُ كلّ ما فيه دفعة واحدة. ولم أدرك إلا بعد أن أفرغته في جوفي، وبعد أن سرتْ المرارة داخلي كتيارٍ، أنه غير مُحلّى.

كانت سلّة الخبز خالية إلا من الفُتات وبعض بقايا اللبّ الطريِ، ذلك الذي بان من لونه ومن طريقة تحويلِه إلى كُريات أنه استعمل لمسح وتنظيفِ الأيدي والأفواه. رأيتُ في السابق أناسًا يفعلون ذلك، وجربتُ أن أحذو حذوهم مرة، لكن بابا قال إن هذه سوقية واستهتار بالخبز وبنعمة الله. كان نوى الزيتون مبعثرًا على الطاولة الصغيرة، بل بعضه مُلقىٍ بين ما تبقى من زيتون موسّخًا إياه. أما أعقاب السجائر فوقفتْ يستند بعضها على بعض في أكواب الشاي الفارغة كأنها صراصير ميتة.

حيث جلس الرجال - وحيث جلستُ بعدهم - كان بإمكانهم أن يروا صورة بابا على الحائط. صورة بحجم غلاف مجلة معلقة وحدها، وعلى ارتفاع عالٍ جدًا. في الحقيقة كانت أعلى من أن تستطيع ملاحظتها فورًا. في الصورة يظهر

بابا لابسًا بذلة أمام خلفية لمنظر أشجار تحت الشمس، ولا يمكن أن يداخلكَ شكّ في أنه يقف حقًا بين الأشجار في النهار. كان في الصورة مبتسمًا، عيناه ترنوان عاليًا تجاه الزاوية اليسرى العليا للإطار. خدّاه أشدّ حمرة من الواقع، وشفتاه مصطبغتان بلون قرمزي فاقع. فالمصور الذي أراد أن يجعل بابا أكثر وسامة وأقلّ سمرة أجرى بعض الرتوش على تلك الصورة. وقد بقيتُ أعتقد لمدة طويلة أن الصورة التُقطتْ لبابا وهو بالفعل يقف في ذلك اليوم بين تلك الأشجار المغسولة بأشعة الشمس الدافئة، ووجهه وردي وشاحب كوجه رجل إنجليزي. ولذلك، لمّا عرفتُ أن الشيء بأكمله مجرد حيلة، شعرتُ أنني خُدعت، ولم يزعجني قطّ أن تبقى معلّقة في مكان عالٍ بحيث يمكن نسيانها بسهولة.

كانت ماما هي من أصرّ على أن أتعلّم العزف على آلة موسيقية. أما أنا فأُعطيتُ حق الاختيار ما بين العود أو القانون بأوتاره الواحد والثمانين أو البيانو. مِلتُ إلى البيانو لأنني رأيته أسهلها. وتعلّمت عليه بسرعة، واستمتعتُ بالعزف لماما. وفي بعض الأحيان عندما كنتُ أنهي معزوفة ما يصفّق لي بابا من غرفة أخرى ويصيح، «برافو، زِدنا،» وفي أحيان أخرى يبقى صامتًا.

أحسستُ فجأة بخبط عميق حادّ في رأسي. وفكّرتُ أنه يجدر بي الشروع في العزف وإلا ستبدأ ماما في القلق عليَّ. رفعتُ غطاء البيانو الذي تراءى لي أنه أثقل من المعتاد. ثم أخذتُ أضغطُ عينيّ بأصابعي الباردة لأنني شعرتُ أنهما تتقدان في محجريهما. وفي هذه اللحظة دخل موسى. «الهواء فاسد جدًا هنا،» قال وهو يفتح النوافذ. ثم مضى إلى غرفة الطعام في الطرف المقابل من الرواق وفتح النوافذ هناك كذلك. وحينذاك فقط تحرّك الهواء. اختفى الدخان، وبدأ النسيم يهبّ؛ نسيم الليل

الذي لطّفه البحر. وعندما استنشقته خُيّل إلي أنه يغسلني من الداخل. وسرعان ما خفّ الخبط الذي استحكم برأسي.

«أطرِبنا يا مايسترو،» قال موسى وهو يسحب وسائد المقاعد ويضرب كلّ زوجين منها معًا كما لو أنه يصفّق. ثم كدّس أكواب الشاي بعضها فوق بعض، وضعها على الصينية وحملها إلى المطبخ. عاد بالمكنسة الكهربائية وبدأ يتعقّب فتات الخبز المبعثرة.

وجدتُ ماما في المطبخ تجلي المواعين.

«يا أمّ سليمان،» صاح موسى بصوت طغى على هدير المكنسة الكهربائية، «دعي الجلي للغد.»

«لا بأس،» قالت لنفسها بصوت منخفض. «لن تأخذ مني دقيقة.» كانت تعرف أنه لا يستطيع سماعها. تُرى لماذا يتكلم المرء ما دام ليس هناك مَن يسمعه؟ أحسستُ بوجنتيّ تشتعلان غضبًا؛ غضب أتى من حيث لا أدري. مالتْ برأسها وغمغمت لنفسها ببضع كلمات أخرى، كلمات من المستحيل سماعها، كلمات مُهدرة، كطعام مرمي، كالتوت الناضج في التراب غير صالح إلا للنمل، كلُبِّ الخبزِ المستعمل لمسح الأفواه والأيدي، كحبات الزيتون القليلة التي لُوثتْ بالنوى؛ نوى الزيتون الذي كشطته الأسنان، الذي لعقته الألسن، مصّتْ ماءه. ارتعشَ ظهرها. كانتْ ماما تبكي. شعرتُ بغضبي يتفاقم. خبطت الطاولة. قفزتْ من أرضها، هتفتْ ويدها المبللة بالصابون على صدرها. «ما بكَ؟» ثم أغلقتْ حنفية الماء وجلست بجانبي. وضعتْ يدها على ركبتي. «ما بكَ يا حبيبي؟» همست. أمسكتْ يدي وهزّتها برفق كما لو أنها تحاول إيقاظي، تذكّرني بشيء ما، وسألتني مرة أخرى همسًا، «ما بكَ يا حبيبي يا نور عيوني؟» تراءى لي أنها غدتْ أكبر سنًا مما هي عليه. اجتاحني حنين إلى الحال التي كنا عليها من قبل.

في مثل هذا الوقت نكون ما زلنا متربعين علــى الأرض في غرفة الجلوس نلعب الورق ونشرب الشاي. يتناول موسى الصحف ويقرأ بصوت عالٍ مقالات اليوم المفضلة لديه. وكلما فوّت مقطعًا أو حشر كلماتٍ من عندهِ تتصدّى له ماما وتوبخه، فأتدحرج أنا على الأرض ضاحكًا من جدالهما. ثم يأتي بابـــا، ينزع ربطة عنقه وحذائه، ويدردش معنا بضع دقائق قبـــل أن يستحم ويصلّي. ويعود ويظهر ثانية مرتاحًا بجلابيته البيضاء وعبق عطره الفرنسي يفوح منه. حينها يعيد موســـى قـــراءة مقالات اليوم له. وما اعترض بابا يومًا على طفرات موســـى أو إضافاته، بل يصغى إليه بطريقة تـــروق لموســـى دائمًـــا، ولذلك ينبري للقراءة بصوت أعلى ولفترات طويلة من الوقت.

لم يأتِ بابا يومًا على ذكر شيء يتعلّق بصداقته لموســـى، لكن موسى أخبرني كم أن صداقتِهما مميزة، وعندما يتحـدّث عنها تسمع في صوته عمق ما يكنّه لبابا من محبة. كان يتطلّع إليه دومًا كأخ أكبر له، وتستطيع ملاحظة هذا في عينيه وهما معًا.

لما حاول والد موسى القاضي ياسين أن يرغم ابنه البكـــر على إكمال دراسته للحصول على شهادة في الحقوق، تـــدخّل بابا لمصلحة موسى. كان القاضي ياسين قاضيًا مصريًا بارزًا دُعي شخصيًا من قِبل الملك إدريس للمساعدة فـــي إصـــلاح محاكمٍ ليبيا. لم يكن بالرجل الذي يمكن إغضابه بسهولة. كان طويلاً ومهيبًا، ارتدى دائمًا ملابس رسمية مع السترة وربطـــة العنق حتى في أيام الجمعة. شعره مملّس إلى الخلف وتنبعـــث منه لمعة واهية. ولم يسبق لي قطّ أن قابلت قبله شخصًا مثله. ولوقت طويل اعتقدت أنه يعرف كل شيء يمكن معرفته فـــي هذه الدنيا. كنت أرتاع من تحفظه؛ تلك السحابة العنيـــدة مـــن الجدّية التي بدت أنها تلازمه وتتبعه أينما ذهب. فيما بعد، لما

اكتشفتُ أن تحفّظه وجديته ليسا بالضرورة من سمات الحكمة، تضاءل خوفي منه وبدأتُ أرى أسلوبه مصطنعًا وفي وقت تالٍ سامحته عليه. وحينها، حينها فقط أحببته. لأنه، كما شاء لي القدر، أصبح القاضي ياسين وليَّ أمري. ولو عرفتُ هذا حينما كنت ذلك الطفل الخائف، لربما فررت إلى البحر هربًا من مصيري.

كان كلام الناس يقلّ عمومًا كلما وجدوا أنفسهم في حضرة القاضي، وهو تقريبًا ما طرح على أحد سؤالاً قطّ. كانت عيناه بُنيتين وغائرتين وصغيرتين بالنسبة إلى وجهه، وعندما تتسمّران عليك تصيبان جلدك بالحكاك. وما التقينا مرة إلا وبادرني معلنًا بكلّ بساطة، «أنت بخير،» أو «ستنجح في امتحاناتك،» وإذا حان وقت الافتراق، «ستكون حذرًا.» وبالرغم من أنني شعرت دائمًا برغبة ملحّة في أن أقول، «لا، لست بخير، ولن أنجح في امتحاناتي، ولن أكون حذرًا،» خذلني رأسي وأومأت موافقًا. كان سلوكه بأكمله شبيهًا بالتنويم المغناطيسي.

بعد ثورة سبتمبر التي أسقط فيها القذافي الملكَ إدريس، لم يَعد القاضي ياسين إلى مصر، إنما فتح مكتبًا للمحاماة في طرابلس، وحلم باليوم الذي سينضم إليه فيه ابنه البكر موسى.

فعل موسى كلّ ما طلبَ منه. رافق أباه إلى الجنائز والزيارات الرسمية، وعندما لا يستطيع القاضي حضور مناسبة ما، يضع موسى سترة وربطة عنق ويحمل تعازي والده أو تهانيه ويحلّ محله. لكنه لما لم يعد يفصله عن درجة الحقوق سوى سنة واحدة – استغرقه الأمر خمس سنوات لينهي السنين الأولى الثلاث – قرّر موسى أن يترك الجامعة. ورفض القاضي ياسين حتى مجرّد مناقشة الموضوع.

كان القاضي صديق بابا ومحاميه. التقيا بعد شحنة خشب

بلوط اشتراها بابا بحسن نية ولم تصل قطّ. ومن بين جميع الرجال في حلقة القاضي للعب الدومينو، تميز بابا في أنه أصغرهم سنًا والوحيد الذي ليس قاضيًا. كانوا يجتمعون عصر كلّ خميس، عندما تصبح الشمس أكثر طراوة، ليلعبوا الدومينو ويتمتعوا بمنظر البحر من شرفة القاضي ياسين في الطابق الثاني. عاش القاضي وعائلته بمن فيهم موسى في شارع جرجارش أيضًا، ولكن القاضي لم يدعه قطّ بهذا الاسم، بل باسمه الآخر الشاعري الذي يجعلك تظن أنه يعود إلى مكان ما في إيطاليا وليس طرابلس: جورجي بوبولي. وهو الاسم الذي أُطلِق عليه حينما كانت ليبيا مستعمرة إيطالية. «نسكن في شارع جورجي بوبولي،» اعتاد أن يقول، مما أحرج موسى دائمًا.

كنتُ قد اعتدت على ركوب الدراجة قريبًا من بيته مع بقية الصبيان، سعيدًا بانتهاء الأسبوع المدرسي. ومن موضعي أرى الرجال المُسنين وبابا وهم متحلّقون حول طاولة الدومينو. وعندما يلمحني بابا يناديني ليسألني بإلحاح وهو ينحني على الدرابزين، «ماذا؟ أثمّة خطب ما؟» وبعد أن أطمئنه، ملوحًا له وكأنني أقول، «أجهل ما تتحدث عنه،» أو «ليس أنا، والله ليس أنا،» يطلب مني الصعود لأسلّم على الحاضرين. الإلحاح الذي كان يلاقيني به حينذاك، أو حينما يحدث ونلتقي خارج بيتنا يجعلني أتساءل الآن وأنا أتفكّر في تلك الأيام البعيدة ما إذا كان جاهلاً جهلاً تامًا بمرض زوجته.

كنتُ دائمًا أذهب إليه أولاً وأقبّل يده كما علّمني - كان عليَّ أن أقبّلها مرة في الصباح ومرة في الليل فقط - لكن تقبيلي ليده أمام أصدقائه كان يسعده كثيرًا. ومع أنني فضّلت دائمًا مصافحة القضاة المسنين، غالبًا ما قبّلني واحد أو اثنان منهم على خدّي. كانت شفاههم بسبب كبر سنهم ليّنة ورطبة.

واقتضى مني الأمر جهدًا كبيرًا لأتعلّم كيف أمنع نفسي من مسح وجنتي باشمئزاز. ودائمًا قالوا الأشياء نفسها: «ما شاء الله، أصبح سليماننا الصغير رجلاً. كم عمره الآن؟ في أيِّ صفٍ مدرسي؟» اهتمام لطالما جلب ابتسامة عريضة إلى وجه بابا. فيهبّ ليسألني بصوت جدّيٍ تمامًا، «ماذا كنت تفعل أيها الشاب؟» ولم يدعُني قطّ بالشاب إلا في مثل تلك المناسبات. كان شيء ما في طريقته الغريبة في الكلام يجعل بعضًا من أولئك القضاة المسنين يبتسمون، مما جعلني أعتقد أنه يفعل ذلك ليسليهم. «طيب، كفى لعبًا،» يقول أخيرًا، بالرغم من أنني ما كنتُ ألعبُ بل صعدت بناءً على طلبه لألقي التحية على أصدقائه. «حان الوقت لتعود إلى البيت أيها الشاب،» يتابع، فأغادر الشرفة فورًا وأعاجل إلى مسح وجهي. ولا أكاد أجري هابطًا الدرج حتى أسمع بابا يناديني ثانية، وأجده واقفًا خارج مدخل باب البيت. «ماذا؟» أسأله. فيقبّلني على رأسي ويعطيني عشرة دنانير؛ المبلغ نفسه الذي أجده تحت وسادتي في صباحات الأعياد.

مِن بين جميع أصدقاء أبيه، انتقى موسى بابا ليقنع القاضي برغبته في ترك الجامعة. اجتمعوا عدة مرات في بيتنا وأغلقوا باب مكتب بابا وراءهم وكأنهم يخططون للقيام بثورة، وتناقشوا لساعات.

أقنعَ بابا القاضي ليسمح لموسى أن يأخذ سنة فرصة عارِضًا توظيفه معه. لكن وقبل أن تنتهي السنة كان موسى واثقًا من أنه لن يستأنف الدراسة ليحصل على إجازة الحقوق من جامعة جاريونس في بنغازي، التي تبعد عن طرابلس مسافة اثنتي عشرة ساعة بالسيارة. اعترى القاضي ياسين غضب جمّ لما بلغه قرار ابنه، وفي حين حمل بابا المسؤولية، غدا موسى سيد نفسه.

هذا التاريخ قرّب موسى من عائلتنا، وأتاح للقاضي فرصة إلقاء اللوم على بابا في كل حظ عاثر واجه موسى. «خرّبت ولدي يا بو سليمان،» اعتاد القاضي أن يقول معيّرًا بابا بصوت عالٍ أمام الآخرين في أثناء لعبة الدومينو. «لا ترشّ الملح على الجرحِ وتغلبني في عقر داري في اللعبة التي أحبّ.» ومرة سمعت بابا يقول لماما، «لا يمكنه أن يبقى غاضبًا مني إلى الأبد. في بيته أضمن على الأقلّ أن حنقه عليَّ يبقى ضمن الحدود.»

حال إخفاق جميع مشاريع موسى التجارية دون عودة المياه إلى مجاريها بين الرجال الثلاثة. ففي البداية امتلك مزرعة دجاج، لكن الدجاج نتيجة تعرّضه لحرارة شديدة في النهار، وبرد قارس في الليل، سرعان ما مات، دجاجة تلو أخرى. كانت كارثة: ألف دجاجة في أقلّ من أسبوع! وموسى، بالرغم من أنه فقدّ كلّ ماله – الذي اقترضه من بابا – أصرّ على دفن الدجاج بطريقة لائقة. «لماذا نعاقبها في الحياة وفي الموت؟» قال يومها. ولذلك استأجر جرّارًا أصفر كبيرًا، كُتبَ على جانبيه «جي سي بي»، وحفر لدجاجاته الألف الميتة قبرًا جماعيًا، ودفنها، ثم أجلسني على حضنه وقاد الجرّار عدة مرات فوق التربة. كان ذاك نوعًا من مراسم دفن دجاجه الميت. وبعدما انتهينا، أتذكّر أنني رأيتُ بضع ريشات نجتْ من الدفن وعلقتْ بمعدن الجرّار الأصفر.

استورد، في مرة أخرى، إطارات سيارات من بولندا. ولأيام لم يأت على ذكر شيء سواها، وكيف أن إطارات السيارات البولندية مُقدّر لها أن تشتهر عالميًا. «تذكّروا كلامي، فنحن كما نعرف الصين بحريرها، واليابان بتلفزيوناتها، ونيوزيلندا بخرافها، ستصبح بولندا معروفة بإطارات السيارات. سترون، سيكون هذا أكثر الاستيرادات نجاحًا في ليبيا منذ استيراد الـ جي سي بي.»

نعم، استورد موسى الإطارات البولندية، وكما هو حاله مع الدجاج، لم يطلب حمولة بسيطة ليختبرها أوّلاً، بل اشترى حمولة سفينة كاملة. «عندما يحتاج السوق يا سلومة، يجب أن تكون قادرًا على تلبية حاجته،» قال وهو يماشيني داخل المخزن حيث خزّنها، شفتاه نديّتان برضابه وعلى وجهه ترتسم ابتسامة فخورة عريضة. أما أنا فرأيت أنه من الغريب والرائع معًا أن أجد نفسي محاطًا بأعمدة وأعمدة من الإطارات المطاطية السوداء المكوم بعضها فوق بعض.

لاقت الإطارات رواجًا وبيعت، ولكن ما كاد شهر أغسطس يحلّ، حتى انصهرت إطارات موسى البولندية. كانت تلك مشكلة كبيرة - وبالتأكيد ليست مضحكة - لأن زبائنه، وقد وجدوا أنهم تعرّضوا للغش، عادوا إليه حانقين جدًا وطالبوا باستعادة أموالهم. وفي إحدى الحوادث انصهرت الإطارات كليّة وألصقت السيارة بالأرض، فهدّد مالكها في نوبة غضب عارمة بتلقين موسى درسًا لن ينساه. وقد اضطر بابا في أكثر من حادثة إلى التدخّل لينقذ موسى من زبون غاضب؛ حيث سارع إلى ردّ المال للمتضررين، معتذرًا مرارًا وتكرارًا، غير قادر في الوقت نفسه على مواراة ابتسامته. أما الرجل الذي أراد أن يلقّن موسى درسًا لن ينساه، فدفع له بابا مالاً إضافيًا، واعتذر بشدّة، وبعد أن رحل الرجل انفجر ضاحكًا.

رفض موسى أن يتحدّث عن هذه المغامرة. كان التبرير الوحيد الذي لا أذكر أنه قدّم غيره قطّ: «إن بولندا لا تشتد فيها حرارة الجوّ كثيرًا.» ولم يترك كلّ من بابا وماما أيّ فرصة لموسى ليستغرق في الحزن، وشرعا فورًا في مشاكسته بخصوص تلك المرحلة: «ما أخبار الطقس في بولندا اليوم يا موسى؟» «اِسمع، هل تعتقد أننا يمكن أن نستورد مجموعة

أخرى من تلك الإطارات المشهورة عالميًا للشتاء القادم؟»
«بحقّ الله يا موسى إذا تزوجتَ من فتاة بولندية تذكّر أن تردّها إلى وطنها في الصيف.»

هناك إذًا، في غرفة الجلوس، يُفترض أن نكون كلّنا جالسين الآن ندردش ونقرأ ونضحك. لكن بدلاً من ذلك ها هي ماما تجلس أمامي عند طاولة المطبخ تطالعني بعينين مظلمتين وطافحتين بالحزن كعيني طائر. كان موسى ما يزال يكنس الصالون. وبابا... لم أره منذ أن عدتُ من الحديقة، عندما ركضتْ ماما وهزته بجزعٍ ليستيقظ. «أين بابا؟» قلتُ أخيرًا. «لماذا لم يرجع إلى البيت بعد؟ ما الوقت الآن؟»

لم تردّ ماما. بدتْ وكأنها تفكّر في أسئلتي: لماذا أطرحها وما الأفكار التي تعتمِل خلفها. بيد أنها ما لبثتْ أن انفجرتْ بي، «لماذا تسألِ عن أبيك الآن؟ ما القضية، ألا تجدني كافية لك؟ لماذا لا تتكلّم وتخبرني عما يجري؟»

سمعتُ هدير المكنسة الكهربائية العالي يتوقّف فجأة. وفكّرتُ، لا بدّ أن موسى سمع صياحها وهو في طريقه إلى نجدتي.

«أريد أن أعرف أين بابا. لماذا ما زال خارج البيت؟» صرختُ في وجهها.

دخل موسى، حاول أن يقول شيئًا ما، فطلبتْ منه ماما أن يهتم بشؤونه. حينها شرعتُ في البكاء.

«اسمعني جيدًا،» قالت. «عندي هنا من المتاعب ما يكفيني. لا تجنني. و... و... ما هذه الرائحة؟» تساءلتْ وهي تتشمّمني بأنفها. «بول!»

«لا، لا يمكن،» قال موسى.

«أشمّ رائحة بول،» قالت بعينين مشدوهتيْن.

عصرتُ فخذيّ معًا، وضغطتُ راحتيّ المبقعتين بالتوت

على حضني الرطب. نحّتْ يدي بعيدًا، جاهدتُ لأمنعها لكنها كانت أقوى مني. فركتْ نسيج جلابيتي الرطب وشمّت أصابعها.

«ماذا دهاك؟» صاحت. التفتت إلى موسى، صفعتْ فخذها ثم أشارتْ نحوي وقالت، «تبول على نفسه.» انتزعتني لتوقفني على قدميّ وصاحت ثانية، «ما عدت طفلاً. لماذا لم تذهب إلى الحمّام؟ تكلمْ!»

«أين بابا؟» نشجت من وراء دموعي.

«ماذا كنت تفعل في الحديقة؟ لماذا أغرقت المكان بأكمله؟ لماذا يداك مبقعتان بالأحمر؟ لماذا تبولت على نفسك؟» راحتْ تقول وهي تهزني مع كلّ سؤال، ثم ارتمتْ على كرسيها وأجهشت بالبكاء. «ماذا تريدون مني كلّكم؟ هل تريدونني أن أفقد عقلي؟» دفنتْ وجهها بيديها، وجلستْ. جلست بدون حراك، بدون أن يندّ عنها أيّ حسّ.

«سامحيني ماما،» قلتُ وسط الصمت البارد. «أعدكِ أن لا أفعل هذا ثانية، رجاءً لا تبكي.»

انبعث صوت متهالك مخنوق من بين يديها. لم يكن بكاؤها طبيعيًا. لقد عاود المرض ماما، قلتُ لنفسي. رنوتُ إلى موسى. بدأتْ تتكلم، لكنني لم أفهم ما قالته إلا بصعوبة، أشياء عن حظّها العاثر، وكيف أن لعنة الحظّ العاثر طالتها منذ الطفولة، الحظّ العاثر الحظّ العاثر الحظّ العاثر، وانبرت تنادي «باباها» ليأتي ويساعدها، تتوسّل إليه ليجيء وينقذها لأن ما يحدث لها يحدث قبل أوانه بكثير، لأن كل ذلك، قالت، كثير جدًا ومبكر جدًا. ناحتْ. ثم خاطبتْ بابا، لامته على أحلامه، أحلامه المجنونة التي تُعرّض العالم بأكمله للخطر. «من تحسب نفسك؟» قالت تسائله، كما لو أنّ هناك نسخة صغيرة منه تقف فوق طاولة الفطور أمامها، «بقولك، ''يجب أن نلهم الشبّان، يجب أن نفتح أعينهم على سبل أخرى، احتمالات

أخرى.'' حسنًا، ها قد ذهبت وفتحت أعينهم كما ينبغي. أأنت سعيد الآن؟ الآنِ وقد أُلهموا. أُلهموا مسالك الجنون، مسالك الخبلِ. ماذا فعلتَ، ماذا فعلت أيها الأحمق المجنون؟ ماذا فعلتَ؟» بكتْ، دعمتْ رأسها بيدها وبكتْ.

«صلّي على النبي يا أمّ سليمان، واطردي الشياطين،» قال موسى من خلفي.

هذه في الحقيقة حيلة جيدة وناجحة. فحينما يكون أحدهم متضايقًا جدًا أو غاضبًا، اطلب منه أن يصلّي على النبي، عندئذ يضطر إلى التوقّف عنِ العويل والصراخ ويصلّي عليه.

بعد صمت طويل تنهّدت بعمق وقالت، «صلوات الله وسلامه عليه.»

كنتُ ما أزال واقفًا بجانبها، أواجهها، أنتظرِ حدوث شيءٍ، شيء قد تقوله أو تفعله ليغير كلّ شيء. نظرتْ إليّ وابتسمت، لكن ابتسامتها سرعان ما تبدّلت إلى عبوس. مدّت ذراعيها وأمالت رأسها كبنتٍ تريد الاختباء. ضمتني إليها. أحسست بشفتيها المبللتين على رقبتي، وبنفسِها حارًا وغير منتظمٍ. «آسفة يا حبيبي،» غمغمت. «كنت خائفا. سامحني.» ربت ظهرها وهمست، بتلك الكلمات التي أقولها أحيانا عندما تمرضِ، عندما لا أجد ما أقوله ولكنني أعجز عن البقاء صامتًا: «سيكونِ كلّ شيءْ على ما يرام.» جففتْ دموعها، أخذتْ نفسًا عميقًا وأومأتْ برأسها مستجيبة. «أتعرفين ماما كم بذلت الملائكةِ من جهد، وكيف خاطرتْ بكل شيء لتمنحنا التوتِ؟» قلتُ لأرفّه عنها، ليسترجع خدّاها لونهما الوردي. «وكلّ ذلك لأنها أدركتْ كم ستكون الحياة قاسية علينا هنا في الأرض. ليتكِ كنتِ معِي هناك لتذوقي ذلك التوت. أتذكرين قولكِ لي كيف أنِ كلّ ما نعرفه هنا سيكون أجمل بكثير في الجنة؟ حسنا، كل شيء ما عدا التوت، فمذاقه هنا وهناك واحد، إنها طريقة الملائكة في مساعدتنا كي نصبر. أعتقد أن

التوت هو الشيء الوحيد من الجنة الموجود هنا. ليتني احتفظت لكِ بشيءٍ منه. ومن يدري ربما أبحث لكِ عن بعضٍ منه غدًا.» أحاطت خديّ بيديها وقبّلت جبيني. «أنتَ أميري. أميري الجميل،» قالت وابتسمت.

*

بعد أن اغتسلتُ وأويتُ إلى الفراش دخل موسى وأشعل الضوء. «ما رأيكَ بتدليك قبل أن تغفو، أنتِ يا أمير أنت،» قال يحدوه الأمل في إضحاكي. لم أردّ. كنتُ حانقًا عليه لأنه لم يفعل شيئًا، لأنه وقف هناك وشهد ما جرى، ولأنه أضاء النور لحظة بدأت عيناي تعتادان الظلام. كنت منبطحًا على بطني، لم أستدر حتى لأواجهه. جلس بجانبي وبدأ يُعمل أصابعه الكبيرة في كتفيّ، تاركًا إياها تجري كشوكة عملاقة نزولاً وصعودًا على ظهري وجانبيّ أيضًا. سمعته يتنهد بجهد. وبمعزل عن ذلك بقي صامتًا.

لم يرقني قطّ أن أحنق على موسى، لكنني لم أستطع الحيلولة دون ذلك، لم أعرف كيف أعود طبيعيًا مرة أخرى، كيف أضحك وألهو معه. لم ينهِ التدليك المعتاد، لم يعطني واحدة من تلك الحركات العِظام حيث يدعك ويفرك ويشدّ في كلّ طرف، وكلّ إصبع، وكلّ مفصل. اكتفى بتقبيل مؤخر رأسي بسرعة، ثم أطفأ الضوء وغادر.

سمعتهما يتكلمان، ثم سمعت باب البيت يُغلق. لقد رحل موسى، مضى إلى قلب الليل حيث سيارته، كما تراءى لي، مظلمة وباردة. سمعت صوت المحرك الذي لم يشتغل إلا بعد المحاولة الثالثة أو الرابعة، ثم سمعته ينطلق، تاركًا إيانا ومتلاشيًا وحده في طي السكون.

٨

في تلك الليلة حلمتُ أن بابا يعوم على سطح البحر. كان الماء هائجًا يمور كأنه في الصميم، يرغي ويزبد على التلال. وبابا مستلقٍ على ظهره، مثل زورق صيد صغير يحاول الاستسلام لمشيئة البحر. كنتُ هناك أيضًا، أبذل جهدي لأبقي كتفيّ فوق الماء، ولئلا يختفي عن ناظري، لكن البحر ارتفع واختفى بابا من المشهد. واصلتُ السباحة. كنتُ أعرف أنني قريب منه. ثم رأيته فجأة متخشّبًا ومتصلّبًا. حينما مددتُ يدي لألمسه تحول إلى سمكة، خفيفة الحركة ومجفلة. غاص بسرعة وابتعد. تمكنتُ من إلقاء نظرة على عموده الفقري الفضي يترجرج تحت الماء. استدرتُ ولم ألمح أيّ شاطئ أعود إليه.

عندما فتحتُ عينيّ وجدتُ نفسي أشغل مكانه في سرير ماما. دفنتُ وجهي في وسادته وتشمّمتُ عُرف عنقه. التقت يداي بدفتر ملاحظاته الصغير تحت الوسادة. فقد اعتاد على إخفائه هناك ليجده في متناوله إذا أبصر حلمًا في أثناء نومه. على ظهر الدفتر ثُبِّت قلم ذهبي نحيل واستُعمِل كقفل له. نزعتُ القلم وفتحتُ دفتر الملاحظات. كان خطّ بابا يملأ صفحاته من الحافة إلى الحافة ومن الأعلى إلى الأسفل. وفي آخره صفحة واحدة فقط فارغة، لن تسمح له أن يدوّن حلمًا جديدًا إلا بشقّ النفس. تأملتُ الكتابة الزرقاء الملتوية التي لم يعكّر التواءها سوى استقامة *الألف* أو *اللام*، كأنها أعمدة مصابيح أو أشجار النخيل التي تُخطط شاطئ بحر طرابلس. نقاطه بدت أقرب إلى شحطات صغيرة تطير في الاتجاه نفسه،

كطيور أو نثار ينطلق بسرعة تفوق سرعته وهو يكتب، لتطارد حلمه قبل أن يفرّ من الذاكرة. استرجعتُ هيئته - تلك التي اعتدتُ أن أراه عليها في صباحات عديدة - جلوسه على السرير، الانحناء الطفيف لظهره العاري وهو عاكف على الكتيب الذي لا يزيد طوله عن سبابته، انهماكه في تسجيل حلم أفاق منه الآن. ثم وعندما يسمعني أدخل الغرفة، يرفع ذراعه الأخرى في الهواء كأنه حكمٍ كرة قدم. أحكمتُ إغلاق دفتره الصغير بالقلم الذهبي، وأعدتُه إلى مكانه تحت وسادته.

إلى جانبي، حيث رقدتْ ماما، رأيتُ الملاءات المضطربة، وعلامات رأسها على الوسادة. وفكّرتُ في أن لا سبب هناك يحول بيننا وبين أن ننام هكذا كلّ ليلة، هي وأنا معًا في سريرها. فهي لم تقض ولا ليلة واحدة هنا في أثناء وجود بابا في البيت، ولأن سريري ليس عريضًا بما يكفي ليتسع لكلينا كانت تنام على الكنبة في غرفة الجلوس. إن الحل المناسب، قلتُ لنفسي، هو أن ندع بابا ينام في غرفتي، ونحصل أنا وماما على السرير الكبير، لأننا لا هي ولا أنا نشخر في نومنا.

ذاك هو العذر الذي تعلّلتْ به ماما لتبرّر نومها على الكنبة، مع أنني ما سمعته قطّ يشخر. «طبعًا لا يمكنكَ أن تسمعه،» اعتادت أن تقول، «فهو لا يشخر إلا عندما يستغرق في النوم العميق، وهذا لا يحدث إلا في منتصف الليل وأنتَ نفسكَ تكون حينها مستغرقًا في النوم.» وجدتُ صعوبة في تصديقها، خصوصًا لأن شخيره العالي جدًا كما قالت ماما يجعل الحشية ترجّ. بيد أنني لم أطرح مزيدًا من الأسئلة لأنني استشعرتُ في صوتها في تركيزها على عبارة: «أنت نفسكَ» حنقًا يستهدفني كما يستهدف بابا أو ربما يستهدفها هي نفسها.

في أثناء تلك الليالي وبابا في البيت، تجرجر ماما غطاءها

وراءها إلى الكنبة في غرفة الجلوس لتهجع هناك. كان هذا يجعلني أشعر دائمًا بشيء يتصاعد كأنه سائل قاتم بين أقدامنا، مفرّقًا بيننا، مرسلاً كلا منا ليبحر وحده في ليلته الخاصة به التي يبدو صباحها أكثر نأيًا وتجريدًا من أن يؤتمن جانبه. وما كنتُ أشعر قطّ بانحسار ذلك السائل إلا بعد أن نعود ونجتمع ثانية حولِ مائدة الفطور في المطبخ المغمور بالشمس.

كنتُ وأنا في سريري ألمح الضوء المنبعث من التلفزيون في غرفة الجلوس وهو يرتعش على الحيطان المظلمة في الخارج. حيث تضطجع في سريرها البديل تتفرّج حتى ساعة متأخرة من الليل على الأفلامِ المصريةِ التي لا يكتفي العشاق فيها من العشق أبدًا، وبعد كلّ كلمة وكلّ نظرة يصدح أنين الكمان. الآن، وأنا أعيش في البلد الذي أنتج تلك الأفلام أجدني قد اعتدتُ على نقاط ضعفها؛ لأن ما يتضمنها من ميلودراما فيه سخرية من الحبّ. وهذا ما أفسّر به تلك الكآبة التي كانت تستحكم بي في طفولتي عندما أرقد في سريري أستمع حتى تباشير الفجر إلى عزف الكمان يندلع قبل أن تسارع ماما إلى خفض الصوت. وأكاد أجزم أنها كانت حينذاك تجلس على حافة مقعدها جاهزة لعزف الكمان، تقعد نافدة الصبر بانتظار اللحظة التي ستأتي لتدعم شكوكها في الحبّ، وتعزّز من شعورِها الغريزي للاستمرار بدونه، راضية - دائمًا راضية - بحياة فُرِضتْ عليها.

في بعض الليالي كانت تبدأ ليلتها في غرفتها ثم أجد وسادتها وغطاءها صباحًا في غرفة الجلوس، وعلامات جسمها عليها، ومنفضة السجائر قربها طافحة بالمناديل الورقية المجعدة.

وفي بعض الصباحات الشتوية عندما تلتحف السماء بظلمة عنيدة، كنت أتسلل إلى سريرها البديل وأنا بكامل ملابسي

المدرسية، ثم أتقوقع في التجويف الذي خلّفته في الملاءات وأتساءل وربطة عنقي تضغط على رقبتي، والدفء يسري في خدّي من وسادتها، كيف للفردوس أن يكون شيئًا مختلفًا عن هذا؟

في الحقيقة لم أر ماما وبابا يرقدان في سرير واحد إلا في أثناء القيلولة، وذلك لأن ستائر غرفتهما المصنوعة من المخمل السميك تحجب نور الشمس، ولطالما افترضتُ أن قيلولة ساعتين ليست وقتًا طويلاً بما يكفي ليبلغ بابا مرحلة النوم العميق الضرورية للشخير.

شككتُ دائمًا في وجود سبب آخر يجعل ماما تمتنع عن النوم في غرفتها في أثناء وجود بابا في البيت. ومع أنني لا أدري لماذا، شيء ما في داخلي لامها دومًا على ذلك. وكان الغضب يمسكُ بخناقي كلما استجوبتها عن شخيره. إلا أن هذا ما لبث أن تغير لما شاهدتهما معًا. كلّ شيء في داخلي تغير.

هاجس ما أيقظني في تلك الليلة وسيّرني إلى غرفتهما. كان مصباح بابا الجانبي هو الضوء الوحيد المنبعث منها. وعلى بصيصه الخفيف رأيته فوقها. كان يندفع إلى الأمام والوراء بوتيرة واحدة قصيرة المدى وكئيبة، مثل النسوة العجائز وهن يندبن موتاهن. وقفتُ في العتمة، عند مدخل الغرفة حيث لا يمكنهما أن يرياني. هي كانت تحته، هامدة وشبه غائبة. لم أستطع رؤية وجهها، لكنني رأيتُ إحدى ذراعيها وقد انبسطت إلى جانبها، ويدها مفتوحة صوب السماء ومتراخية. ندّ عنه أنين غريب، حادّ كمنشار. ثم تصلّب فجأة وظهره مشدود ومرتجف، ثم خرّ على أحد الجانبين. استلقى هناك متلاحق الأنفاس، وحدّق إلى السقف. لمحتُ قضيبه الذي تراخى جانبيًا يلمع تحت ضوء المصباح الواهي. هي أيضًا كانت عارية؛ وقميص نومها مرفوع إلى حدود إبطيها. ولما

تحركتْ لتجذب طرف الملاءة إليها ترجرْج ثـدياها بطريقـة غريبة. شدّتْ الملاءة إلى ذقنها، وأدارتْ لـه ظهرهـا. ثـم تنحنحتْ وقالت، «أطفئ المصباح، طلبـتُ منـك أنِ تطفـئ النور.» استجابِ لها، وفي جـوف الظـلام سـمعتْ جـسمه يتحرك. فتساءلتُ ما إذا عاود الاقترابِ منها.

هل اهتزّ العرش العظيم؟ ساءلتُ نفسي. تذكّرتُ كلمـات الشيخ مصطفى: «كلما اجتمع رجل وامـرأة خـارج ربـاط الزوجية اهتزّ عرش الله.» لم يكن بابا وماما كـذلك، فهمـا متزوجان على سنّة الله ورسوله، لكن شيئًا ما يتعلّق بما رأيته أزعجني كثيرًا إلى درجة أنني ما استطعتُ أن أتخيّل كيف لا يمكن لعرشٍ الله، عرشه العظيم، أن يهتزّ كما اهتزّ قلبي.

عجزتُ عن النوم في تلك الليلة، والتساؤلات تلحّ علـيّ - وأنا أشعر بالخوف وبالذنبِ وبالغضب من تساؤلاتي - مـا إذا كان ينبغي لي أن أفعل شيئًا يوقف ما رأيته، وما إذا كنتُ غافلاً عن حاجة ماما لي لمساعدتها. بل لم يخامرني أيّ شكّ فـي أن العناية الإلهية هي التي أيقظتني من نـومي، وإلا فلمـاذا تـمّ إيقاظي في مثل تلك الساعة؟ إنها بلا ريب العناية الإلهية. وأيّ فاشل أنا كما ثبت لي؛ فاشل يفتقر إلى الـشجاعة - أو أيّ مـا كان ذلك الشيء الذي يجعل الناس يتصرّفون بـسرعة وبحـسم وبدون تردّد - التي تجعله بمستوى الحدث، لأبرهن أنني واحد من العباد المؤمنين. لقد استُدعيتُ لأمنع شيئًا فظيعًا، شـيئًا أنـا متأكّد من أن الملائكة لم تباركه قطّ، شيئًا جعـل مامـا تهجـر سريرها كل ليلة لتنام على الكنبة وحدها، وتذوي بـبطء، كمـا كنتُ أذوي في غياهب النوم على وقع عزف كمانٍ سخيف لفيلم رومانسيٍ مصري.

كنتُ مستلقيًا في سريرهما أفكّر في كلّ هذا عندما سمعتُ جرس الباب يرّن، ثم صوت موسى. من طريقة كلامه توقّعتُ

أنه يحمل شيئًا ثقيلاً، ككيس كبير من الرزّ، أو خبز طازج ساخن من عند مجدي الخباز.

«وماذا سأفعل بهذه؟» هتفتْ ماما.

«إنها للتمويه،» قال.

«لكنها كبيرة جدًا!»

«هل جمعتِ الأوراق والكتب التي أخبرتكِ عنها؟»

«إي، كلّ شيء جاهز.»

«هل أنت متأكّدة؟ لا يريدنا بو سلِيمان أن نغفل شيئًا.»

ما كادا يسمعانني أخرج حتى توقّفا عن الكلام. وبعد صمت قصير همست ماما، «لقد قام.» «سلومة،» صاح موسى بمبالغة تشبه مبالغة أنصار كرة القدم عندما يظهر لاعبوهم المفضّلون في الملعب، ثم صفّر وزأر كما تفعل الحشود رافعًا قبضته فوق رأسه.

ذهبتُ إلى الحمّام. وسمعتهما يستأنفان حوارهما همسًا. لما عدتُ إلى المطبخ سكتا ثانية. كان يقعد إلى طاولة الفطور، وهي واقفة وظهرها لي، تغسل الفاكهة.

«كيف كانت ليلتكَ يا بطل؟»

«لا بأس،» أجبتُ.

«أخبرتني ماما أنكَ أبصرت حلمًا مزعجًا.»

«لا أتذكّر شيئًا.»

«إيه، لا بدّ أنه التأثير اللاحق لضربة الشمس. ولعل الحرارة أذابتْ دماغكَ.» قال، ثم انفجر بضحكة عالية حتى ماما لم تستطِع مقاومتها، فغطتْ فمها بظاهر يدها، لكنها لم تصدِر صوتًا. وللحظة فكرتُ أنها ربما كانت تبكي. ولما استدارتْ ووضعتْ وعاء الفاكهة على الطاولة. نظرتُ في عينيها، لا، لم أرهما دامعتين.

«كيف وصلتُ إلى سريركِ؟» سألتُها.

«صباح الخير حبيبي.» قالت وهي تقبّلني. «راودكَ حلم مزعج، ألا تذكر؟ كنت تبكي.»

هززتُ رأسي نافيًا. وتذكّرتُ في سرّي حلمي عن بابا في البحر، وظهره السمكي الفضي تحت الماء.

«رقدتِ بجانبي تغمغم وترتعد.»

هممتُ بتقبيل يدها كما أفعل كلّ صباح، لكن رنين الهاتف قاطعنا، إذ أسرعتْ لتردّ عليه.

تناول موسى بيضة بقبضته الكبيرة، كسرها على جبينه، قشّرها، عصر فوقها نصف ليمونة، دحرج جسمها الأبيض اللامع على الجبال الثلاثة الصغيرة من ملح وفلفل أسود وكمّون، ثم ناولني إياها. شرع بعد ذلك يقرأ الصحيفة بصوتٍ عال، لكنني شعرتُ بالقلق في داخلي يتزايد، كما لو أنني أهملتُ شيئًا آخر أهمّ بكثير. جعلني هذا عاجزًا عن التركيز، مما أغضب موسى. فلوى فكيه، هزهز ساقه، أشعل سيجارة وقرأ لنفسه.

على منضدة المطبخ خلفه رأيتُ ظهر صورةٍ مؤطرة. لا بدّ أنها الشيء الثقيل الذي أتى به. كانتْ ماما محقّة بشأن ضخامتها البالغة، ماما التي عادت مسرعة إلى المطبخ.

«المتصل واحد منهم. أنا متأكّدة من أنه منهم. سمعتُ أنفاس رجل على الخطّ. حاولتُ استدراجه ليتكلم، لكنه أقفل السماعة،» قالت وهي تفرك يديها معًا. «هيا، دعنا ننهي الأمر قبل أن يأتوا.»

حملق موسى في الطاولة وفكّاه يتقبّضان بسرعة، وكلما تقبّضا انتفخ جيبان صغيران تحت أذنيه. «أين المطرقة،» قال أخيرًا.

«لا أظن أنه عندنا مطرقة،» أجابتْ ماما وهي تفتح بعض الأدراج في المطبخ. «بصراحة، لا أعتقد أننا نمتلك واحدة.»

«لا بأس،» قال موسى وهو يخلع حذاءه، «أعطيني مسمارًا فقط.»

«لا أعتقد أن لدينا أيًا منها.»

«كان حريًا بي أن أعرف،» قال بِصوت متضايق، ثم وثب إلى الصالون وحذاؤه في يده. تبعتُه. هناك أنزل صورة بابا، تلك المعلّقة عاليًا على الجدار. تفحّص قوة مسمارها، ثم طرقه عدة مرات بكعب حذائه. «سيفي بالغرض،» همهم لنفسه وترك الغرفة.

وقفت صورة بابا على الأرض، تستند إلى كرسي البيانو. خيّل إلي أن ابتسامته تغيرت، وكأنه مُحرج الآن، حتى الأشجار خلفه لاحت أقلّ حياة. عاد موسى وهو يعانق الإطار الضخم. استطعتُ أن أرى من طرِفيه كتفي رجل مزدانتين بالنجوم والنسور. كان موسى يتنفس بصعوبة. دفع الصورة إلى الأعلى، انحنى قليلاً، ثم عاد ودفعها إلى الأعلى ثانيةً. «سليمان،» قال بصوت أجش، فألصقت أذني بالجدار وقلتُ، «إلى الأعلى قليلاً.» لكنه عاد ووضع الصورة أرضًا. التقط أنفاسه ثم أحكم قبضتيهِ على الإطار من جديد. «انزِل قليلاً، إلى اليمين قليلاً،» قلتُ. ولما انتهينا، رجعنا إلى الوراء، ووقفنا نتفرّج على العقيد يحدّق عاليا صوب المدى. قبعته نازلة على عينيه، كما لو أن شيئًا في السماء يزعجه، خصلات شعره السوداء مجتمعة حول صدغيه وأذنيه وجانبي رقبته، وخطان غريبان يخدّدان وجنتيه كأنهما قوسان يحدّان فمه من الجانبين. وعلى لوحة نحاسية في الإطار كتابة تقول: *العقيد معمر القذافي، قائد الثورة الشعبية الليبية.* «مفجر عصر الجماهير، أبو الأمة، القائد الملهَم!» قال موسى مبتسمًا ثم لكم الهواء بقبضته وانبرى ينشد، «الفاتح الفاتح الفاتح،» متظاهرًا أن هناك آلاف الناس حوله، لكنني لم أضحك. بعد ذلك خبأ

صورة بابا وراء البيانو وانتعل فردة حذائه. عندما عدنا إلـــى المطبخ لم نجد ماما فيه. جلسٍ موسـى علـى كرسـيه عنـد الطاولة وأشعل سيجارة. بقيتُ واقفًا أراقبه. بعد فترة قـصيرة من الوقت صاح، «كيف تجري الأمور معكِ يا أمّ سـليمان؟» ثم همس لنفسه، «الأوغاد.» بيد أنه إذ لاحظ أنني أراقبه ابتسم ابتسامة واهية وقال، «لماذا لا تجلس؟» كنت أجهـل الـسبب الذي جعلني أمتنع عن الجلوس، وفي الوقت نفسه لـم أحـب الخضوع لضغط اختلاق تبرير لنفسي.

«تعال وساعدني،» صاحت ماما من غرفة نومها.

أطفأ سيجارته على عجل وقال لي، «اجلس.»

بقيتُ واقفًا، لكنه غادر المطبخ في جميع الأحوال. رأيـتُ أنه يتصرّف كما لو أنه أصبح فجأة سيد البيت وأنا الـضيف. احترقتْ سيجارته المكسورة في المنفضة، وراقبتها حتى ذوت نهائيًا.

ظهر الاثنان من جديد وهما يحملان جبـالاً مـن الكتـب والأوراق. فتح باب الحديقة لها، فأسرعتْ بالخروج. وفيما هو يمضي خلفها سقط منه كتاب. كدتُ أهمّ بالتقاطه لأناوله إيـاه، ثم تقاعستُ فجأة. نظر إلي. لمحتُ طيف خيبة أمل في عينيه. وأتساءل الآن ترى بأيِّ طريقة خيبتُ أمله: ألأنني لـم ألـتقط الكتاب، ألأنني افتقرت إلى ذلك الشيء الـذي يجعـل النـاس يتصرّفون بسرعة بدون تشكيك؟ ألأنني لمٍ أطعه عندما طلـب مني أن أجلس؟ أم أنه كان شيئًا آخر، شيئًا أكثر تعقيدًا ودقّـة من مجرّد فعل وحيد بعينه؟ إن خيبة الأمل في النهاية سلـسلة من الظلال تشير كلّ واحدة منها إلى الأخرى. تركَ الكتـاب على الأرض وهرع ليلحق بماما. بعد برهة التقطتُ الكتـاب وتبعتهما.

كان نسيم الصباح في الخارج عذبًا، والعصافير باشـرت

الغناء كما لوِ أنها تتنحنح استعدادًا لليوم. عندما وصلتُ ناحية الدرج، رأيتُ طاووس عباءة ماما يختفي عند السطح، وموسى وراءها، يجتاز كل درجتين معًا. صعدتُ بسرعتي الخاصة، وأنا أصفع الكتاب بفخذي تارة، وأحفّه بالحائط تارة أخرى. وعلى غلافِه قرأتُ كلمة «الديمقراطية»، وتحتها كلمة «الآن».

وجدتُ موسى جاثيًا على ركبتيه قرب خزان الماء حيث ورشتي. تناول دلو الصفيح الذي أحفظ فيه عدّتي، ثم وبحركة واحدة أفرغ محتوياته جانبًا. مزّق بضع قصاصات ورق، ثم أشعلِ عود ثقاب ورماه فوقها. تصاعد دخان أسود. نفخ عليه فكفّ الدخان عن التصاعد. وبالرغم من أنكَ لن تتمكن من رؤية ألسنة اللهب، تعرف أنها هناك من طريقة تماوج الهواء حولها. فكّرتُ في الاحتجاج على استخدام دلوي، لكن الأوان كان قد فات. وشعرتُ أن حاجتهما الملحّة تلغي أيّ شيء آخر.

قلّبتْ ماما الأوراقِ التي في يدها بسرعة، وعندما أصبحتْ النار جيدة وقوية بدأتْ ترميها، واحدة تلو أخرى، وكأنها تطعم كلبًا في الدلو. راقبتُ كتابات بابا تتجعد، تحمرّ، ثم تغدو رمادية وأخيرًا تتحول إلى رماد أسود. دنوتُ من موسى لأسلّمه الكتاب، لكنني لمحتُ ماما بطرف عيني تنظر إليّ. خشيتُ أن تطلب مني الذهاب لأتمرّن على سلّم الموسيقى، فخبأتُ الكتاب وراء ظهري وتسمّرتُ في مكاني. انهمك موسى في تمزيق الكتب. وكم دهشتُ من سهولة تفسّخها بين يديه الكبيرتين.

حمل موسى الدلو الساخن بمنديله الأبيض ونزل به إلى الحديقة. لحقته ماما وهي تقول، «ابحث عن بقعة وسأحضر المعول.»

بقيتُ على السطح، والكتاب ما زال وراء ظهري، ورحتُ أنظر إليهما من هناك. انتقى البقعة التي أغرقتُها بالماء عند

شجرة الصمغ. جاءتْ ماما راكضة، وعباءتها الطاووسية ترفرف وراءها وناولته المعول. راقبتُه وهو يحفر ويطمر الرماد. ولما انتهيا عادا إلى المطبخ.

فيما أنا واقف في السطح تذكّرتُ كيف أنها ذات مرة بعد أن استيقظتْ من قيلولتها، أحضرتُها إلى هنا. كانت ما تزال متكاسلة وهي تمشي ورائي بعباءتها الطويلة الفضفاضة. أنا، أكثر حماسة من أن أستطيع الانتظار، جذبتُها على طول الدرج إلى ورشتي لأريها ما صنعت: حصان من الخشب، أذناه من علكة، وذيله من أسلاك راديو مبرومة معًا. صنعته لأنها في اليوم السابق قالت لي، «أنتَ أميري، وذات يوم ستصبح رجلاً وتحملني بعيدًا على حصان أبيض.» قبّلتني، مضتْ إلى حافة السطح لترنو إلى البحر. كانت الشمس في نزعها الأخير تسكب نفسها في الماء. وقفتُ بجانبها وأنا أستند على ساقها. ولما رفعتُ رأسي رأيتُ عينيها تحدقان ثابتتيْن في الضوء. «لقد تبدّلتْ حال البحر مرة أخرى،» قالت. «البحر يتغير من حال إلى حال كلّ يوم.» ثم صمتتْ. ومن صميم كياني، من موضع بقي غامضًا حتى تلك اللحظة، شعرتُ أنني أذوب، أنني أنا أيضًا، مثل الشمس التي تسكب نفسها في البحر، كنتِ أسكب نفسي فيها.

حشرتُ الكتاب في بنطالي القصير، غطيته بقميصي وتسللتُ إلى المطبخ. كانت ماما تقف عند الحوض. جريت إلى غرفتي، ولحظة أغلقتُ بابي سمعتُ موسى يخرج من الحمّام، ثم صوت صهريج الماء وهو يمتلئ ثانية. عرفتُ أنني نجحتُ في تحاشيه. وغمرني شعور لذيذ من الذنب والإثارة، تذكّرتُ يوم سرقتُ سيجارة منه وأشعلتها تحت سريري. كنتُ حينذاك في السابعة أو السادسة، ثم ضبطتني ماما، وصفعتْ ظاهر يدي ثلاث مرات. دسستُ الكتاب تحت وسادتي،

ولخوفي من أن يثير غيابي الشكوك أسرعتُ عائدًا إلى المطبخ.

جلستُ إلى الطاولة قبالة موسى. لما التقتْ أعيننا ابتسم. أمسكَ تفاحة، قطعها وناولني قطعة. حملتها بين أصابعي، وأحسستُ برطوبتها الباردة على جلدي المندى بالعِرق.

«لماذا تريد اللجنة الثورية تفتيش بيتنا؟» سألتُ.

نظرتْ عينا موسى من فوقي إلى ماما.

«أنتَ لا تستطيع الاحتفاظ بشيءٍ لنفسك!» قالت له ماما.

رفع يديه عاليًا كما لو أن شيئًا يوشك أن يسقط من السماء. «لم أخبره بشيء، رآنا نحرق الكتب.»

«ومن أحضره ليرى؟ لماذا يا موسى؟ لماذا؟ ألا يمكنكَ الاحتفاظ بشيء لنفسك؟»

انتقلتْ لي عدوى الغضب من موسى لما رأيتُ مدى انزعاج ماما. أما هو فلم يحاول الدفاع عن نفسه أكثر مما فعل، بل جلس مكتوف اليدين يواجه الطاولة. وضعتُ شريحة التفاح التي أعطانيها في صحني، وكان سطحها قد بدأ يسمرّ.

«ليس من المفترض أن يعرف الأطفال هذه الأمور. ليتني لم أخبركَ، ليتني لم أخبركَ شيئًا.» ثم أطبق ذلك الصمت الطويل الذي تخلفه نقاشاتهما عادة.

«لماذا أحرقتما كتب بابا؟ بابا لا يستغني عن كتبه.» لم ينظر أيّ منهما إليّ. «لا أعتقد أن بابا سيسرّ لأنكما أحرقتما كتبه.»

«هاك. ماذا ستقول له الآن؟ هيا، أخبره،» صاحت ماما في وجه موسى الذي واصل التحديق إلى الطاولة. «أخبره عن أبيه، بطلكَ.» تابعت وهي تدنو منه، ثم دفعَته عدة مرات وكرّرت، «أخبره. هيا أخبره.» للحظة بدا عليها التردّد، إلا أنها ما لبثتْ أن قالت، «أخبره أنك شجعته، اعتبرته مثلكَ

الأعلى وانتظرت منه التوجيه، نفخت صدره بإعجابك به.»

بدأتْ ساق موسى تهتزّ، «كفى،» قال أخيرًا.

«الآن تقولِ كفي! بعد أن حرّضته وحرّضته.»

«ما أردتُ له الأذى قطّ.»

«الأمر مختلف بالنسبة إليك. أنت مصري. أكثر ما يستطيعون فعله معك هو ترحيلكَ.»

«أنا أفديهِ بحياتي.»

«ولو مِتّ في سبيله عشر مرات، لن ينفعه هذا في شيء الآن.»

احمرّتْ شفتا موسى، واصطبغتْ عظمتا خدّيه بظلّ قرمزي. بدا وكأن أحدًا صفعه. تساءلتُ في سرّي ما إذا كان هذا ما أصابه عندما صرخ فيه رجل اللجنة الثورية، ذاك الذي له صوت عجوز وهو يسأله تلك الأسئلة كلّها عن مكان سكنه والذين يسكن معهم، أسئلة من تلك التي تطرحها على صبي صغير ضائع في الشارع.

«لا يمكنكِ لومي على هذا،» قال.

«أنتم أطفال تلعبون بالنار. كم مرة قلتُ له: "امش بجانب الحائط، أمّن قوت عائلتك، لازم البيت ودعهم وشأنهم، انظر إلى الناحية الأخرى، فهذا زمانهم لا زماننا، اعمل بجد وأخرجنا من هنا. دعني أرى غيوم بلادي من فوق يا فرج، أريد أن أنظر إلى الأسفل وأراها مجرّد خريطة بعيدة، مجرّد خطوط، مجرّد فكرة. من أجل مصلحة ابنك على الأقل. بعد خمس سنوات سيصبح في الرابعة عشرة، وسيلحِقونه بالجندية ويرسلونه إلى تشاد." كم مرّة كرّرتها! ولكن ماذا حدث "في غضون خمس سنوات،" كان يقول مُخاتلاً، "في غضون خمس سنوات فقط سيكون كلّ شيء قد تغير! وانظر الآن إلى أين أودى بنا تهوره.»

«بو سليمان رجل شريف يريد الأفضل لليبيا من أجلكِ ومن أجل سليمان.»

«ومن يحسب نفسه ليريد شيئًا كهذا؟» زعقتْ ماما. كان صوتها مُجهَدا، وهذا جعل الحوار معها مستحيلاً. «إنهم جبارون، أيظنّ أنه يستطيع قهرهم وحده؟»

«ليس وحده.»

«إيه عفوًا. نسيتُ حفنة الرجال الذين أحسن ما يتقنونه هو الاختباء في شقتهم في ميدان الشهداء، ليكتبوا منشورات تنتقد النظام. لِمَ لم يفكر أحد في هذا يا ترى؟ طبعًا، ذاك هو الجواب على كلّ الأسئلة، أي حمقاء أنا. انظر الآن إلى أين قادكم ذلك. ثمة مذبحة في طريقها إلى الحدوث قريبًا. والله أعلم ما إذا كان رشيد سينجو، المسكين، الغبي بما يكفي ليصدّق أحلامكم.»

«إنها أحلامه كذلك. تحلّي بالأمل يا أمّ سليمان، قوّي قلبك.»

«لا تعظني. كلّكم حمقى، بمن فيكم رشيد وفرج. ولكن لا، لا، يجب أن أكون زوجة مخلصة، وفية ومطيعة. أدعم زوجي بدون قيد أو شرط. لن أدعم شيئًا يضع ابني في دائرة الخطر. يمكن لفرج أن يطير وراء أحلامه كما يشاء، لكن ليس أنا، لا، لن أتبعه. سأخرِج ابني من هذا المكان حتى ولو كان هذا آخر شيء أقوم به.»

بدت ماما وكأنها تخفي غضبًا غير محدود، وكلّ ما احتاجه ليتفجّر كلمة، بادرة ما. ولا شكّ أن موسى قد لاحظ ذلك، لأنه أبقى عينيه على الطاولة. أما هي فراحت تذرع المطبخ جيئة وذهابًا.

«تنفخ صدره،» قالت من بين أنفاسها، ثم بصوت أعلى، «تنفخ صدره،» كما لو أن المرة الأولى كانت فكرة فقط،

تمرينًا على ما سيأتي بعدها. «نعم، هذا ما تفعله عندما تجلس عند قدميه، تقرأ له وتعيد القراءة، تقرأ مقالات الصحف التي تدرك أنها تضرم النار في قلبه. تحثّه، تدفعه - دائمًا تدفعه - وإذا لم تكن الكلمات المطبوعة ملهبة بما يكفي تضيف إليها من عندك، لأنكَ في حاجة إلى بطل، تريد شخصًا ينتشلكَ من إخفاقاتكَ المتوالية، يدين قويتين موجودتين دائمًا لإنقاذكَ ولإرسالكَ إلى أماكن لا تنتمي إليها، لتصبح شيئًا، لتثبت لأبيك الطيب أنكَ كنت مصيبًا عندما خالفت إرادته. وأنك خلاف أيّ شخص آخر لا تحتاج إلى درجة جامعية لأن العظمة قدركَ، قدركَ أن تركب الموجة، وتمسك بذيول معطف التاريخ، بينما أنتَ تعرف من البداية أن الرجل الذي اخترتَه لقيادتكَ ليس بطلاً، بل مجرّد إنسان عادي، ربّ أسرة، وأنكَ لا تنفخ صدره، إلا لتجعله يظنِ أنه يمتلك قوة ليست لديه، أنه يستطيع مواجهة البركان، وأنتَ - ماذا فعلتَ؟ - رحت تقرع الطبول التي تحثّه على الاستمرار وتدفعه قُدمًا وقُدمًا.»

قعدتْ قبالة موسى. وبقيتُ أنا بينهما. كان طعام الإفطار لا يزال على طاولة المطبخ. فجأة ضحكتْ. كان من المذهل أن أسمعَها تضحك في هذه اللحظة.

«حتى فكرة موقع الشقّة،» قالت، «*مقرّكم* في ميدان الشهداء، كانت فكرتكَ أنت. وأيّ حمق هذا! إنها بالكاد بعيدة عن متناولهم، بالكاد *خفية* عن أعينهم الآن. أم ماذا؟ ألستَ أنت من قال له إنها ذات يوم ستصبح متحفًا؟» حملق فيها موسى بعينين مشدوهتين. «ها، أتذكر الآن كيف صوّرتَ الأمر: "مثل بيت سيغموند فرويد في لندن،" قلت له. "مثل شقة كونستانتين كافافي في الإسكندرية، حيث يتوجّب على الناس أن يدفعوا المال قبل الدخول." قلت مذكيًا أجيج النار. "ينبغي أن يكون موقعها ملائمًا." حاججت. يا لحنكتكَ. ذاك ما أدعوه

التخطيط المُسبق!» أنهتْ حديثها وضحكتْ وحدها. ولبثنا نترقّب سكوتِها.

أمسكتُ معدتي بيديّ، انطويتُ على نفسي، وبدأتُ أتأرجح إلى الأمام والوراء.

«ما بكَ؟» سألني موسى.

«هذه عادة جديدة. يفعل هكذا عندما يضطرب،» أخبرته ماما بصوت ناءٍ غرّبه الغضب أو الحزنِ.

إلا أنها لم تكن عادة جديدة، بل دأبتُ على فعل ذلك منذ وقت طويل، وكانت تعرف. أفعل ذلك لأمنع نفسي من الكلام، من تكرار الأشياء التي تحكيها لي في نوبات مرضها، الأشياء التي يغضبها أن تسمعها ثانية، الأشياء التي جعلتني أعِدها بأنني لن أبوح بها لأي مخلوق حيّ.

«ما بكَ يا سلومة؟»

«دَعه،» قالت له ماما، «سيتوقّف عندما يتعب.»

فرّ ذهني إلى إحدى الذكريات: كان بابا جالسًا يقرأ كتابًا قرب المصباح، وأنا بجانبه. حاولتُ الالتصاق به لكن جسمه لم يتجاوب، لم يكتنفني كما فعل أستاذ رشيد مع كريم في الحافلة ونحن في طريق العودة من لِبدة. كانت جلابيته غير مزرِرة، ومن خلالها ظهر شعر صدره كأنه أسلاك ملتوية. قلتُ شيئًا، لم يندّ عنه أيّ ردّ فِعل. فركتُ شحمة أذنه، بقيتْ أنفاسه منتظمة وإيقاعية. جذبتُ شعرة، وأيضًا لم يندّ عنه ردّ فعل. قبضتُ على مجموعة منِ شعر صدره وجذبتها بأقوى ما أستطيع إلى درجة أني مططتُ الجلد معها، ثم أرخيتُ قبضتي عنها ببطء. حينها حبسِ أنفاسه لثانية ربما، وهذا كل شيء.

في وقت لاحق سألتُه، «كيف لم تتألم عندما جذبتُ شعر صدرك؟»

«متى فعلت هذا؟» قال.

«اليوم وأنت تقرأ.»

«أبوكَ لا يحسّ بشيء وهو يقرأ،» علّقتْ ماما، ثم بعد صمت بارد أضافت، «يحبّ كتبه أكثر من أي شيء آخر. وفي يوم ما سيأتون لحرق هذه الكتب وحرقنا معها.»

ترك بابا الغرفة على الفور. فنظرتُ إلى ماما مستفهمًا، وسمعناه معًا يصفق باب مكتبه.

أخذتُ أتأرجح بمزيدٍ من السرعة. لم أستطع منع شفتيّ من الارتعاش واضطررتُ إلى عبّ الهواء عبًا.

«إنه يبكي،» قال لها موسى.

«لماذا أحرقتما كتب بابا؟» صرختُ فيهما. «بابا يحبّ كتبه.»

للحظة لم ينبس أيّ منهما بكلمة. توجستُ في صمتهما شعورًا بالذنب. ثم قالت ماما، «وكأنكَ لم تشارك معنا،» لا بدّ أنني حينها نظرتُ إليها مذعورًا لأنها أردفتْ بسرعة، «رأيتكَ تقفِ هناك، تراقب موسى يشعل النار،» ثم التفتتْ إلى موسى ليؤكّد مزاعمها.

اضطرم شيء ما في حلقي، وكانفجار زعقتُ، «سأخبر بابا عندما يعود أنكما أحرقتما كتبه. والله سأخبره.»

«إنه لمصلحة بابا،» قال موسى الذي كان قد أصبح بجانبي جاثيًا على ركبتيه كما فعل قبل عدة دقائق أمام دلوي الصفيحي على السطح، دلوي المفضّل الذي تزينه صورة عائلة يونانية تلوّح بأيديها مبتسمة في بستان زيتون؛ الصورة التي فَسُدتْ إلى الأبد بعد أن سوّدها السخامِ والرماد. حاول موسى أن يهمس بكلام ما في أذني، فدفعتُه بعيدًا.

«مجنون، أنت مجنون!»

«صه،» صاحت بي ماما، «أحسِن التصرف. ليس هذا ما علّمتكَ إياه في مخاطبة مَن هُم أكبر منكَ سنًا.»

غطّيتُ وجهي. حملني موسى إلى الحمّام. «اهدأ يا بطل،» قال وبدأ يغسل لي وجهي بالماء البارد. تنهّدتُ بعمق. وضع منديله على أنفي وقال، «انفخ.» مشط شعري بأصابعه، قبّل يدي وهزّها وكأنه يقول، «تماسك يا بطل.» ثم نظر في عينيّ وقال، «يجب ألا نخبر الرجال القادمين إلى هنا عن كتب بابا. لا بدّ أن تعدني.»

أخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ، «أعدكَ.»

ثم رنّ جرس الباب. رنّ مرارًا وتكرارًا، بطريقة بابا المميزة.

٩

«بابا!» هتفتُ واندفعتُ متجاوزًا موسى. كنتُ السبّاق إلى الباب.

«مرحبًا سلومة،» قال بابا وهو يتخطّاني. «أين أمكَ؟»

كان لدِي الكثير الكثير مما أردتُ قصّه عليه، إلى درجة أنني حرتُ من أين أبدأ.

صفق يده بيد موسى. سأله موسى شيئًا، وأجاب بابا، «إن شاء الله، إن شاء الله. أين نجوى؟» ثم التفت إليَّ، «أين أمكَ؟» كان قد مضى وقت طويل منذ أن سمعته يدعوها بنجوى. وما لبثتْ ماما أن دخلتْ عبر باب الرواق الهزّاز، وشيء ما فيها مختلف. قبّلها على خدّها، ولاحظتُ أنها قد مشطتْ شعرها ووضعتْ أحمر شفاه. لا شكّ أنها جرتْ إلى غرفتها فور سماعها جرس الباب.

«قلقتُ عليكَ كثيرًا،» أخبرته ماما وهي تتبعه إلى المطبخ.

«بابا،» هتفتُ، «ماما وموسى أحرقا كتبكَ.»

نظر بابا إلى موسى، «أحرقتما كلّ شيء؟»

«إي بابا، حتى أوراقكَ أحرقاها.»

«وماذا فعلتما بالرماد؟»

«طمرناه.»

«جيد،» قال بابا وهو يربّتُ كتف موسى.

حينها تملّكتني الحيرة. لماذا لم يغضب بابا؟

«لا ينبغي أن تبقى هنا،» قال موسى. «نظنُّ أنهم في طريقهم إلينا.»

«سأرحل الآن،» أجاب بابا بنبرة حاسمة ويمّم غرفة النوم، فلحقتُ به أنا وماما.

«أنقذتُ دفتر أحلامكَ بابا،» هتفتُ وأنا أسحب الدفتر من تحت وسادته. «أترى؟ أنا لم أدعهما يحرقانه.» ثم ناولتُه الدفتر لكنه لم يبدِ اهتمامًا.

«أيمكن أن تحزمي لي بعض الأمتعة؟»

«أين ستذهب؟»

«هيا يا نجوى أرجوكِ لا تفتعلي شجارًا الآن، ليس لديّ متسعٍ من الوقت. سينتهي كل هذا قريبًا، وسترين كم كنت محقا.»

«سيدمّرونك...»

«نجوى.»

«... ونحن، وكلّ شيء.»

«نجوى، بالله عليكِ.»

«بابا؟»

«نعم سلومة،» هتف سعيدًا بمقاطعتي لهما.

«تحتاجُ إلى دفتر جديد. انظر، ليس في دفتركَ سوى صفحة واحدة فارغة ولا تكاد تتسع لأكثر من حلم.»

«ها، صحيح،» قال باهتمام مبالغ فيه. أخذ مني دفتر الملاحظات وبدأ يتصفحه. «أتدري، معكَ حق. عليَّ أن أتذكّر شراء دفتر جديد.»

«لم أقرأه بابا،» قلتُ، لكنه كان قد عاد إلى حديثه مع ماما.

«ملابس تحتانية، جوارب. ويجب ألا أنسى عدّة الحلاقة، ضعيها في كيس بلاستيك. أوه أنا أتضوّر جوعًا.»

«ثمة أكل على الطاولة، أم تريدني أن أعدّ لك شيئًا معينًا؟» قالت بعينين متلهفتين.

«لا، أنا في عجلة من أمري.» أجاب وهو يغادر الغرفة، ثم أردف وكأنه يخاطب نفسه ولكنه في الوقت نفسه يعلم أنها تستطيع سماعه، «ألم تحضّري الغداء بعد؟»

جمّدها هذا التعليق في وسط الغرفة. بيد أنها عادت وانهمكتْ في جمع ملابسه وهي تغمغم لنفسها، مدركة أنه لن يتمكّن من سماعها، «لم أجد فرصة، ثم إن الوقت في جميع الأحوال ما زال مبكرًا، بل إننا لم ننته من الفطور بعد.» فتحتْ درج ملابسه التحتانية ويداها ترتعشان. وقفتُ عند الباب أراقبها، ثم مضيتُ إلى المطبخ.

وجدتُ موسى وبابا هناك، لكنهما ليسا جالسيْن إلى الطاولة، إنما واقفيْن عند منضدة المطبخ ومتكئيْن عليها. كان خدّا بابا متورّديْن والحماسة بادية عليه. وكان مستغرقًا في إخبار موسى بأمر ما، ومن حين لآخر ينحني فوق طاولة الفطور ويتناول قطعة جبن أو شريحة من التفاحة التي قطعها موسى. كان ثمة أكل كثير على الطاولة.

دخلتْ ماما وهي تحمل حقيبة صغيرة، وضبطتْه وهو يلتقم الأكل من هنا وهناك، فانبرتْ قائلة: «سأعدّ لك شيئًا تأخذه معك.»

«لا، يجب أن أذهب الآن،» قال، ثم عاد وصفق يده بيد موسى بالطريقة السابقة نفسها، وتبادل الرجلان النظرات لثوانٍ قليلة، ثم أخذ الحقيبة الصغيرة من ماما ورفعها إلى خصره وقال، «إنها تزن طنًا.» ضحك موسى أما بابا فأردف، «ألا تريدينني أن أعود يا أمّ سليمان؟»

«لا...»

«آ، فهمتُ الآن. تريدين التخلّص مني.»

«بالتأكيد لا. أنا فقط لم... أعني أردتُ أن...»

بيد أن بابا كان في طريقه إلى الخارج وهو يبتسم بملء

شدقيه لموسى.

كانت ثمة سيارة تنتظر خارج البيت، وشخص مـا وراء مقودها. لحقته إلى السيارة، لكنني سرعان ما وقفتُ عندما رأيتُ وجه السائق وأدركتُ أنني لا أعرفه. ما كاد بابا يدخل السيارة وينضمّ إلى الغريب حتى رفع يده فوق رأسه وأنزل النظّارة الشمسية الكبيرة التي رأيته يضعها في ميدان الشهداء. كانت طوال الوقت ترتكز على قمة رأسه.

*

«ماذا أخبركَ؟» سألتْ ماما موسى وهي ترفع الأوعية من على الطاولة بطريقة صاخبة.

«لا شيء،» أجاب موسى بهدوء بعد أن جلس إلى طاولة الفطور يدخن سيجارة.

«ماذا تعني بلا شيء؟» صاحت ماما. «ألم يتحدّث معكَ؟ ماذا أخبركَ؟»

تَركَ موسى المطبخ.

«إلى أين؟» نادت وراءه، ثم قالت لي بصوت منخفض، «اِذهب وتأكد من أنه لن يغادر.»

ذهبتُ أبحث عنه، وجدته قابعًا في الصالون، قبالة صورة القائد الضخمة. جذب منفضة سجائر قريبة منه، نقر حافتها بسيجارته مرتين، ثم زفر وقال، «كيف حالكَ يا بطل؟»

وما لبثتْ أن دخلتْ ماما بصينية شاي.

في أيّ دقيقة الآن، قلتُ لنفسي، سيكتظ بيتنا برجال اللجنة الثورية، ليقلبوا كل ما فيه رأسًا على عقب، وعليّ ألا أفشي سرّ الكتب والأوراق التي أحرقناها. تذكرتُ كتاب *الديمقراطية الآن*. الكتاب الذي أخفيته تحت وسادتي، وبدأ جلدي يحكّني من الرعب.

رَشفنَا شاينا بصمت. تساءلتُ كم علينا أن ننتظر. ماذا لو كان الشخص الذي اتصل هاتفيًا مجرد شخص أخطأ بالرقم فأغلق السماعة بدون أن يتكلم؟ فهذا، في جميع الأحوال ما قد أفعله، أغلق السماعة بدون أن أتكلّم. فجأة نظر موسى إلى ساعته وقال، «عليَّ أن أذهب،» تنهّدتْ ماما وأومأتْ برأسها بتلك الطريقة التي يفعلها الناس ليقولوا، «طبعًا عليكَ الذهاب.» كانت يداها لا تزالان ترتعشان ارتعاشًا طفيفًا.

«هَل تحتاجين إلى أيّ شيء؟»

«ولماذا تسأل؟» تصدّت له بصوت فظّ، «أما قلت إنه عليك أن تذهب؟ طيب، ما دمت مضطرًا للذهاب حقًا، اذهب،» وبهذا غادرتْ الغرفة.

تنهّد موسى ولحقها.

قعدتُ وحدي لبرهة أتأمّل صورة القائد الهائلة. كان من المستحيل تجاهلها، كبيرة لدرجة أنها هيمنتْ على الغرفة، بل إن البيانو بدا صغيرًا بالمقارنة معها. كم من الوقت يتحتّم علينا أن نبقيها هناك؟ تساءلتُ. ثم عاودتني تلك الفكرة الملحّة في أن أجد لكتاب بابا مخبأ أفضل من تحت وسادتي.

هرعتُ إلى غرفتي، أغلقتُ الباب خلفي، أخرجتُ الكتاب واختبأتُ تحت السرير. كان خالياً من الصور أو الرسوم، لا شيء سوى خطوط وخطوط من الكلمات. عندما قلّبتُ صفحاته لم أجد إلا بقعًا من الطباعة السوداء، يفصلها بعضها عن بعض حيز أبيض عرضي. تذكّرتُ "ناصر"، كيف حاول مرة أن يعلّمني الطباعة على الآلة الكاتبة. كنتُ بطيئًا، وكان نافد الصبر. في الصفحة الأولى من الكتاب وجدتُ كتابة بخطّ شخص ما، إهداء: «إلى صديقي ورفيقي الأبدي فرج بو سليمان الديواني، مع إخلاصي المطلق، رشيد.» الكتاب إذا هدية من أستاذ رشيد لبابا. لم يرقني أن أجد اسمي هناك. لماذا

لم يكتفِ بعبارة فرج الديواني فقط؟ فوق رأسي، كانت الحِشية ناتئة من خلال فجواتِ عارضات السرير الخشبية. خرجتُ من تحت السريرِ، رفعتُ الحشية وخبأتُ الكتاب تحتها. بهذه الطريقة، قلتُ لنفسي، ولا حتى ماما ستعثر عليه إذا جاءتْ لتبدّل الملاءات.

*

صعدتُ إلى السطح ونظرتُ من الأعلى إلى بيت أستاذ رشيد وخالة سلمى وكريم، كانت الستائر مسدلة والحديقة ساكنة ومقفرة. تذكرت كيف مرّت علينا أيام بدا فيها البيتان بيتًا واحدًا؛ أستاذ رشيد مع بابا في مكتبه، وماما مع خالة سلمى في مطبخها، وأنا وكريم في الشارع مطمئنان بصمت إلى فكرة أن والِدينا أخوان، ووالدتينا أختان.

خرجتُ إلى الشارعِ ووجدتُ "كريم" واقفًا وحده يلهو بتصويب خنجرِ إلى الأرض.

«أين كنتَ؟» بادرني قائلاً، فتملكني شعورٍ فوري بالذنب، لأنني ابتعدتُ عنه منذ أن أُخِذ أبوه. كنت واثقًا من أنه لاحظ ذلك.

كانت الشمس تسطع مشرقة فوقنا، بيد أن أسناني لم تكف عن الاصطكاك.

«أأنت بخير؟» سألني.

أومأتُ برأسي إيجابًا، ولكنني شعرتُ فجأة أن دموعي عليّ قاب قوسين مني. آلمني موضع ما في صدري كما لو أن شيئًا حادًا يخرز فيه. وتملّكني توق أزلي إلى شيء غير واضح المعالم، كأن فراغًا في روحي يعلن عن وجوده. غصصتُ بالدموع، وتهيأ لي أنه لو وضع كريم يده على كتفي

سأنفجر. وحينها سيعتبرني مغناجًا، بنتًا، لذا ضغطتُ على أسناني واكتفيتُ بالإيماء مرة ثانية.

«ما رأيكَ أن نلعب أرضي وأرضكَ؟» اقترح.

كانت هذه أول مرة يرغب فيها كريم في اللعب بعد أسبوع من اعتقال أبيه. وعلى الرغم من أنني لم أكن في مزاج مناسب للعب، أخذتُ منه الخنجر ورسمتُ دائرة كبيرة حولي على التراب. كنا في الظهيرة، وظلّي تحتي مباشرة. قسمت الدائرة إلى نصفين متساويين، أرضه وأرضي، ثم أعطيته مقبض الخنجر ليبدأ وهو لا يزال يتفحّص دائرتي المرسومة. ومع أن وجهه كان جدّيًا إلا أن علامات الرضا بانتْ عليه. وقفنا خارج الدائرة وبدأنا اللعب. كانت أرضي وأرضكَ لعبتنا المفضّلة، وغالبًا ما لعبتها أنا وكريم لأن جُلّ ما تحتاج إليه هو لاعبان ونصل جيد والتراب تحتنا.

كان كريم ماهرًا في معظم الألعاب، وليس ثمة ما هو أسهل من أن أخسر عندما ألاعبه؛ ليس فقط لأنه أكبر مني سنًا، بل لأنه ما أظهر قطّ استمتاعًا بالفوز. في الحقيقة، كثيرًا ما لاح على وجهه تعبير أسف كلما فاز. وبالرغم من أنني كنتُ أصغر بكثير من كريم، عاملني دائمًا ندًا له. حتى مع وجود إقرار دائم من طرفي بالسنوات الثلاث التي تفصل بيننا: سواء وأنا أسعى وراء نصيحته، أو أقف إلى صفه عندما يطرأ نزاع بينه وبين أي من الأولاد الآخرين.

جاءتْ رميته الأولى رديئة. سقط السكين على طرفه. أما أنا فجاءت رميتي موفقة، وترك النصل علامة واضحة على نصف كريم من الدائرة، مما عنى أن معظم أرضه أصبحت لي. هذا قرّر مسار الشوط الأول، وبقي الحظّ إلى جانبي في الشوطين التاليين. هزمتُ "كريم" ثلاث مرات متتاليات. شيء لم يحصل قطّ من قبل. وما سبق لي مطلقًا أن كنتُ على تلك

الدرجة من الثقة في رمي الخنجر، بل حتى قبل أن أفلته من يدي كنت متأكدًا من إجادة التصويب. خف الضغط الذي خنق حنجرتي وغدت الدموع آخر ما يراود ذهني.

انضمّ إلينا أسامة ومسعود وعلي.

«تركتَ طفلاً يهزمكَ؟» قال مسعود. وازداد الأمر سوءاً لما كرّر علي ما قاله أخوه.

«تركتَ طفلاً يهزمكَ!» ردّد.

ثم أغاظه أسامة أيضًا بقوله، «تستحق هذا لمصاحبتكَ لطفل.»

«لَستُ طفلاً.»

«بل أنت طفل،» قال كريم بنبرة حانقة جعلتْ خذلانه لي أشدّ قسوة. «رأيتُه منفعلاً فتركتُه يربح،» أردف موجهًا كلامه إليهم.

«كذّاب،» سَمعتُ نفسي أقول.

«مَنْ الذي تدعوه بالكذاب؟»

«أن تخسر في ثلاث جولات بالتسلسل أمر مخزٍ، لكن أن تكذب وتقول أنك تركتني أربح، فهذا ليس صحيحًا. ولا أستغرب ذلك منكَ،» قلتُ وأنا أشعر بزخم قوة مظلمة جامحة تعتمل في داخلي.

«وما الذي يُفترض أن يعنيه هذا؟»

«هيا كريم،» قلتُ وأنا أنظر إلى بقية الصبيان مفلتًا طيف ابتسامة.

«الكلّ يعرف عن أبيك.»

«ماذا عن أبي؟» سألني وهو يأخذ خطوة نحوي.

تأملتُ أصابعي وقلت، «الناس يتكلمون كما تعلم،» ولو أنه كان بإمكاني حينها أن أسحب تلك الكلمات لفعلت، لكنها خرجت مني، وأوقعتُ نفسي في مأزق.

«ها، وماذا يقولون؟» زمجر وهو يصرّ أسـنانه، عينـاه الشاخصتان بي تواجهـانني بثبـات، كـان مـن المـستحيل تجاهلهما.

«الكلّ يعرف أن أباك خـا...»

هجم كريم عليَّ، رماني ثقله أرضًا. لم يلكمني، لم نتدحرج علي التراب، بل استمرّ فقط يعصرني ويعصرني بذراعيـه. أتذكر أنني لحظتها فكّرت: ماذا لو أنني لـم أنـو أن أقـول «خائن» يا كريم، ماذا لو أنني نويت أن أقول أيّ كلمة أخرى تبدأ بهذين الحرفين؟ أكنتَ ستهاجم صديقك بـسبب لا شـيءٍ حينذاك؟ جذبه أسامة بعيدًا عني. رأيتُ وجه كريم مـصطبغًا بحمرة شديدة تكاد تنبئ أنه كان يبكي. وقبل دقائق قليلة فقـط كنتُ أنا من خشي أن تفلت دموعي أمامه. رفعنـي مـسعود ونفض لي ظهري بخبطات شعرتُ أنها أعنف مما ينبغي، ثـم خطر لي أن مثل هذه الصلابة ربما تعتبر ضرورية في بيتهم، مع أمه السمينة الواثقة من نفسها، وأبيـه الجبـار صـاحب العلاقات المهمة. ضبطتُ "كريم" وهو يقبض علـى الخنجـر بإحدى يديه. كان يمكن أن يطعنني بكلِّ بساطة، لا بدّ أنه مـا زال يحبني، وأننا ما زلنا صديقين، قلتُ لنفسي.

«إنه أصغرُ منك،» قال أسامة. «ولا تـستطيع التعـارك معه.» كانت هذه المرة الوحيدة التي شعرت فيها بالامتنان لقوة أسامة. «إذا أردت أن تهزمه، اهزمـه فـي لعبـة أرضـي وأرضكَ. إنها الطريقة الوحيدة.» أضاف كما لو أن ذلك شيء مفروغ منه.

وإذ شعرتُ بتردّد كريم، قلت، «أتحداكَ.»

«هيا.. هيا،» حثّه كل من مسعود وعلي.

«ليست لدي رغبة في اللعب،» قال بـصوت غـدا الآن منخفضًا ومرتعشًا.

«جبان،» هتفتُ.

حاول مهاجمتي ثانية، لكن أسامة الهائل ثبّته في مكانه.

«إذا كنتَ رجلاً حقاً،» قلتُ، «برهن على ذلك بلعب أرضي وأرضكَ.»

«نعم،» هتف مسعود. «ليس هناك طريقة أخرى.»

كرّرَ علي كلمات أخيه بجديّة جعلته يبدو سخيفًا.

رمق كريم الأخوين بنظرة هازئة. وحينذاك تذكرتُ ما قاله لي مرة عن مسعود وعلي: «قردان يقلّدان أمهما الثرثارة في كل شيء، حتى في طريقة هزهزتهما لعجزيهما السمينين عندما يمشيان.» استرجعت في ذهني كم ضحكنا يومها، وكيف أن ذلك التعليق لا يمت إلى شخصية كريم بصلة، كريم الذي نادرًا ما استهزأ بأحد، وكيف أشعرني ذلك أنني صاحب امتيازات على نحو ما. ولما نقلتُ كلماته لماما ضحكتْ وأعادتها أمام بابا الذي ابتسم ابتسامة عريضة وعيناه تلمعان سرورًا، مما جعلني أفتخر بذكاء صديقي وسرعة بديهته.

خطا خارج الدائرة المرسومة وصوّب الخنجر.

«وما أخبار المحبوبة؟» سَمعتُ نفسي أقول.

«أيّ محبوبة؟» سألني الأولاد.

«اسكت أيها الخنزير الصغير.»

«أخبِرنا، أخبِرنا، من هي؟»

«اسمها ليلى.»

«لَيست البنت التي في صفّه؟»

«ليست البنت الذكية التي تقعد دائمًا في المقدمة؟»

«إي، تلك هي،» قلتُ. «وهو لا يستطيعُ التوقّف عن الحلم فيها.»

ضحكوا كلهم، أما كريم فحملق فيَّ.

«كلما سمع أغنية من أغاني الحب حنّ إليها. هو

أخبرني!» قلتُ وأنا أشير إليه.

صفع أسامة ومسعود أفخاذهم، ثم خبطا ظهريهما. حاول علي تقليدهما. قذف كريم الخنجر بعنف إلى درجة أن نصلها دُفن كليًا في التراب. كانت رمية جيدة نظيفة.

«اسمع يا هذا، أنت ما عندكَ كلمة، أنت لست رجلاً لأنه ما عندكَ كلمة شرف.» خرجتْ الكلمات من شفتيه المتقززتين كأنها انفجارات صغيرة. وتهيأ لِي أنني رأيتُ دموعًا في عينيه. استدار وانصرف. تذكرته وهو يمشي على ذلك النحو صوب بيته ليصرخ ربما في وجه أمه أو يواسيها يوم اعتُقِل أبوه. وكما فعلنا في ذلك اليوم، راقبناه كلّنا بصمت.

ثمّ سمعتُ نفسي أقول خلفه: «بكّاء! بنت!» لكن حتى هذا لم يجعله يلتفت.

بعد أن اختفى داخل بيته، نظر الأولاد إليَّ. انتشلتُ خنجر كريم من التراب، محوتُ الدائرة بقدمي وقلت، «لا أدري مِمَّ هو منزعج إلى هذا الحدّ، إنها مجرد لعبة.»

لم يعلّق أي من أسامة أو مسعود أو علي. بيد أن وقت الغداء كان قد حان في جميع الأحوال، فذهبنا كلّنا إلى بيوتنا.

١٠

لم يحضر، في ذلك اليوم، رجال اللجنة الثورية الذين ترقّبهم كلّ من ماما وموسى، والذين أحرقتْ كتب بابا من أجلهم. تناولنا الغداء ونحن نتوقّعهم، أخلينا الطاولة ونحن نتوقّعهم، وذهبنا لنشرب الشاي في غرفة الجلوس ونحن نتوقّعهم. بقي موسى معنا. لم يتركنا ليقضي تلك الأشغال التي قال إنه يحتاج إلى قضائها. ذهبتُ إلى غرفتي وأغلقتُ الباب خلفي. قعدت عند كعب سريري وفكرتُ في ما حدث مع كريم. بدأتْ الأصوات في رأسي توبخني:

«أنت تدرك ماذا فعلت، أليس كذلك؟»

«تَعْرِفُه أم تحتاج إلى أن نخبرك؟»

«خنته.»

«ذاك ما فعلته: الخيانة.»

«ليس هناك كلمة أخرى تصفه.»

«لماذا يا سليمان؟ لماذا فعلت ذلك؟»

«أنت مخطئ فيما تحسب أنك عليه.»

«أنت مخلوق فظيع. لكنك تحسب نفسك صالحًا. ولطالما صدّقت هذا. الحقيقة يا سليمان هي أنك خائن.»

«خائن! خائن!»

«أتتذكر ماذا أردت أن تصبح، ماذا حلمت أن تصبح، أكنت متأكدًا من أنك ستصبح ما تريد أن تصبحه من أجل ماما وبابا، من أجل موسى؟»

«قبطان طائرة. مؤرخ فنّ مثل أستاذ رشيد. عازف بيانو

عظيم، بالرغم من كرهكَ للبيانو؛ تلبس سترة سوداء رسمية تنترها من الخلف قبل أن تأخذ مكانكَ لتعزف البيانو في واحدة من قاعات العالم الشهيرة، لمجرّد أن ترى وجوههم تبتسم في الصف الأول وعيونهم شاخصة إليك.»

«أو مثل تقبيلك يد بابا أمام أصدقائه، تخيّلت أن هذه الأمور أيضًا ستجعلِ صدرك يضجّ بالسعادة والفخر.»

«كَمْ مرّة تَخيّلتَ بريقَ الفخر في عيونهم!»

«لكنك كنت مخطئًا يا سليمان في ما حسبت أنك عليه.»

«كنت دائمًا سيئًا، تنتظر فقط تبلور معدنكَ الحقيقي.»

«أترى كم تشعر بالسوء الآن؟ إنها البداية فقط.»

«الأشياء في هذا العالم تستمر في النمو.»

«ما أنت عليه الآن هو ما ستكونه إلى الأبد.»

«معدن الإنسان مثل الجبل، لا أحد يستطيع تغييره.»

«الفرق الوحيد بينهما هو أن معدن الإنسان بخلاف الجبل يستمر في التضخم.»

«ها قد عثر الشيطان على مسكنٍ فيك.»

«وعندما يجد الشيطان مسكنًا يعجبه، لا يفارقه أبدًا.»

«مرتاحًا وناعمًا بالدفء ينام في جوفكَ.»

«وعندما يأتي يوم الحساب، عندما يُكشف المستور، سيظهر قلبكَ على حقيقته: أجوفَ وقاسيًا.»

«أجوف كحبّة كستناء متعفنة.»

«وستكون أعمالك كلها مفضوحة في عالم الأبدية.»

«ولن تشعر قطّ بلذة ذلك الوهج الدافئ الغامض يؤجج قلبك، ذلك الوهج الدافئ الذي يسمى الصلاح.»

«ألا تتذكره يدغدغ صدرك في كل مرة قبّلت يد بابا؟»

«أو عندما عهد إليك كريم بسرّ حبّه لليلى؟»

«لقد أحببت ذلك، ها؟»

«نعم. ''إنه في الثانية عشرة''، قلت لنفسكَ، ''وأنا في التاسعة فقط، لكنه مع ذلك *ائتمنني* على سِرِّه.''»
«وأنت خُنتَه.»
أحسستُ بباكورة الدموع تلسع عينيّ. تمنيتُ أن تنهمر.
«ولماذا خُنتَه؟ أيمكن أن تقول لماذا؟»
هَززتُ رأسي لأقول لا.
«الآن ما عاد بإمكانكَ أن تخبره أنك لم تقصد ذلك.»
هَززتُ رأسي ثانيةً.
«ولا يمكن أن تزعم أنه حادث عَرضي.»
«زلّة لسان.»
«لا،» سَمعتُ نفسي أقول، وسَمعتُ الارتعاش في صوتي.
«قصدتَ إيذاءه.»
«لا،» قُلتُ ثانيةً.
«بلى.»
«ثم إنك استمتعت بذلك، عليك أن تقرّ.»
أَومأتُ برأسي موافقًا.
«لكن "كريم" صديقكَ المقرّب.»
«صحيح،» هَمستُ وانهمرتْ دموعي.
«أوه، إن "كريم" بدون شكّ طيب القلب. ''يمكن للمرء أن يستشف طهر قلبه من وجهه.'' هذه كلماتك أنت يا خائن!»
«خائــــن!»
دَفنتُ وجهي بين يدي.

*

بعد فترة خرجتُ وغسلتُ وجهي. كان موسى قد رحل. رأيتُ ماما وهي توشك أن تأخذ قيلولتها، لأنها أسدلت الستائر،

وأضاءتْ مصباحِ السرير الجانبي. لم تلاحظني. ولما همّتْ بالالتفاتِ ابتعدت عن ناظريها. غمرني شعور بالإثارة. وفكرتُ أن هذه الإثارة هي ذاتها التي تعتري الشرطي أو اللصّ في تِلك الأفلام الأمريكية.

قصدتُ غرفة الجلوس لأتفرّج على التلفزيون. تربعتُ على الأرض على بعد سنتمترات قليلة من الشاشة. طالعني رجل يجلس على كرسي في غرفة ما. رفعتُ الصوت قليلا. كان النصف الأعلى من جدار الغرفة وراءه بلون الرمل، ونصفه الأسفل أخضر، تعلوه التشققات في عدة مواضع، كاشفة عن لون أبيض تحت الطلاء. بدا الرجل هزيلاً، ووجهه ملتفت إلى الجانب التفاتًا طفيفًا، ركبتاه متلاصقتان، كأنه تلميذ مدرسة في الحجز. يلبس قميصًا أبيض تحت سترة رمادية، وياقة قميصه التي لامستْ أذنيه دلّت على أن ثيابه كبيرة جدًا عليه. كان خدّاه رماديين بسبب لحيته غير الحليقة. فجأة، تحركّتْ الكاميرا بسرعة كبيرة مثيرةٍ للدوار. صوّبت عدستها إلي وجهه. تحركّتْ شمالاً، يمينًا، ولما أصبح أخيرًا في بؤرتها ركزتْ عليهِ. حينها سُلّط عليه ضوء، فزمّ عينيه. كان أستاذ رشيد. لبثتُ أنتظر أن يتكلم. غمغم صوت آخر بشيء ما، رفعتُ صوت التلفزيون قليلاً. بدا أن أستاذ رشيد أيضًا لم يسمع ما قاله الصوت، أمال رأسه قليلاً على أحد الجانبين، ومن ورائه سقط على الجدار ظلّ رأس كبير أقرع. كررّ الصوتُ السؤال: «هل كنت حاضرًا في الاجتماع؟» أومأ أستاذ رشيد برأسه وقال، «نعم، كنتُ حاضرًا.» لكن كلمة حاضرًا لم تسمع إلا بصعوبة، فطُلب منه تكرار الجواب. «كنتُ حاضرًا، حاضرًا،» ردّد. «من كان هناك أيضًا؟» نظر أستاذ رشيد مرة أخرى إلى الرأس الأقرع. «سنقرأ قائمة،،» قال الصوت بتأنٍ، «وستجيب بنعم أو لا.» سمعتُ وقع تقليب أوراق قبل أن ينطقَ

الصوت بالأسماء. تردّد أستاذ رشيد، نظر إلى الظلّ، دنا الظلّ منه، وغدا رأسه على الجدار أكبر. تجمّعتْ الدموع في عينـي أستاذ رشيد، بدا ظمآن، طلعتْ عقدة حنجرته ونزلتْ، ثم أومـأ برأسه موافقًا. توالتْ قراءة الأسماء، واستمرّ أستاذ رشيد يومئ برأسه موافقًا، حتى قبل أن تكتمل قراءة الاسم بالكامل أحيانـا. ثمّ سَمعتُ اسم بابا: «فرج الديواني؟» استغربتُ سماع اسم بابا في التلفزيون. تردّد أستاذ رشيد قليلاً. نظر إلى أحد الجـانبين، حفتْ لحيته بياقة قميصه وصدر عنها صوت غريـب. أعـاد الصوت قراءة الاسم، في هذه المرة أضاف لقب «بو سليمان» إلى اسم بابا، ومن جديد شـعرتُ بـالتورّط، مثلمـا شـعرتُ بالتورّط وأنا أقرأ هذا في الكتاب الذي أهداه أستاذ رشيد لبابـا مع إخلاصه المطلق، وكأنني استدُرجتُ باسمي نحـو شـيء أجهله تمامًا. أخيرًا تكلّم أستاذ رشيد. قال «لا».

ركضتُ إلى ماما، وجدتها مستغرقة في النـوم. جثمـتُ قريبًا من سريرها. «قومي، اسم بابا في التلفزيون،» همستُ. كان خدّها متكئًا على يدها وشفتاها منفرجتان، ونفسها يـصعد ويهبط بنوبات عميقة. كانتْ مضمخة بالكثير من العطر إلـى درجة أنني شعرتُ بحاجة ملحة إلى صفع الهواء المجاور لها.

رجعتُ إلى التلفزيون. كانت الشاشة تعرض صورة ثابتة لأزهار وردية؛ الصورة التي تعني أن البـثّ قُطـع مؤقتـا. سمعتُ مرة أن القائد لديه مفتاح تحويل في غرفـة جلوسـه، قرب جهاز التلفزيون، حتى، كلما شاهد شيئًا لا يعجبه، نقـره فتتحوّل الصورة إلى مشهد الأزهار. قعـدتُ وراقبـتُ تلـك الأزهار على أمل أن يظهر أستاذ رشيد مـن جديـد. تـرى، أيشاهد كريم هذا؟ تساءلت. كان قد سبق لي وحضرتُ مثـل هذه الاستجوابات وهي تُعرض في التلفزيون. وذلك كي ترى الأمة «وجوه الخونة» لقد قال أستاذ رشيد «لا»، عندما ذكـر

اسم بابا. وأدركتُ أن هذا نقيض الخيانة.

عدتُ جريًا إلى ماما. وضعتُ أنفي قرب شفتيها المنفرجتين، وأنا على يقين من أنها جرعت القليل من دوائها قبل النوم، ربما بعد أن رأيتُها تسدل الستائر وتضيء المصباح الجانبي، وربما قبل ذلك، وربما فعلتْ هذا وموسى لا يزال عندنا. ومن يدري لعله هو أيضًا أُرغِم على القسم بحياتها في ألا يخبر أحدًا! أحسستُ بالغضب يلسع وجهي. كانت قنينة دوائها قربها؛ بحجم قنينة الماء وليس من كتابة عليها، وللسائل الذي فيها لون الماء. كانت قد تركتها مفتوحة على طاولة السرير الجانبية. بدون تفكير حملتُها إلى المطبخ وبدأتُ أسكب محتواها في بالوعة الحوض. تريثتُ قليلاً لأتخيّل ما قد تفعله عندما تكتشف الأمر. نعم، قلتُ لنفسي، يمكنها دائمًا أن تقصد مجدي الخباز وتبتاع أخرى. حينها أفرغتها كلّها.

هنا، رنّ جرس الباب. وأيًا من كان ذلك الطارق لم يرفع إصبعه عن الجرس. لكن الرنين المتواصل لم يوقظ ماما؛ لم يجعلها تهرع إلى الباب وهي تقول، «حاضر، حاضر.» حينما وصلتُ إلى منتصف الرواق سمعتُ نفسي أقول، «ارفع إصبعك عن الجرس.» وكم دهشتُ لما نُفِّذَ طلبي فورًا. استرقتُ النظر من خلال العين السحرية ورأيتُ بهلول الشحاذ. كان رأسه، بكلِّ شعره الطويل المتشابك ولحيته يجاهد ليسمع حسّي. لما فتحت الباب تردّد، بدا كما لو أنه قرّر أن ينصرف.

«لم تعطوني أيّ صدقة مؤخرًا،» قال.

«ليس الآن بهلول، ماما نائمة وبابا في رحلة عمل. اذهب من هنا.»

«أنت جاحد. ولا تزرع شيئًا للآخرة. الكلمة الطيبة بزرة تصبح في الحياة الأخرى شجرة.»

أعجزني القول، واجتاحني إعياء غامض.

«أطعمني،» قال.

تركته يدخل. لم يكن بهلول قد دخل بيتنا من قبل قطّ. وما كاد يصبح بمنأى عن نور الشمس في رواقنا، شممتُ رائحته ورأيتُ وساخة جلابيته، وكيف بانت قدماه الحافيتان سوداوين على السجادة. بل حتى أظفار قدميه بدت مثل مناقير الطيور أو كأشياءٍ مصنوعة من الخشب. «لا،» قلتُ ودفعتُه خارج البيت. فوجئتُ من سهولة التخلّص منه، ومن طواعيته واستعداده لتلبية رغبتي. وإذ شعرتُ بالذنب قلتُ مدّعيًا أن هذه هي خطتي منذ البداية، «دُر حول البيتِ. سأُدخلكَ من باب المطبخ.» عندما لم أجد منه استجابة أردفتُ، «هكذا أفضل،» ثم أغلقتُ الباب في وجهه.

كان بهلول، إذا رفضتْ إحدى العائلات التصدّق عليه بالمال، يذكرها بالسوء، ويقول إنها «لئيمة وجشعة وقصيرة النظر تظنّ أن الجنة في متناولها» وأشياء أخرى كهذه. وكان قد أخبر الجميع أنه يدّخر المال ليشتري قارب صيد صغير، بيد أنه بعد أن اشترى القارب لم يكف عن التسول. حينها قالت أم مسعود، «طبعًا التسول أسهل بكثير من العمل. القارب مجرّد عذر، والآن بعد أن حصل عليه – دفع ثمنه من أموالنا – سيجد سببًا آخر للتسول، ذاك الصرصار الكسول.»

لم أكد أصل إلى المطبخ حتى وجدته يقف عند الباب؛ أنفه على الزجاج، وغشاوة بخار أنفاسه تتجمّع تحته. لا بدّ أنه ركض مسرورًا بما أبديته من رفق. فجأة شعرتُ بالعطفِ عليه. أدخلته. أخرجتُ بعض الخبز والجبن والعسل، وصببتُ له معها قدح حليب. فأخذ يأكل ببطء، ثم قال فجأة:

«ثمة رائحة غريبة هنا.»

حكّني جلدي. تذكّرتُ وعدي لماما بأن لا أدع أحدًا يدخل البيت وهي مريضة. ردّدت بيني وبين نفسي الدعاء الذي

سمعتُ موسى يردّده من قبل، «يا غفّار، اغفر لنا ذنوبنا.» ردّدته مرة تلو مرة.

رأى بهلول شفتيّ تلهجان. زمّ عينًا، أشار بإصبعه نحوي وهذر، «شايفكم، شايفكم،» ثم استرق النظر حوله بارتياب. «لم تسمحوا للشيطان بالدخول، ها؟ عندما يدخل الشيطان بيتًا يلتصق بكلّ شيء فيه.»

«هيا بهلول هيا استعجل،» قلتُ.

«أعطني بعض المال.»

«ليس معي مال يا بهلول.»

«ما دمتَ لا تساعدني فكيف سأصبح صيادًا؟»

«لكنكَ حصلت على قاربكَ.»

«يا لك من قصير النظر. ألا تعرف أنه عليك أن تعمل لآخرتك كما تعمل ليومك. قوارب الصيد باهظة الثمن. أم تراك صدّقت إشاعات أمّ مسعود؟ إنها أكاذيب، أو بالأحرى تنطوي على شيء ما صحيح. فكلّ الأكاذيب تتضمّن حقيقة ما، لكن والحمد لله ما من كِذبة تتضمّن حقيقة كاملة. ليس بطريقة فعلية. نعم، حصلتُ على القارب، هذا صحيح، لكنني أقسم بقبر النبي أنه لم يمسّ الماء إلى الآن. إنه يسبح على رمل الشاطئ وأنا أنام فيه. لا أمتلك نقودًا لأشتري شِباك صيد، وأنا أحتاج إلى الشِباك للصيد.» عبّ جرعة من الحليب، وغدتْ حواف شاربيه بيضاء. «الصيد ليس بالعمل السهل.» وقعتْ عيناه على قنينة الدواء التي أفرغتها للتو. ونحوها حلّق، حلّق ببطء، شمّها، ثم حدّق فيَّ. قبضتُ على يده ورجوته: «أرجوكَ، أرجوكَ لا تخبر أحدًا. عِدني بحياتك أنك لن تخبر مطلق مخلوق أبدًا.» نظر إلي وكأنني سأعضّه. يده السمراء المكسوة برقائق الوسخ، الخشنة كلحاء الشجر، بدأتْ ترتعش. اعتصرتها بقوة وقلت، «عِدني.»

«نجِّنا من الشيطان يا الله!» صرخ فجأة وعيناه صوب السقف. فتراجعتُ إلى الوراء. «يا اللـه!» زعق كفرس واندفع خارجًا إلى الحديقة. «نجِّني من الشيطان يا الله، أبعده عني!»

ركضتُ في إثره. جرى حول البيت عدة مرات، كحيوان وقع في فخّ. طاردته. في أحد أشواطه انتبه إلى بوابة الحديقة وكأنه يراها للمرة الأولى، ففكّر في التراجع نحوها، لكنه لما لاحظ كم أنا قريب منه، عوى وتجاوزها. انتفختْ جلابيته بالهواء كمنطاد على ظهره. تهالكتُ أرضًا منقطع النفس. ولما ظهر ثانية ورأى أنني الآن أجلس أمامه، عوى مجددًا، استدار واندفع في الاتجاه المعاكس. قبضتُ على حفنة من الحجارة وقذفتها عليه. إحداها اخترقت منطاد جلابيته وأصابته في ظهره بضربة قوية موفقة. زعق كفرس أو قرد في الغابة. أحاط رأسه بيديه، تحدّب، قفز بضع مرات. وجدتُ المزيد من الحجارة ورشقته بها. وكلما أخطأته تفاقم غيظي. استرشد بهلول إلى طريق البوابة أخيرًا وهرب وهو يزعق ويجري على طول شارع التوت.

لم يسبق لي قطّ أن أفزعتُ أحدًا إلى هذه الدرجة. راقبته يجري، يبلغ نهاية الشارع ويستدير يمينا نحو البحر، نحو بيته، قارب الصيد المستقرّ على الرمل. فجأةً اعتراني خوف مما قد يفعله عندما نلتقي في مرة قادمة. وقلتُ لنفسي ربما حينها سيدرك أن لا شيء حقًا يستدعي الخوف، فأنا مجرّد صبي وهو رجل.

قبعتُ على الرصيفِ لفترة، وأخذت أرسم خطوطًا في الرمل بإصبعي. من المؤكّد أن بهلول لن يتفوّه بكلمة، قلت لنفسي، فخوفه أعظم من أن يتكلم. ولما لاحظتُ كم أصبح رأسي ساخنا عدتُ إلى البيت.

١١

شيء ما في داخلي اعتراه الخزي من تصرّفي مع بهلول. كانت تلك أول مرة أسمع فيها رجلاً بالغًا يصرخ على ذلك النحو، وكم سرّني أن لا أحد غيري سمعه.

ذهبتُ أتفقّد ماما. لم أجدها في سريرها، لكن غرفتها المعتمة فاحت برائحة النوم.

«أنا هنا،» سمعتُها تقول من غرفة الجلوس. «أين كنتَ؟» بادرتني بالسؤال وهي تواجه التلفزيون بالرغم من أنه كان ما زال يعرض صورة الأزهار الوردية. نبرتها، وطريقة قعدتها المتصلبة الجامدة وتّرتاني في الحال. كان ذلك مزاجًا يهيمن عليها أحيانًا، مزاجًا ليس بالغريب عليَّ، جعلها دائمًا ميالة إلى إثارة النزاع. «لماذا أفرغت القنينة في الحوض؟»

«لم أعرف ما فيها،» كذبت. «ظننتكِ تريدين مني أن أنظّف القنينة.»

تَنهّدتْ وأشعلتْ سيجارة، ثم ألقتْ القداحة على الطاولة الصغيرة.

«أرى أنكَ بغير حاجة إليَّ، فأنت قادر تمامًا على إطعام نفسكَ وحدك.»

حسبتُ أن طعام بهلول المتبقي على طاولة المطبخ طعامي. يا للفكرة المريحة، قلتُ لنفسي. وقفتُ في مكاني لبضع ثوان أفكّر في ما يمكنني عمله لتسترخي، وأنا أتأمّلها جالسة بظهرها المشدود وركبتيها المتلاصقتيْن وسيجارتها التي تحترق بين أصابعها على مقربة من وجهها. بقيتْ عيناها

مثبتتين على الأزهارِ الوردية. ترى متى سيشّغل القائد زرّ البثّ ثانيةً؟ تساءلت. تخيلته بمنامته يشرب الشاي، ثم يذهب ليجلب شيئًا، أو ربما ليتبول وفي طريقه ينقر المفتاح الذي يتحكّم بالإرسال. كيف سيظهر لنا أستاذ رشيد الآن، تساءلت من جديد. جالسًا على كرسي، أم مقيّدًا على الأرض، ممتقع الوجنتين وقطرة دم بطولية تسيل من إحدى زاويتي فمه؟ خطر لي أن أخبرها عنه، كيف كان يجلس، جامدًا كجمودها الآن، وهو يواجه الكاميرا، ويزمّ عينيه بسبب ضوئها القوي. وكيف أن القائمة لما وصلتْ إلى اسم بابا لم يستسلم للرجل الجسيم ذي الرأس الأقرع وقال «لا». أي أوتارٍ بطولية عزفتها تلك الكلمة حتى ملأتْ أنغامها أذنيّ! لقد ذكّرتني بفيلم يحكي قصة حياة مجموعة من العبيد الأفارقة في أمريكا. ففي لحظة ما طرح العبيد أدواتهم أرضًا، وقفوا بصمت، وبتؤدة مثل طبل يُقرع ليعلن عن حدث مخيف، صفّقوا معًا وبتساوق؛ عبيد يصفّقون لأسيادهم البيض. يومها لم أجد في ذلك أيّ مغزى، لكنني عندما نظرت خلفي رأيت بابا يراقب المشهد بعينين مفعمتين بالإعجاب. شيء ما في «لا» أستاذ رشيد ذكّرني بذلك الترحيب الحماسي المهيب الذي منحه العبيد لأسيادهم. ولا ريب أنه بمجرّد أنْ ظهرت تلك الأزهار تعرّض أستاذ رشيد للضرب. كنتُ متأكّدا من أنه ساعتها كان «يُلقّن درسًا جيدًا»، و «ترك وجهه سليمًا»، كما يقول موسى عن الذين يُستجوبون أمام عدسة التلفزيون، لكن جسمه «خريطة من الكدمات». أدهشني عدم رنين الهاتف، في أوقات أخرى، كلما رأينا شخصًا نعرفه يخضع للاستجواب، كان عدة أشخاص يتصلونَ بنا ليقولوا: «هل شاهدتم كذا وكذا في التلفزيون؟» كنتُ واثقًا من أن أحدًا لم يشاهده لأنه بُثّ في فترة القيلولة، حيث يخلد العالم بأكمله إلى النوم فيما الشمس

في أوج توهجها. بل ربما حتى كريم وأمه لم يشاهداه. ومن المحتمل، قلتُ لنفسي، أن أكون الشخص الوحيد في هذه الدنيا الذي رآه. فجأة شعرتُ بالامتنان للأزهار الوردية، وتمنيتُها أن تبقى إلى أن ينتهي استجواب أستاذ رشيد.

«اتصِل بالمخبز،» طلبتْ مني. «وعندما يردّ عليك مجدي أعطني السماعة.»

أحيانًا عندما تمرض ماما أو يشغلها شيء تجعل مجدي يجلب لنا الخبز ودواءها أيضًا إذا كنا وحدنا. أملتْ عليَّ رقمه وطلبتُه. ولما أجاب مجدي قلتُ، «لحظة، تريد ماما التحدّث معك.» لم ينطق بكلمة. ودلّ صمته على أنه يعرف، كما لو أنه كان يتوقّع المخابرة. تخيّلتُ وجهه الصارم، ويده تغوص تحت المنصّة العريضة المعفرة بالطحين، وهو يتلفتُ حوله قبل أن يُخرج القنينة الملفوفة بكيس بلاستيكي أسود.

«مساء الخير، أحتاج إلى رغيفين،» قالت ماما على الرغم من أن لدينا الكثير من الخبز في المطبخ. عرفتُ ذلك عندما قدّمتُ الطعام لبهلول. «آ، نعم، وقنينة.» أردفتْ ووجنتاها تتضرّجان. «لا، لا، واحدة تكفي،» تابعتْ بنبرة شكلية مصطنعة.

عندما وصل مجدي أجلستَه في الصالون، لأنه من قلّة التهذيب أن يأخذ المرء منه ما حمله ثم يترك الأمر عند هذا الحدّ. لم يظهر عليه الارتياح لوجوده هناك. كان جينزه الأزرق مغبّرًا بالطحين الذي تغلغل أيضًا في شعره وجعله رماديًا. أتذكّر أنني حينذاك تطلّعتُ بلهفة إلى اليوم الذي سيشيب فيه شعري، مع أنني كنتُ أعرف أن شعره ليس أشيب حقًا، لأنه عندما يستحم، ويزول عنه الطحين يعود أسود وعاديًا. كانت يداه تمسكان بمسندي الأريكة بطريقة جعلتني أسترجع ما قاله بهلول: «عندما يدخل الشيطان يلتصق بكل شيء.»

لم تمضِ دقيقة إلا ونهض قائلاً إن عليه الذهاب. دفعتْ له ماما الحساب ورافقته إلى الباب. ثم قصدتْ المطبخ، حيث انتصبتْ زجاجتها بهيئتها السوداء على الطاولة. ألقتْ عليَّ نظرة بَرِمة عاجلة. وقعدنا يلفنا صمت غير مرِيح. بدأتُ أنقر رجل الطاولة بقدمي. «توقّف،» قالت. أحسستُ بالإرباك نفسه الذي يصيبني عندما أضطر إلى مجالسةِ ضيف في الصالون بينما تعدّ الشاي. أشعلتْ سيجارة. تركتُها ومضيتُ إلى غرفتي.

كمنتُ في سريري متقوقعًا على نفسي تحت الملاءة. كنتُ دائمًا أستهجن اللجوءِ إلى السرير في منتصف النهار، لكنني ساعتها وجدته مقبولاً على نحو ما. من الخارج جاءني حسّها وهي تذهب إلى غرفتها، وصوت سائل يُصبّ في قدح، وقعقعة الثلج المعتادة. تذكّرتُ السيجارة التي كانت تحترق في يدها. لم تكن ماما تدخّن إلا وهي مريضة، وعندئذ لا تسمح لسيجارة أن تنتهي قبل أن تشعل التالية. أحيانًا قد تسهو وتشعل اثنتين معًا في الوقت نفسه، واحدة في المنفضة، والأخرى بين أصابعها. وأكثرِ ما كان يقلقني في تلك الفترات أن يغلب عليها النوم وهي تدخن. لذلك درجتُ على أن أقوم عدة مرات في الليل لأتأكد من أن جميع أعقاب السجائر في منفضة غرفة نومها مطفأة، بدون أن أغفل البحث تحت السرير لئلا تكون إحداها قد وقعتْ هناك. كان هذا أحد الأسباب التي تمنعني من تركها وحيدة في أثناء مرضها. سمعتُها تتحرك في أرجاء البيت، وأدركت أنها ضجرة؛ لأنها غالبًا ما تفعل هذا في الأيام الجوفاء التي يتركنا بابا خلالها؛ تتجول في البيت بدون هدف. وفي تلك الأوقات لم تكن لتغني لنفسها مطلقًا بطريقتها الرقيقة الحالمة المعتادة وهي تستحم أو تكتحل أمام المرآة أو ترسم في الحديقة. ذلك الغناء الذي يستحضر فيها دائمًا صبية غافلة عن

نفسها، تمشي إلى البيت من المدرسة، تمرّر أصـابعها علـى الحيطان: قبل لحظة من المقهى الإيطالي، لحظة مستظلّة بنقاء البراءة قبل انقضاض السلطة النزقة، التي بدون منحها فرصة للنقاش أو لقول «لا» دفعتها من الحافة إلى هاويةِ الأنوثة، ثـمّ وعلى نحو غير قابل للنقض إلى الأمومة. رغبتُ كثيرًا في أن أجعلها سعيدة، سعيدة بالقدر الذي تبدو عليه في أثناء وجـود بابا في البيت. لولا أن ما كان يعتريها آنذاك ليس بالـسعادة، إنما شيء أقرب إلى الثقة: تتحرّك بمزيد من الحيوية، وينبـئ مظهرها عن إيمانها بنفسِها. أتراني سأتمكّن يومًا من أن أثير فيها هذه الأشياء؟ تساءلتُ من تحت الملاءة.

*

تلاشيتُ في غياهب النوم واستيقظتُ والأمور ملتبسة علـيَّ لا أدري في أي وقت نحن. كانت السماء مظلمةً والدنيا سـاكنة. مع ذلك شعرت براحة مبهجة لأنني أخـذتُ قيلولـة للمـرةِ الأولى. لا ريبَ أنني بدأت أصبح رجلاً، قلتُ لنفسي. لاحظتُ وجود رائحة منفّرة في البيت، لكن تيارَ النوم كـان طاغيًـا، وسرعان ما جرفني ثانية فعدتُ واندفعتُ إلى أحضان حتميته السحرية الدافئة.

بعدَ بضع ساعات استيقظتُ مجـددًا أصـارع المـوت، أحسستُ بخيولٍ تعدو من خياشيمي إلى حلقومي. قفزتُ مـن السرير وفتحتُ النافذة، فعلتُ هذا في كلّ غرفة مـن غـرف البيت، فتحتُ النوافذ والأبواب بدون أن أعرف لماذا. كانت قد نسيتْ الغاز مفتوحًا في المطبخ.

لما نهضتْ في الصباح التالي لم تستوعب سـبب حنقـي الشديد. واستمرت تقول وتكرّر، «ما هذه الرائحة يا سـلومة،

هل تركتِ الغاز مفتوحًا في المطبخ يا حبيبي؟»

صفقتُ باب غرفتي وأقفلتُه على نفسي. من طريقة كلامها من وراء الباب تهيأ لي أن امرأة أخرى بالفعل هي من ترك الغاز مفتوحًا ليقتلنا.

«ما سبب غضبكَ مني؟ كيف لي أن أعرف أنكَ بخير إذا لم تتكلم؟»

أوشك فمي أن يتلفّظ بشيءٍ ما، لكنني كممته بيدي.

«كيفِ أعرف أنكَ لستَ ميتًا؟»

سددتُ أذنيّ وأغمضتُ عينيّ.

«طيب،» جاءتْ لتقولِ في فترة متأخرة من الصباح. «اخرج لتأكل على الأقل. إنه وقت الغداء تقريبًا، وأنت لم تتناول شيئًا ولا حتى الفطور.» ولما انصرفتْ سمعتها تقول لنفسها، «يا له من ولد غريب.» بعد فترة عادت لتسألني، «ماذا لو رجع أبوك إلى البيت الآن، ماذا سيقول عنا؟»

مع حلول الظهر دسّتْ وريقة من تحت بابي، تقول الوريقة:

آمل أن يشرفني ابني المحبوب بزيارته، وسأرسل له وزيري ليعمل الترتيبات اللازمة للرحلة. رغبتي الوحيدة أن أراكَ قبل أن أموت. وإذا رفضت طلبي، لن أنجو من الصدمة.

والسلام عليكم!

لم أجد ذلك مضحكًا. فقد ميزتُ تلك الكلمات. وعرفتُ أنها ليست كلماتها، بل من خطابٍ أرسله الملك شهريار إلى أخيه الملك شاه زمان عندما اعتلّ قلبه من الحزن وظنّ أنه سيموت. ما فعلَته هو أنها استبدلتْ كلمة أخ بِكلمة ابن. طويتُ الوريقة ودفعتُها مجددًا من تحت الباب. سمعتُها تلتقطها بعد ثوانٍ.

لم يأتِ العصر إلا وكانت السكاكين تطعن معدتي، والرغبة في التبول تكاد تقتلني. خرجتُ من غرفتي إلى الحمّام مباشرةٍ وأقفلتُ الباب ورائي. لم أسمع لها حسًا في الخارج. ذهبت بعدئذ إلى المطبخ، صببت لنفسي كوبًا كبيرًا من الحليب، اختطفتُ رغيف خبز وعدتُ فورًا إلى غرفتي، بيد أنني تركتُ بابي منفرجًا. كانت الساعة تتجاوز الرابعة، ووقت القيلولة انتهى. فأين هي؟

خرجتُ إلى الشارع لعلي أرى أحدًا من الصبيان. وجدتهم كلهم متحلّقين حول عدنان، الصبي الوحيد الذي لم يحضر نزاعي مع كريم. ولو كان موجودًا لربما تصرفت بطريقة مختلفة. كنتُ متأكدًا من أن أسامة ومسعود وعلي يروون له القصة من وجهة نظرهم. رأيتُ "كريم" واقفًا يتكئ على سيارة. لما لمحوني توقفوا عن الكلام. حيّاني علي فنظر إليه مسعود شزرًا. أدركتُ أنهم اتفقوا على تجاهلي. ثم سمعتُ مسعود يقول لهم، «دعونا نذهب ونرى المدرسة.» علمًا بأنه لم يكن يومًا دراسيًا لأننا في الصيف. وكم دهشتُ لما لحقه الجميع. راقبتهم يبتعدون، أسامة يلفّ "كريم" بذراعه ويتحدّث معه وهم يمشون. وعدنان يسير بجانبهم ويستمع إلى أسامة. عندما وصلوا نهاية الشارع والتفوا بعيدًا عن مرمى بصري مضيتُ في إثرهم. سرتُ متمهلاً، وأنا أركل الحصى في طريقي وقبضتاي تلحفان في التوغل داخل جيبي بنطالي القصير، استدرت متتبعًا خطاهم حتى رأيتهم من جديد. بدت هياكلهم في المدى متقاربة بعضها من بعض.

عندما وصلوا إلى باب المدرسة توقّفوا. وقبل أن ألحق بهم مباشرة صاح كريم، «آخر من يصل إلى التوت، بنت.» وكقطيع أقبلوا يعدون في اتجاهي، عندما دنوا مني كثيرًا فكرت في التنحي عن طريقهم، لكنني شككتُ في أنهم يحاولون

تخويفي، فلم أتزحزح. أغمضتُ عينيّ ووقفتُ بلا حراك، جاعلاً نفسي نحيلاً قدر الإمكان، وأذناي تترقّبان لهاثهم، والريح الناجمة عن سرعتهم تكاد تلامسني. ثم سمعت "كريم" يصيح ثانية، «آخر من يصل إلى التوت، بنت.» وأدركت أنه يعنيني.

بقي عدنان الذي أوهنه المرض عند باب المدرسة. كان بعمر كريم لكنه لا يستطيع أن يجهد نفسه كثيرًا، ومن غير المسموح له أكل الحلويات، وإذا جرح جسمه يتعرّض لخطر فقدان دمه كله. ثم إن عليه أن يأخذ حقنة مرتين يوميًا، وقد اعتاد أن يحقن نفسه بنفسه. مرة أقنعناه أن يرينا كيف يفعل ذلك. «إذا ضحكتم سأصفعكم فردًا فردًا،» حذّرنا قبل أن يقودنا إلى غرفة نومه. لم يكن أحد منا قد دخل بيته قبل ذلك، واكتشفنا أنه يمتلك كتبًا عن مرضه تشغل رفًا بحاله، ولديه قاموس ضخم مفتوح على منضدته وفي ثنيته قلم رصاص أصفر مبري جيدًا. ولم يعترني أدنى شكّ في أنه كان أكبر كتاب رأيته في حياتي. على طاولة سريره الجانبية اصطفت زجاجات دواء صغيرة بُنيّة اللون، وعلى ملصق كلّ واحدة منها كُتب بخطّ اليد اسمه الكامل؛ عدنان الملحي. كانت غرفته نظيفة جدًا، وسريره شديد الصلابة إلى درجة أنني تساءلت ما إذا كان مريحًا. أما درج منضدته فاحتوى على صندوق كامل من الحقن وصندوق آخر فيه قطع إسفنج صفراء صغيرة محفوظة داخل أغلفة بلاستيكية. «هذه لتطهير الجلد،» قال موضحًا.

«لماذا؟» سأله علي يومها.

«ماذا تعني بلماذا؟» قال عدنان بنبرة لاذعة. «حتى لا تدخل الجراثيم إلى جسمي طبعًا.»

تحلّقنا حوله. أنزل بنطاله، فرك جلده بقطعة الإسفنج، ثم

وبدون مقدمات أدخل الإبرة الطويلة في ردفه. لم يقل أيّ منا كلمة. ولما سحبها ضغط موضع الإبرة بالإسفنجة الصفراء الصغيرة. كان ردفه منقّطا ببقع بُنيّة اللون. بعد ذلك اليوم ما أردنا قطّ أنِ نراه يحقن نفسه.

حسدت عدنان بيني وبين نفسي؛ فمرضه أكسبه نوعًا غريبًا من القوة ومنحه شيئًا لا يمتلكه أيّ منا: عالم خاص يتضمّن الكتب والحقن. كانت غرفته تشبه بيتًا صغيرًا مع أشياء تعود إليه فقط. وبالرغم من أن كدماتِ ردفه جعلتني أحمدُ البارئ على صحتي السليمة، دعوتُ الله في الوقت نفسه أن يصيبني بمرض يمنحني ما لدى عدنان؛ ذلك الشيء المميز الذي جعله يبدو أكبر سنًا وأكثر استقلالاً من الجميع، وجعلنا كلّنا ننشد رضاه، رضا الشخص الوحيد بيننا الذي مع حياتهِ وتاريخه المرضي، رأينا أنه لا يحتاج أحدًا. لِهذا السبب قلتُ إنه لو كان موجودًا في اليوم السابق، لما خنتُ "كريم" على الأرجح، لأن عدنان امتلك ذلك النوع من التأثير علينا. فحقيقة أنه أقرب إلى الموت أنضجته وأكسبته سلطة معنوية عُليا. ومثل بطلتي شهرزاد، هو أيضا عاش تحت سيف مسلط. ولذلك فإن التحدي - «آخر من يصل إلى التوت، بنت» - لم يلمزه.

وضع عدنان ذراعه على كتفي. أما أنا فواصلتُ التحديق إلى باحة المدرسة الفارغة، حيث عَلَمُنا الأخضر الداكن متهدّل على السارية العالية. تذكرتُ كيف اعتدنا أن نقف كلّ صباح في طوابير متوازية تحت شمس الشتاء الواهنة، وحقائبنا المدرسية الثقيلة على ظهورنا، نردّد النشيد الوطني أمام العلم المتكاسل، متنافسين مع الموسيقى العجول الصادحة من مكبرات الصوت الرمادية المخروطية، تلك المثبّتة في جميع زوايا الباحة في مواضع أعلى من أن نطولها حتى لو صعد

أحدنا على كتفِ الآخر. تـذكّرتُ كيـف أنّنـي فـي بعـض الصباحات كنتُ أقف متحفِّزًا، مشدود القبضتين، مائل الظهر، والدموع تخز عينيّ، أردّد النشيد الوطني بصوت عـال جـدًا اضطرني دائمًا إلى أن أقضي بقية يومي أزدرِد الألم المتخلّف في حلقي. بينما في صباحات أخـرى وقفـت نـصف نـائم، واجتررتُ الكلمات باذلاً جهدي لأخفي تثاؤبي وراء النغمـات المتنافرة.

شدّني عدنان من كمِّي ومشينا معًا عائديْن إلى شارِعنا. لم يقل شيئًا، لكنني عرفتُ أنه يحاول التخفيف عني. تمكنا مـن لمح الأولاد متجمعين عند مدخل شارعنا، يلهثون. كان أسامة الذي يربح هذه السباقات دائمًا مستندًا على النصب الحجـري الذي كتب عليه اسم «شارع التوت». أما علي الذي كان آخر من يصل عادة فوقف بائسًا بجانب أخيه. ولا بـدّ أن الجميـع حينذاك خبطوه على رأسه ودعوه بنتًا. كانوا جميعهم ينظرون نحو نهاية الشارع إلى شيء لم أستطع أنا وعدنان تبيّنه. حينما وصلنا إليهم خبطتُ رأس علي بدوري ودعوته بالبنت. لم أكن أملك الحق لأفعل ذلك، لأنني لم أشترك في السباق. مع ذلك لم أشعر بالاكتفاء، فخبطتُ رأسه ثانية ودعوته بالبنـت ثـلاث مرات. حاول ضربي، لكن كان من السهل صدّه بيد واحـدة. جذبني عدنان جانبًا ودفعني بعيدًا بكتفه. وعندما أصبحنا بمنأى عن السمع قال، «هل أبوكَ في البيت؟» نادرًا ما طرح علـيّ عدنان سؤالاً، ولذلك لم أسـتطع الامتنـاع عـن الإحـساس بالإطراء.

«إنه في رحلة عمل،» أجبتُ.

نظر إلى الأمام وقال، محدِّثًا نفسه تقريبًا، «هذا من حسن حظّه،» ثم تابع المشي بخطواتٍ أكثر نشاطًا من المعتاد.

على مسافة أبعد منه رأيتُ السيارة البيضاء نفـسها التـي

أخذتْ أستاذ رشيد، وهذه المرة كانت تقف أمام بيتنا. «إنها السيارة نفسها...» سمعتُ أحد الصبيان يقول من ورائي. تساءلتُ بِمَ كان كريم يفكّر. توقّعتُ منه أن يسارع إلى جانبي، يمسك يدي ويقول، «تعادلنا الآن يا أخي.» تجاوز عدنان السيارة البيضاء وعيناه على الأرض، دفع باب حديقة بيته، وتركه يُغلق خلفه وحده. لم ألمح سوى رأس واحد في السيارة. نظرتُ إلى الوراء. اكتشفتُ أن الصبيان اختفوا كلهم ما عدا "كريم" الذي وقف بلا حِراك يراقبني. أردتُ أن أهرع إليه، لكنني بدلاً من ذلك مشيتُ قدمًا نحو السيارة. حاولتُ أن أفكّر بشهرزاد، بشجاعتها، لكنني مهما أجهدتُ نفسي في المحاولة، لم أكفّ عن سماع كلمات ماما ترنّ في أذني: «عليكَ أن تجد لنفسك نموذجًا آخر تحتذي به. فشهرزاد فضلتْ العبودية على الموت.» فكّرتُ بسندباد، إلا أنني ما أحببته قطّ لأنه كان لصًا. فكّرتُ بالعبيد وهم يصفقون بتساوق، لكنهم كانوا مجتمعين ومتحدين، وتصفيق شخص واحد لا يُجدي نفعًا. بل حتى هم، ألمْ يفضلوا العبودية على الموت؟ غدوتُ قريبًا من السيارة. لمحني الرجل من مرآته الجانبية، ولما أصبحتُ عند نافذته ورأيتُ وجهه تسمّرتُ. تذكّرتُه فورًا. إنه الرجل الذي له صوت عجوز؛ ذاك الذي وقف عند مدخل غرفة الجلوس وسدّ عليَّ المنافذ وحدجني وأنا أتربّع على الأرض قرب صينية الأكل، أهزّ رأسي وألوح بيدي قريبًا من صدري وكأنني أقول، «ليس أنا، والله ليس أنا.» الرجل الذي صفع أستاذ رشيد، الرجل الذي لحقنا أنا وماما من ميدان الشهداء. كانت حفر الجدري الصغيرة تغضّن وجهه، مثل علامات إزميل بالغة الصغر، عيناه الضيقتان باهتتا البياض، شفتاه داكنتان كما لو أنهما مصبوغتان بطلاء أزرق، لعل ذلك، قلتُ لنفسي، من أكل التوت أو شرب الدم، أما شعره

فمجعد خشن كأنه الخوذة على رأسه. ابتسم لي وقال:
«سليمـــــان!» قالها بصوت متكاسل، كما لو أن اسمي علكة في فمه. «ها قد اجتمعنا أخيرًا.»
لم أستطع التوقّف عن التحديق في عينيه، شعرتُ أن قـوة غريبة فيهما تجذبني. فكّرتُ بألسنة نيران جهنم وهـي تلعـق جانبي الجسر المؤدي إلى الجنة، وكيف ستبدو للضالين مثـل صوت مألوف، فيلتفتون إليها غصبًا عن إرادتهم، مثلما تلتفت مرغمًا عندما تسمع اسمكَ يُنادى، لأنـه، كمـا قـال الـشيخ مصطفى، «يدخل الخوف قلوب الذين لديهم ما يخافون منه.»
«من أنتَ؟» سألتُه.
وضع يده على صدره وقال، «اسمي شـريف. أنـا مـن أصدقاء أبيك.» شعرتُ فورًا أنه يكذب. «ألا تتذكّرني؟»
«فتشتَ بيتنا.»
«صحيح، أردتُ أن أسأله سؤالاً مهمًا،» أجاب ونظر إلى الأمام وابتسم لنفسه. ثم أردف وقد بدا عليه ما يشبه الخجـل تقريبًا، «أعتقد أنني كنتُ في عجلة من أمري.»
«يعني لم تنوِ أخذه كما فعلتَ بأستاذ رشيد؟»
«أستاذ مَن؟»
أشرتُ إلى بيت كريم. «رأيتكَ.»
«هها،» قال كما لو أنه لم يتذكّر ذلك إلا الآن، ثم ضحك. «لا، لا، لا، أبوك ليس مثله. إنه صديق عزيز عليَّ. تعارفنـا لسنوات، نحن أقرب إلى أخوين. في الحقيقة هو من أرسـلني لأراك. فقد سمعتُ الكثير عنك يا سلومة.»
أدركتُ أنه كان يكذب، لكن كيف عـرف لقبـي؟ تـذكّرتُ طريقة دفعه قنينة دواء ماما إلى معدتها. إنـه يعـرف سـرّنا، فكّرتُ. عرفه واختار السكوت. «هل أستاذ رشيد خائن؟» سألته.
«إي،» قال بدون تلكؤ.

«وبابا، هل...»

«لهذا أنا هنا. إنني أحاول الدفاع عنه، لكنني أحتاج إلى دليل.» كانت كلمة «دليل» أشبه بالإبر.

«أهذا ما أردت البحث عنه؟»

«تمامًا!»

بخلاف ماما وموسى أجاب عن أسئلتي، ولم يعاملني معاملة الأطفال.

«أين بابا؟» سألته.

«لا أستطيعُ أن أخبركَ،» قال وهو ينقّب في جيبه. «طلب مني أن أعطيكِ هذه،» ثم ناولني حبةٍ من نعناع بابا الإنجليزي الناري. تقدّمتُ منه خطوة، وتراجعتُ سريعًا لما رأيتُ على المقعد بجانبه ذلك المسدس الأسود الضخم.

«تعال، تعال،» هتف صوته الحادّ الجلف بهدوء. فعدتُ. تقدّمتُ منه أكثر. ناولني المسدس من مقبضه وقال، «خذ، المسه.» وفيما مددتُ يدي أردف، «الرجال لا يخافون أبدًا. وأنت رجل، أليس كذلك؟» كان معدن المسدس باردًا كأنه سمكة ميتة. عاد ووضعه على المقعد بجانبه وقال، «هيا، خذ النعناع، إنها من بابا.» كان رأسي قد أصبح في تلك اللحظة داخل السيارة، جعلتني رائحة الجوارب العتيقة والدخان أشعر بالدوار. ولطالما هزّني زخم الروائح النتنة باعتباره من علامات الرجولة، ولذلك اعتراني شيء من الإثارة في وجودي على هذه الدرجة من القرب منها. لعل الرجولة تقتضي الزخم، قلت لنفسي. كانت فتحة سترة السفاري التي يلبسها تكشف عن بداية صدره، ومنها بان جلده الأسمر المحمر من الشمس والمزجج بالعرق. وأيّ مِن شاهدنا في تلك الوضعية سيحسبنا بدون شكّ صديقين. أخذتُ حبة النعناع منه، ولما التفتُ كان كريم قد اختفى. أتراه، قلتُ لنفسي، غادر

مشمئزًا لما رأى كم غدوتُ مقرّبًا من الرجل الذي اعتقل أباه.

«تعرف أن ما تشربه أمكَ سيئ جدًا،» قال شريف وهو يرنو إليَّ بنصف ابتسامة وفي عينيه ما يشبه نظرة أسف. «قد يودي بها إلى السجن.»

استطاع أن يرى من تعبير وجهي أنني فهمتُ. وهممتُ أن أرجوه ألا يخبر أحدًا.

«سرّها آمِن معي.»

جعلني قوله هذا أشعر بامتنان كبير له إلى درجة أنني رغبتُ في تقبيل يده.

«في المقابل عليك أن تساعدني يا سليمان.»

«أيّ شيء، أيّ شيء.»

نظر أمامه وابتسم. «أحتاج إلى قائمة بأسماء أصدقاء بابا، أكبر عدد ممكن من الأسماء، ليشهدوا لمصلحته.»

تسارع ذهني ليتذكّر شيئًا. «ألا أستطيع أن أشهد له أنا؟»

ضحك. «لا.»

«لِمَ لا؟»

للحظة تهيأ لي أنه انزعج، بيد أنه عاد وابتسم. «نحتاج إلى رجال، إلى بالغين.» قال وامّحت ابتسامته. «هيا يا سلومة، لا بد أنك تعرف ولو اسمًا واحدًا على الأقل.»

أومأتُ برأسي، كما يفعل الناس عندما ينهمكون في تفتيش ذاكرتهم، ولكنهم يرغبون في الوقت نفسه أن يمنحوك تأكيدًا صامتًا في أنهم على وشك أن يصلوا إلى ذلك الشيء العالق على رؤوس ألسنتهم. في تلك اللحظة لو شاء سوء الحظّ لأي اسم أن أتذكّره لاستسلمتُ ونطقتُ به. فكّرتُ في الكتاب الذي تحت حشيتي. «لا أتذكّر أي اسم،» قلتُ أخيرًا.

«ماذا تعني بلا أتذكّر؟ هيا، حاول.» كان غاضبًا، ومن نفسه الحار فاحت رائحة الصدأ.

سرتْ فيَّ الرعدة. وعجبتُ من نفسي لأنني شعرتُ أنني على قاب قوسين من البكاء. «لدي كتاب،» سمعتُ نفسي أقول. «أنقذته من النار.»

فجأة سمعتُ اسمي. كانت ماما تناديني. رأيتُ وجهها الشاحب في ظلِّ بيتنا وهي تقف في المدخل. جريتُ إليها. وحالما أصبحتُ في البيت صفقتْ الباب، ثم جثتْ على ركبتيها وأمسكتْ يدي بعنف. «ماذا كنت تفعل مع ذلك الرجل؟ وإياك أن تكذب فقد رأيتكَ.» شدّدتْ قبضتها. ما رأيتها من قبل قطّ خائفة إلي هذه الدرجة. «ماذا أخبركَ؟ أهذه أول مرة؟» دفعتُها وركضت. عندما دفعتُها ندّتْ عنها شهقة، وقعُها جعلني أرى بالونًا أحمر صغيرًا ينبعث من أعماق بحر أزرق. ولما دخلت غرفتي استرجعتها في ذهني عدة مرات، وفي كل مرة وجعني قلبي. كم تمنيتُ لو أنها لحقتْ بي ساعتها. أردتُ أن أعتذر. أردتُ أن أريها ما أعطانيه الرجل، النعناع الإنجليزي الناري الذي يشتريه بابا في سفراته؛ ليس ثمة شكّ عندي في أن النعناع من بابا لأنه غير متوافر في بلادنا.

١٢

وجدتُها جالسة إلى الطاولة تدخّن. قعدتُ قبالتها. أردتها أن تقول شيئًا، أو حتى لو تكرّر، «لا تكذب، لقد رأيتكَ.» لكنها تجاهلتني. تأملتُ الحديقة من خلال بابِ المطبخ الزجاجي؛ أرضها المفروشة بالظلال المديدة، وفكّرتُ، يمكننا أن نصعد إلى السطح ونرى ما طرأ على البحر من تغير اليوم، أو يمكنني أن أضع لها طاولة الرسم في الحديقة حيث يروقها أن ترسمِ برتقالة، خوخة، أو ورقة شجر مِفتولة. ومع أنني ما صبرت يومًا على الجلوس لترسمني، كنتُ الآن راغبًا في المحاولة.

«لديه مسدس، وتركني ألمسه،» قلتُ، فشخصتْ إليَّ ببصرها. «هل تعرفين ماذا فعل أستاذ رشيد؟ أتظنين أنه خائن؟ أتعتقدينِ أن أمّ مسعود محقّة؟ أعرف أنها تثرثر كثيرًا، لكنني كنتُ أفكر في الأمر وأعتقد أنه صحيح: ليس هناك دخان بلا نار. ما رأيكِ؟ هل تحصلين على الدخان بدون وجود نار؟ قد يصبح لديكِ بخار، لكنْ هذا يختلف عن الدخان، صح؟» لم تفه بكلمة، بل اكتفتْ بالنظر إليَّ، ثم سحبتْ نفسًا سريعًا عصبيًا من سيجارتها، وارتعشتْ أصابعها قليلاً. طلع الدخان من منخريها. «قال إنه صِديق بابا. ثم إنه دعاني سلومة وأعطاني هذه.» وضعتُ نعناع بابا الإنجليزي اللاذع على الطاولة. هنا بدأ وجه ماما يتغير. ففي تلك اللحظات التي تسبق البكاء يحاول الوجه جاهدًا أن يواري الدموع، أن يخفي نفسه عن العالم. «قال لي بابا سيعود إلى البيت قريبًا، فلا تبتئس أرجوكَ.»

لم يقل شريف إن بابا سيعود إلى البيت قريبًا، ولا قال لا تبتئس. هذه كانت كلمات مني وضعتها على لسانه، مثل موسى عندما يضيف من عنده للمقالات التي يقرأها جهرًا.

غمغمتْ بكلام ما، ولِم تردّده ثانية إلا بعدما عاودها البكاء: «فرج الأحمق.» فكّرتَ حينها أن أقول لها، «بابا ليس أحمق،» أو «لا تقولي عن بابا أحمق،» لكنها تركتْ المطبخ، وسمعتُ باب غرفة نومها يُصفق ومفتاحه يدور. ثم فجأة رنّ الهاتف في غرفة الجلوس. ففتحتْ بابها وهرعتْ لتردّ.

«ألو؟ ألو؟ مَن؟» هتفتْ بلهفة. خمّنتُ أن أحدًا كان يتكلم في الطرف الآخر لما رأيتُ عينيها مسمّرتين على بقعة في الجدار.» نعم بو ناصر، أنا أمّ سليمان.» دارتْ حول نفسها. «بو سليمان غير موجود.» نظرتْ إليَّ وهي تزمّ شفتيها وتهزّ رأسِها بتؤدة. «مع كلّ احترامي...» قالت قبل أن تُقاطَع. «مع كلّ... مع كلّ احترامي يا بو ناصر أنا لا دخل لي بهذا.» ثم أضافت بعد لحظة، «ناصر ناضج بما يكفي لأن يقرّر بنفسه. عليكَ أن تناقش الأمر معه.» نظرتْ إليَّ ثانية وهي ترفع حاجبيها وتهزّ رأسها. «لكنني أخبرتِكَ أن بو سليمان ليس هنا. ولا علم لي بمكانه. اسمع، أنا متأكدة من أن "ناصر سيكون بخير،» ثم اقتبستْ آية من القرآن: «{ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}.» بعدئذ، استمعتْ إلى والد ناصر. «طيب بو ناصر، إذا كان هذا شعوركَ عليكَ أن تخبر ابنك. لا أحد يرغمه على العمل مع زوجي.» عندما أغلقتْ السماعة أبقتْ يدها عليها، ثم اتصلت بموسى. «هل تسمع صدى؟ جيد، ولا أنا. اسمع، كلمني والد ناصر الآن، وهو قلق ويريد أن يعرف إلى أي حدّ ابنه متورّط، ويقول إذا ألمّ به مكروه سيحمّل المسؤولية لبو سليمان شخصيًا.» نظرتْ في اتجاهي، ثم استدارتْ وبدأتْ تحاكيه همسًا. «كان هناك صدى في الخط.

إي، طبعًا أعرف ما يعني ذلك. اتصلِ بناصر وبلّغه ما قاله أبوه، أعلمه أنني مستاءة: أبوه يهدّدنا ويحمّلنا مسؤولية مصير ابنه...»

تذكّرتُ فجأة ما قاله القاضي ياسين لبابا بعد أن ترك موسى الجامعة: «خرّبت ابني.»

«طيب، مع السلامة،» قالت ماما في النهاية، أغلقتْ السماعة وذهبتْ إلى غرفتها.

بعد فترة قصيرة من الوقت رنّ جرس الهاتف ثانية، فخرجتْ من غرفتها، ولكن ليس جريًا هذه المرة، بل مشتْ بثقة وبتلك الطريقة الدالة على النفوذ الذي يمتلكه أولئك الذين يرون أنهم أبرياء وعلى حقّ. كادتْ تردّ، لولا أن خاطرًا ما استوقفها. نقرتْ أصابعها وهمستْ كما لو أن المتصل قادر على سماعنا، «أجب أنت.»

رفعتُ السماعة ونظرتُ إليها. «ألو،» قلتُ.

«سلـومة.» كان ذاك ناصر، وكان الخطّ سيئًا وفيه صدى. «أنا ناصر.»

«أعرف،» أجبتُ.

«كيف حالكَ يا فتى؟ وكيف حال أمك؟ أيمكن أن أكلمها؟»

سلّمتُ السماعة لماما، فضغطتْ يدها على مستقبل الصوت، قوّستْ حاجبيها وهمستْ، «مَن؟»

«ناصر،» أجبتُ وأنا أهمّ بالانصراف.

«اسمع،» همستْ، «أهناك صدى في الخطّ؟»

«نعم.»

أغلقتْ السماعة بهدوء وهي تعضّ شفتها السفلى. لم أسألها لماذا فعلتْ ذلك، ولماذا بقيتْ واقفة قرب الهاتف. بعد ثوانٍ قليلة عاود الهاتف رنينه.

نقرتْ أصابعها مرة أخرى وقالت، «أخبره أنني لستُ هنا، ثم

أغلِق الهاتِف، لا تدردش.» وبذلك مضتْ عائدة إلى غرفة نومها.
رفعتُ السماعة وقلتُ، «هي ليست هنا.»
«لماذا أغلقت الهاتف في وجهي؟» قال ناصر الذي بان من صوته أنه تأذّى، وجعل الصدى صوته المرتعش بعض الشيء يتّسم بالغرابة. ثم بعد ما بدا أشبه بصمت لانهائي عاد وقال، «عندما تعود أخبرها أنني اتصلتُ، طيب؟ و... وأخبرها أيضًا أنني متأسفٌ بخصوص أبي، بخصوص ما قاله.»
ما فهمتُ قطّ في يوم لماذا أخذتُ موقفًا معاديًا من ناصر من لحظة أن التقيته. لماذا كنتُ فظًا معه بالرغم من ملاطفته لي؟ عندما يتصل بنا في العيد ليتمنّى لنا الصحة والسعادة يصرّ دائمًا على أن يتكلم معنا فردًا فردًا. فيسلّم بابا حينها السماعة لماما، وهو يبتسم كما لو أنه يشعر بالحرج أو بالفخر، كأن "ناصر هذا صنيعته، كأنه مسؤولٌ عن كل ما يقوله ناصر. وعندما يحين دوري، أحاول التملّص، لكن بابا يرفض أن يقول له إنني في الحمّام أو في الشارع ألعب. يعقد حاجبيه ويشير لي لأتناول السماعة من ماما. دائمًا يكلّمني ناصر بالطريقة نفسها، يصيح في البداية «سلومة!» كما لو أنني في الطرف المقابل من الشارع، ثم، «كيف حالكَ يا فتى؟» فأجيب عن جميع أسئلته باقتضاب بالغ، وعندما يتمنى لي الصحة والسعادة أبادله الأمنيات، وعندما يقول، «أنا صديقكَ يا سلومة،» أو «إذا احتجت إلى أي شيء اعتبرني أخاك الكبير،» أجهل ما الذي يمكنني أن أقوله له في المقابل، ولذلك لا أقول شيئًا وأكتفي بتسليم السماعة لبابا وشعورٌ عارم غريب من الحنق يلسع وجنتي. ولكن، ألستُ أنا من تمنّى في العديد من الأوقات لو أن عندي أخًا أكبر مني سنًا، أخًا مثل كريم أو حتى مثل ناصر؟
فجأة، وللمرة الأولى، غمرني وهج دافئ من المودّة تجاه

ناصر. تضايقتُ لأنني كذبتُ عليه، ولذلك قلتُ، «ماما طلبتْ مني أن أخبركَ أنها ليست هنا.»

تهيأ لي أنني سمعتُ قرقرة، ضحكة مكتومة. ثم جاءني صوت ناصر وهو يصيح، «مَن الذي يضحك؟ أتسخر مني؟»

«أنا لا أسخر منكَ،» قلتُ، ومَن كان يحاول كتمان ضحكته في البداية، أخذ في تلك اللحظة يقهقه بصوت عالٍ مما منع "ناصر من سماعي.

ووسط القهقهة سمعته يصيح ثانية، «قلتُ من الذي يضحك؟»

«ما اسمكَ يا ولد؟»

«سليمان فرج الديواني.»

«ليس أنت،» قاطعني الصوت. «أنت، أنت الذي يُدعى "ناصر". ما كنيتكَ؟ انطق؟»

لم يكن هذا بالأمر غير العادي. ففي أوقات عديدة وبينما أنا على الهاتف أكلّم أحدهم يدخل علينا شخص ثالث. أحياناً أكون أنا الشخص الثالث الذي يتنصّتُ على محادثة بين شخصين، ويكون أحد الصوتين أبعد من الآخر، وفي بعض المرات، ما كنت أستطيع مقاومة التنصّت، ومرة أو مرتين اختلقتُ خلفية صاخبة؛ كرياح عاصفة أو انفجارات، ومرة أسمعتُ الطرفين الآخرين أغاني فرقة بوني إم. غير العادي في هذه المكالمة، أنه بالرغم من أن كلّ ما قيل تلاه رجع صدى، كان كلّ من صوت ناصر وصوت الغريب على الدرجة نفسها من الوضوح. وكذلك لأنه في الحياة - كما أخبرني بابا - لا يمكنكَ أن تسمع وتتكلّم في وقت واحد، استنكرتُ صدى صوتي الذي رجع لي غريبًا وجديدًا، وتبيّنتُ حينها أنني ما سمعتُ نفسي من قبل قطّ.

«لا تتكلّم معه يا سليمان،» قال ناصر. «أغلق الهاتف،

أغلقه الآن،» أردف بنبرة مستميتة.

«أرى أن هذا الناصر ليس ودودًا كثيرًا يا سليمان،» قال الصوت بحصافة. فضحكت، لأن ما قاله بدا طريفًا بالمقارنة مع جزع ناصر. كان لرجع صدى ضحكي وقعًا شريرًا.

«قلت لكَ أغلق السماعة، لا تستمع إلى ما يقوله،» صاح ناصر.

سمعتُ الصوت الآخر يقول لنفسه أو لشخص آخر قربه أو ربما لي، «هذا الناصر يحب التلاعب.»

«أغلقها!»

«لا، لن أغلقها، أغلقها أنت إذا شئت.» مضت كلماتي بينهما جملة واحدة، نافذة كالسهم.

انفجر الصوت بالضحك ثانية، أما خطّ ناصر فانقطع. توقّف الصوت عن الضحك واستمع معي إلى طنين الهاتف المتواصل. بعد ثانيتين، عندما هممتُ بوضع السماعة فعلاً، قال، «أنت مدهش يا صبي.» لم أعرف بم أردّ. «ها، قل لي،» حاكاني بطريقة توحي بأننا صديقان قديمان. «كيف حال أمكَ؟ أتعرف أن لديك أمًا جميلة جدًا.» أحسستُ برقبتي تتصلّب. ثمّ ضحك وكرّر ما قلته لناصر، «*ماما طلبتْ مني أن أخبركَ أنها*...» ثم عاد وضحك مجددًا. تسارع نبض قلبي وشعرتُ بالوقت يتباطأ. «إيه، نعم،» تابع وهو يلتقط أنفاسه، «يا للأم الجميلة التي لديك. والشاي الفاخر الذي تعدّه، والهريسة الرائعة. لا شيء يضاهي الهريسة المنزلية.» تذكرتُ فجأة كيف منعتني ماما من دخول المطبخ عندما فرمت الفلفل الأحمر الحارّ، لأن الحرارة، كما قالت، قد تحرق عيني. يومها لبست قفازين ولفتْ وشاحًا حول أنفها وفمها كاللصوص. «يجب أن تكون شاكرًا نعمة حصولك على أمّ مثلها، فهل أنت شاكر يا سليمان؟» أومأتُ برأسي مرّتين

موافقًا. «آ، قل لها أن تتصل بي إذا احتاجت إلى رفيق شراب. قل لها أنا أيضًا أحصل على دوائي من ذلك الوغد مجدي. نحمد الله على مجدي.»

رميتُ السماعة أرضًا، ووجب قلبي مثل فأر محتجز في دولاب. تسمّرتُ قرب الهاتف عاجزًا عن الحركة، فإذا به يرنّ من جديد.

«ألو،» قلتُ وأنا أسمع رجفة صوتي في رجع الصدى.

«سلومة؟» كان المتصل ناصر، وكان يهمس.

«ناصر، الحمد لله أنه أنت. من ذاك الرجل؟ وكيف يعرفنا؟ إنه يعرف أمورًا لا أحد يدري عنها شيئًا. من هو؟» كنتُ وناصر كأخوين الآن.

«هل أغلقت السماعة كما طلبتُ منك؟»

«إي.»

«شاطر. اسمع الآن، ليس لدينا وقت، أريدكَ أن تبلغ أمك رسالة مني.» كان لا يزال يهمس. لم يرقني أن يدعوني شاطر، لكنني غفرتُ له لأنني لم يسبق لي قطّ أن شعرتُ تجاهه بمثل هذه المودة. «أبلِغها أننا نبذل جهدنا لنجد أستاذ فرج، لا نعلم أين هو، ولم يأت إلينا.» تخيّلته يتكلم من تلك الشقة في ميدان الشهداء. «كنا نتوقع حضوره... أتعرف أين هو؟»

«لماذا لا تحشر هذه السماعة في دبرك يا ديوس،» عاد الصوت مرة أخرى.

«أغلق التلفون يا سليمان،» صاح ناصر، وهذه المرة لبّيتُ طلبه فورًا. لكنني حالما فعلتُ رنّ الهاتف على نحو متواصل مستهجن، ولخوفي من أن يزعج ماما رفعتُ السماعة. كان الرجل نفسه، وقد أصبح صوته واضحًا واختفى الصدى. «اسمع يا صبي، هل تعرف كنية ناصر؟» لم أردّ، وحينها صاح، «تكلم.»

«لا،» قلتُ وأنا أتذكّر استجواب أستاذ رشيد في التلفزيون.

«هل تعرف أين يعيش؟»

«لا.» ثمّ خوفًا مما سيأتي بعدِ ذلك قلت، «نعم.»

«جيد،» قال الرجل، وتوقعتُ أن الأمر قد انتهى، بيد أنه تابع، «اسمع سليمان، هكذا تجري الأمور. ستخبِرني أين يعيش ناصرٍ، وسأدوّن العنوان، مفهوم؟» أحسستُ برأسي يومئ موافقًا كما لو أنه يستطيع رِؤيتي، «حسنًا!» قال.

بعد صمت قصير صاح، «تكلم يا ولد.»

«أتعرف ميدان الشهداء؟»

«نعم،» أجاب بنبرة بالغة الهدوء أدهشتني.

«يسكن في إِحدى البنايات هِناك.» ثمّ وفي محاولة عرجاء مني للتراجع قلتُ، «أظن، لستُ متأكّدًا.»

«نعم، بالطبع أنت... هذا مؤكّد،» قال بنبرة واثقة أربكتني. فتريثه قبلِ كلمة مؤكّد بدا متعمدًا، مما جعلني أتساءل ما إذا عنى مؤكّد أنا لست متأكّدًا، أم مؤكّد أنا متأكد. «وأي بناية في ميدان الشهداء أنت لست متأكّدًا مِن أنه يسكن فيها؟» قال.

«المُطلّة على الميدان.» أجبتُ. كان صمته ثقيلاً، والفراغ الذي هيمن اضطرني إلى أن أضيف المزيد، «درفات نوافذها خضراء. بيته في الطابق الأخير، توجد منشفة حمراء على حبل الغسيل عند النافذة.»

«عظيم،» قال الرجل، ثم أردف، وللمرة الثانية لم أعرف أهو يخاطبني أم يخاطب شخصًا آخر قربه أو ربما نفسه، «المنشفة الحمراء، تلك هي العلامة، يا للأوغاد.»

«ناصر إنسان لطيف جدًا،» أضفتُ، لكنّه كان قد أغلق الخطّ.

١٣

كان العصر موشكًا أن يستسلم إلى المساء، وماما تغفو مستكينة في غرفتها. وأنا مضطجع في سريري أفكّر في شريف الذي بالرغم من أنني لا أستطيع رؤيته من موضعي، أعرف أنه ما زال هناكِ، ينتظر بولاء مطلق في سيارته البيضاء والشمس تخفتُ من حوله، ينتظِر على أمل أن أتذكّر أسماءً أو أجلب له الكتاب الذي أشرتُ إليه وأضعه بين يديه، الكتاب الذي ما زال تحت حشية سريري، حيث أنام وأحلم، الكتاب الذي بدأ يزعجني مثل حصاة في حذائي، حتى شعرت أنني لن أستطيع الإخلاد للراحة قبل أن أعطيه لشريف أو أن أتخلص منه بطريقة ما.

كانت نافذة غرفتي مفتوحة، ومن حيث كنتُ راقدًا استطعتُ رؤية السماء الزرقاء المتماسكة فوقنا، وجدار الحديقة الأبيض وقد جعلته الشمس ذهبيًا، والخط الذي التقيا عنده أحمر وأسود، نتيجة خدعة من خدع الضوء. لطالما جعلني التحديق إلى السماء أحسّ بالعطش، بيد أنه في تلك اللحظة سبّب لي دغدغة في مكان ما من صدري. ترى أي تجربة هي أن يجد المرءِ نفسه طائرًا، أن يجد نفسه في قلب الزرقة المتماسكة، تساءلت. في يوم ما سيصطحبني بابا معه في رحلة عمل. أنا واثق من هذا. سألبس بذلة وأضع ربطة عنق وأمشي بجانبه كظلّه، كيده اليمنى. وحينما نركب الطائرة لن أتأثر لأن الطيران سيكون قد أصبح شيئًا عاديًا بالنسبة لي، وسنجلس ولن نهتم حتى بالتطلّع من النافذة لانشغالنا بشؤون أكثر أهمية مكتوبة بأعمدة طويلة

نحيلة في الصحف. حينها سأكون قد أصبحتُ رجلاً، مُثقلاً بهموم العالم. تخيلتُ حياتي بدون بابا. تخيلتني أفعل هذه الأشياء وحدي، وتوقفت الدغدغة التي في صدري؛ توقفت لأنني وبابا نادرًا ما تشاركنا وحدنا في شيء، والتخلّي الآن عن هذا الحلم أحزنني. كان غائبًا معظم الوقت، وفي أثناء وجوده في البيت شغله عني دائمًا كتاب أو صحيفة، وكثيرًا ما أصابتني الحيرة إذا حدث وضبطته ينظر إليَّ بشوق.

اقتصر نشاطنا الوحيد الذي زاولناه معًا على المشي إلى المسجد أيام الجمعة. وعلى الرغم من أن ماما ما صلّت قطّ أو حثّتني على الصلاة، كانت تفتخر بي وأنا بجلابيتي البيضاء وطاقيتي، أمسك يد بابا، معطرًا بالمسك وجاهزًا للصلاة: نسخة مصغرة من بابا. لم أتطلّع يومًا إلى صلاة الجمعة، بل حتى سررت دائمًا بانتهائها، لكنني أحببتُ مرافقته. أتذكّر إمساكي بيده، وعيناي نصف مغمضتين بسبب وهج شمس الظهيرة، وبياض جلابيتينا محتدم بالحرارة. كان يبقى ساكتًا خلال تلك المشاوير. يمتنع عن الكلام بدون أدنى شكّ لينصت إلى القرآن يُتلى من مكبّر صوت المئذنة، بصوت الشيخ مصطفى، وعلى نحو أعلى من أن يكون مفهومًا. في أثناء الصلاة، كثيرًا ما جاءتني أوقات بقيت فيها واقفًا والآخرون سجود أتأمل المكان وهو يغير ألوانه. ولكم اعتراني الخوف من أن أكون الوحيد في الدنيا الذي يراهم هكذا: سجادة من الظهور البيضاء المنحنية مثل نوارس تتبهرج صدورها. بعد الصلاة كان بابا يستمتع بتقديمي إلى أصدقائه الذين رأوا دائمًا في تماثل لباسينا شيئًا لطيفًا. في فترات غياب بابا لم أكن أذهبُ مطلقًا إلى الصلاة.

كان بابا يبدو لي بعيدًا في أثناء وجوده في البيت، وفي غيابه يبدو بطريقة ما أكثر قربًا، وأكثر حياة في ذهني. لهذا

السبب كثيرًا ما استغربتُ من ماما دمجنا معًا، مستخدمة معي اللفظ الجماعي، كقولها «تتركانني وحدي دائمًا،» بعدما أعود من لهوي في الطريق، تعني بذلك كلينا. مستخدمة الصيغة التي تجعلني وبابا غير منفصليْن. وهذا يضطرني دائمًا إلى الدفاع عنه، كأن أقول، «لكن بابا يجهد نفسه في العمل من أجلنا،» في حين أنني لا أملك أدنى فكرة ما إذا كان يشقى من أجلنا أم لا. فقط كنت أرى في دفاعي عنه دفاعًا عن نفسي. إلا أنني الآن أدرك طبعًا أن ما جعل التمييز بيننا متعذّرًا هو أنه الرجل الذي كان عقابًا لها، وأنني الصبي الذي ختم مصيرها.

أحيانًا قد تقول، «كلّكم يا رجال،» «كلّكم يا رجال متشابهون،» جامعة لا بيني وبين بابا فقط، ولكن بيني وبين كثير من الرجال الآخرين. حينها لا أعرف أبدًا بم أجيب، إذ ليس بمقدوري أن أدافع عنهم كلهم: عن أبيها وجميع إخوتها – الرجال الذين دعتهم «المجلس العالي» – الرجال الذين اجتمعوا ليقرّروا مصيرها وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة من العمر، بعد أن ضُبطت تجالس فتى في المقهى الإيطالي، ولا بمقدوري أيضًا أن أدافع عن جميع الرجال الآخرينِ الذين درجوا على الاجتماع في المقهى الإيطالي، حيث تُناقش الأمور وتقرّر. الرجال الذين كانت ألسنتهم ستنالها بالسوء إذا لم تتزوج في الحال. الرجال الذين جعل الخوف من ثرثرتهم جدّتي تقول، «لو جاء عبد ليطلب يدكِ للزواج، عبد بسواد هذه الليلة، لأعطيتكِ له.» الرجال الذين تخيّلهم المجلس العالي يثرثرون في المقهى بأصوات هامسة قائلين، «انظروا، انظروا مَن تلك الجالسة مع غلام، وأيديهما تتلامس تحت الطاولة، فوق الطاولة الآن، إنها بنت عائلة محترمة تلك المخلوقة الوقحة، والغلام المتضرّج كخنزير عنده حياء أكثر منها،»

المقهى الذي منه سينبثق العار ويحلّ على جميع أفراد العائلة المحترمة إذا لم يتصرّفوا بسرعة، إذا لم يزوّجوها حالاً، ولو حتى لعبد. حكت لي قصة زواجها من بابا مرات ومرات عديدة، حكتْ لي عن ذلك «اليوم الأسود.» وفي كلّ مرّة كانت إما تغفل شيئًا أو تتذكّر شيئًا جديدًا. «ذلك لأنني كنت رائعة الجمال،» تبدأ روايتها أحيانًا، أو «كلّ ذلك بسبب خالد، خالكَ الغبي ذاك. هو الذي تخلّى عني، خانني؛ الخنجر كان خنجره.»

خالد هو شقيق ماما. كان قد سافر إلى أمِريكا ليلتحق بالجامعة، وافتقده الجميع آنذاك. وعندما ولدتُ طلبوا منه أن يختار لي اسمًا، «سليمان،» قال، «تيمنًا بسليمان الحكيم.» في وقت لاحق عاد من أمريكا مع زوجة أمريكية لم تحبّ مذاق مائنا. كان اسمها كاثي، ورائحتها لا تشبه رائحة أي أحد آخر في بلادنا؛ مزيج من الأوكالبتوس والحشيش. وهي السبب في أنني ولوقت طويل تخيلت أمريكا غابةً. اعتادت كلما اجتمعت العائلة أن تحضر معها كتابًا، ثم تجلس وحدها وتقرأ فيه محجمة عن الانضمام إلى النساء في المطبخ. مرة سمعت خالتي نورة، شقيقة ماما الوحيدة تهمس إن كاثي تقرأ في كتابها المقدس. لكنني ما اعتقدتُ هذا لأن الكتاب عليه صورة امرأة بثوب مكشوف الذراعين تركض هاربة من رجل يلبس حلّة قاتمة وقبعة ويحمل مسدسًا.

ومرة رأيتهما، خالي خالد وكاثي، رأيتهما يتجادلان تحت شجرة الصمغ في حديقتنا. لكم الشجرة وغطّت هي عينيها بإحدى يديها. وبعد ذلك بوقت قصير عادا إلى أمريكا. افتقدتُ كاثي في الحقيقة، لأنني أحببتُ أن يكون أحد أفراد عائلتي أشقر الشعر، ثم إن الصبيان اعتادوا أن يكزوني بمرافقهم ويكركروا كلما زارتنا.

عاش خالي خالد قبل أمريكا وكاثي في طرابلس، ونظم شعرًا خجل منه نصف أفراد العائلة وأحبه نصفهم الآخر. ولما سألتُ بابا عن رأيه قال، «خالكَ شاعر عظيم مهم جدًا.» والمرة الوحيدة التي سمعتُ بابا يصيح فيها على جدّتي؛ تلكْ التي ابتلعتْ كتاب *ألف ليلة وليلة* بأكمله، كانت عندما أهملت جدّتي صندوق خالي خالد الخشبي بما فيه من أوراق، ووضعته في قن الدجاج، حيث نقر الدجاج الذكي قفله وأكل القصائد كلها.

«الجهل!» صاح بابا يومها، ثم كرّر وكرّر مثل جرس، «الجهل! الجهل! الجهل!»

لاح الارتباك على جدّتي، ارتباك وشيء من الحرج، كما لو أن أحدًا ضرط في الغرفة.

«لا ترفع صوتكَ فيها،» حذّرته ماما.

«هل أنت مسرورة الآن؟» ردّ بابا. «النسخة الوحيدة من *وليمة النمل* في بطون الدجاج.»

كانت *وليمة النمل* مسرحية أتمّها خالي خالد قبل سفره إلى أمريكا، واستغرقتْ منه كتابتها سبع سنوات، صاغها بنفسٍ قريب من نفس قصيدة طويلة، وتتحدّث عن تاريخ بلادنا.

بيد أن ماما أجابت، «وليمة أو غير وليمة، لا ترفع صوتكَ في وجه أمّي ثانية.»

نظر بابا إلى ماما ثم إلى جدّتي ثم إلى ماما وترك الغرفة فورًا.

عندما عاد خالي خالد من أمريكا واكتشف أن دجاج العائلة التهم قصائده و*وليمة النمل* ضحك، ثم ضحك أكثر، ثم ضحك وضحك حتى حمله الضحك علي مغادرةِ البيت إلى طرف الحديقة. وهناك جلس وحده وقتًا طويلاً لا يضحك. ورفض طوال الصيف أن يأكل أي بيضة وضعتها تلك الدجاجات.

ولما أغاظته جدّتي بقولها، «إنه بيض ينضح بالشعر،» ابتسم، لكنه لم يأكل منه.

لامتْ ماما خالي خالد على ذلك اليوم الأسود الذي أُجبرتْ فيه على الاقتران ببابا، بسبب ما فعله في أثناء إحدى زياراته من أمريكا بعدما رآها في المقهى الإيطالي تحتسي وصديقتها جيهان الكابوتشينو مع غلامين. كانت ماما وجيهان في الرابعة عشرة من العمر، وكذلك الغلامان.

«الجبان. يحسب نفسه الأمريكي المتنور. كان لطيفًا وودودًا. حيّانا كما لو أنه معجب بشقيقته الصغيرة وصديقتها. كم كنتُ بلهاء؛ بل حتى خطر لي، أنه مع أفكاره التحرّرية يفخر بتمردي الصغير. دفع عنا ثمن الكابوتشينو، وسلّم على رفاقي. ولما ذهب صحتُ فرحًا وأخبرتُ جيهان كم أحب أخي. وجود أخ مثله في حياتي هو الأمر الوحيد الذي يشبه بطريقة ما حياة جيهان.» كانت جيهان صديقة ماما منذ الطفولة، مسيحية من فلسطين، يعاملها والداها كما يعاملان إخوتها تماما. «حدّث ولا حرج عن الصحوة القاسية. فبمجرد وصولي إلى البيت أُطفئتْ جميع الأنوار في حياتي. كان المجلس العالي قد انفضّ للحظته. إي، نعم، نحن عنيفون إذا تعلّق الأمر بشرف البنت عمومًا، عنيفون وحاسمون، وإذا تعلّق الأمر بشرف ابنتنا فنحن عنيفون وحاسمون وفعّالون. في مثل هذه الأوضاع تنافِس فعاليتنا تلك التي نجدها في مصنع ألماني.» عبرتْ وجهها ابتسامة سرعان ما ذوت. «جرّتني جدّتكَ من شعري وقذفتني في غرفتي وهي تقول، ''جلبتِ لنا العار أيتها الفاسقة الصغيرة، وسيعتقد أبوك الآن أنني لم أحسن تربيتك.'' لم أفهم ما الذي عنته. كان ذلك أشبه بكابوس، لا عقلانية فيه البتة. بيد أنني سرعان ما علمتُ أن الأمير الشاعر هرع مباشرة إلى البيت بعد أن رآني في المقهى وقال لأبيه،

"ابنتك ما زالت في الرابعة عشرة وها هي تقضي أوقاتها في المقاهي بصحبة رجال غرباء. إنني لأرتعد فرقا إذ أتخيّل ما هو قادم. زوّجها الآن، أو ستجلب العار لنا كلنا. "رجال غرباء؟" كانوا أولادًا، مجرّد أولاد. "لأرتعد فرقًا" لا أحد سوى الشاعر قد يمتلك من القسوة ما يكفي لصياغة عبارة كتلك.»

عندما كانت تنسبني إليهم بقولها «كلّكم أيها الرجال متشابهون» - تقولها وهي تشيح بنظرها بعيدًا عني وكأن مجرّد لمحي في تلك اللحظة ينفرها - لم أكن أدافع عن خالي خالد وكلّ أولئك الرجال الآخرين، بل كنتُ أشعر بغضب متأجج يعتمل في جوفي. وفي الليل، بعد أن تكون قد توقّفت عن الكلام والصياح والتدخين، وخرّت نائمة في مكان ما، على الأرض أو على كرسي، وأكون قد عجزتُ عن رفعها وعن حملها، لأنني في التاسعة من عمري فقط، وبدلاً من ذلك أجرجر نفسي إلى فراشي، غير مبال سواء نظفتُ أسناني أم لم أفعل، سواء غسلتُ وجهي أم لا، أضطجع بثيابي وحذائي كراعي بقر جوال، وأتخيّل كيف كنتُ سأنقذها حينها، وهي مجرّد صبية في الرابعة عشرة فقط، قبل أن يحدث ما حدث، ثم أنام وأنا أصارع وأصيح وأهرب بها إلى بقعة جميلة خضراء وباردة مثل اسكتلندا، حيث لا يستطيع أحد العثور علينا، تحيطنا أبقار صامتة ذات عيون زجاجية كبيرة وجميلة.

في مثل تلك الأوقات كنتُ أكره بيتنا.

وفي بعض الليالي لم يكن ما أتخيّله حسنًا. فقد كنت أحلم بالانتقام، وأعيد تصوّره مرارًا وتكرارًا إلى أن تسفر السماء السوداء عن تباشير الفجر الرمادي. كم كان يملأني هذا الشعور بالحاجة الملحّة إلى أن أغدو رجلاً بسرعة كبيرة، ولكن ليس لأقوم بالأشياء المرتبطة عادة بالرجولة وامتيازاتها، بل لأغير الماضي، لأنقذ تلك الصبية من يومها الأسود.

*

كانت الشمس في طريقها إلى النزول، أصبحتْ الآن متوهجة برخاوة على جدار الحديقة الأبيض، أما الزرقة الصلبة الصافية فبدتْ أبدية. وضعتُ يدًا على جبيني لأظلل عينيّ وأنا راقد على جانبي، أما يدي الأخرى فحشرتها بين ركبتيّ. هكذا ينام البدو. كان أهل بابا من البدو. وهو أيضًا ينام على هذا النحو: يد فوق العينين، وأخرى بين الركبتين. لا بد أنها عادة اكتسبها قبل أن يرحل إلى الجامعة، قبل أن يترك الأصقاع ذات الامتداد الشاسع والعتمة المخيفة، قبل أن يتحول إلى *أفندي* ببذلة. وأنا؟ ماذا عني أنا؟ أي سبب يا ترى يجعلني أنام هكذا؟ ما مقدار ما يوجد فيَّ منه؟ وهل يمكن للمرء أن يصبح رجلاً بدون أن يصبح أباه؟

١٤

طرق بو ناصر بيتِنا في الصباح التالي، ولم يرفع إصبعه عن الجرس حتى فتحتُ له الباب. وحالما فعلت دخل وهو يقول:

«أينِ أمّكَ؟ أخذوا ولدي.» وعندما أبصر ماما هتف، «وقعتْ الكارثة. اتصلتُ بكِ أمس لنمنعها، وها قد فات الأوان الآن.» نطق بالكلمات وهو يتمايل من جانب إلى جانب، بتلك الطريقة التي تفعلها بعض النسوة عندما تحضر إلى جنازة.

«اهدأ وأخبرني ماذا حدث،» قالت له ماما.

«بحثتُ عن ناصر في كلّ مكان. لقد اختفى.»

كان بو ناصر أكبر بكثير مما توقعتُ، ربما بعمر جدّي. وبدلاً من أن تفتح ماما الستائر في الصالون وتسمح للشمس بالدخول، أضاءت النور، ثم قالت، «سليمان، اجلب لعمكَ كوب ماء.» تمهّلتُ متوقعًا منه أن يفعل ما يفعله جميع الضيوف عندما يُعرض عليهم تقديم شيء لهم، أن يرفض، لكن الشيخ لم يعترض، ولا بدّ أنه كان ظمآن جدًا. فمضيتُ ووقفتُ خارج مدخل الغرفة أتسمّع.

«كان بجانبي عندما اتصلتُ بكِ. استاء مما قلته لكِ، وهو دائمًا يستاء من أي شيء أقوله، وأجابني بما أجبتِني به، وذلك أنه بالغ عاقل ويستطيع أن يقرّر بنفسه. ولكن،» همسَ، «يا أمّ سليمان هذه درب خطرة. هؤلاء الناس لا يعرفون الرحمة.» تنهّد وتابع، «لم أُرزق إلا بولدين، صبي وبنت. ناصر هو ابن الغالية رحمها الله. أما البنت فمن زواجي الثاني، وهي صغيرة بما يكفي لتكون بنت ناصر، فعمرها لا يتجاوز التاسعة. إنه

ملاذنا الوحيد في هذه الدنيا.»

طوال هذا الوقت ما فتئتْ ماما تعقّب ببعض التمنيات الطيبة: «عوّضكَ الله خيرًا. وبارك الله فيهم.»

فجأة، دخلتْ بنت بيتنا على استحياء. لا بدّ أن الباب تُرك مواربًا بعد دخول الشيخ. كانت ذات شعر كستنائي طويل، بشرتها أكسبتها الشمس لون القرفة، شفتاها المنفرجتان قليلاً قرمزيتان. إنها بلا ريب أخت ناصر، قلتُ لنفسي. البنت التي عمرها تسع سنوات؛ أي أنها تماثلني سنًا، وبالتالي أكبر من أن تكون مناسبة للزواج منها؛ ففارق السن المقبول يجب أن لا يقل عن ثلاث سنوات. بابا كان في مثل سني الآن لما وُلدتْ ماما، أي كبير بما يكفي ليدخل بيت أهلها حاملاً الزهور للمولودة الجديدة. ولما تزوّجها كان في الثالثة والعشرين، وهي في الرابعة عشرة. وبوجود هذا الفارق لا أحد يمكن أن يعارض أو يقول إنها ستهرم وتغدو عديمة النفع قبله. المتعارف عليه هو أن يُخطّط لهذه الأمور مُسبقًا؛ فالمرأة يجب أن تكون فتية وقوية لتتجب الأطفال وتحسن خدمة الرجل في شيخوخته، وفي النهاية بينما يبقى شعرها محتفظًا بسواده الفاحم، يكون رأسه أصلع كالقمر. تفحصتني البنت مليًا ورأت رأي العين ماذا وقفتُ أفعل. ثم أغلقتْ الباب وراءها على نحو صاخب أكثر مما هو ضروري.

«مَن هناك؟» صاحت ماما.

«تعالي، نحن هنا،» ناداها الشيخ، ثم وجّه كلامه إلى ماما بنبرة رقيقة، «لا بدّ أنها بنتي سهام.»

دخلتْ سهام الصالون.

«ألم أطلب منكِ الانتظار في السيارة؟» قال الشيخ.

«لكن لماذا؟» سألته ماما بأسلوب نمّ عن ترحيبها بالبنت. «لماذا تبقى تحت الشمس بينما يمكنها الجلوس معنا هنا.

تعالي، اجلسي بجانبي. ما شاء الله، ما شاء الله، أنت جميلة جدًا. في أيٍ مدرسة...»

هرعت إلى المطبخ وأنا أضحك بيني وبين نفسي لسبب مجهول.

«سلـــومة،» نادتني ماما.

جريتُ إلى الصالون، لكنني قبل أن أصل مباشرة تريثتُ وتابعت المشي بتؤدة. «نعم،» قلتُ بصوت هادئ وأنا أسمع خفق قلبي.

«تعال سلّم على سهام أخت ناصر. سلومة يحب "ناصرٍ" كثيرًا،» قالت لهما. «أليس كذلك يا عزيزي؟» أحسستُ بوجنتيّ تتضرّجان لأنها دعتني سلومة ثم عزيزي أمامهما، بل أمامها، أمام سهام، البنت ذات الشعر الكستنائي.

«ماذا تحبّ أن تشرب عروسنا الصغيرة؟» سألتها ماما. لم تجب سهام، لكن لم يظهر عليها الارتباك، أو الإلحاف في الانطواء على نفسها. «ما رأيك بكوب كوكا كولا؟»

«تكلّمي،» نهرها أبوها.

«نعم لو سمحتِ،» أجابت سهام. كان لصوتها رنين متعة متجسدة؛ كالشمس تدفئ جسمكَ بعد السباحة في الصباح الباكر في بحر هادئ فاتر.

هممتُ بالذهاب لأحضر لها الكوكا كولا - كنتُ قد نسيتُ أمر كوب ماء الشيخ نسيانًا تامًا - بيد أن أباها طلب منها مرافقتي. وهكذا، هناك كنتُ أمشي وسهام جنبًا إلى جنب على طول الرواقِ، وصدري يتأجج بالإثارة التي جعلتني قبل لحظات أنطّ في المطبخ. أمسكتُ إحدى دفتي باب الرواق الهزاز لأدعها تمرّ، ثم تبعتها.

«كنت تتنصت،» قالت. تلك كانت الكلمات الأولى التي وجّهتها سهام لي. تشاغلتُ بالكوكا كولا، لكنها سرعان ما

أنقذتني. «أنا أيضا أحبّ التنصت.»

«هل تحبين أن تري ورشتي؟»

هزّت كتفيها، ثم سألتني وهي ترفع حاجبيها إلى الأعلى قليلاً، «أهي بعيدة؟»

«لا، إنها على السطح، وهي مظللة أيضًا.» أجبتُ وناولتها كوب الكوكا كولا الذي ملأتُه إلى شفته.

قرّبتْ فمها منه وعبّت. «ألن تصبّ كوبًا لبابا؟»

حينها تذكّرتُ أن الشيخ يريد كوبِ ماء، لكنني شعرتُ بالحرج من الاعتراف لها بأنني نسيتُ، ولذلك صببتُ له قدح كوكا كولا وأخذته بسرعة إلى الصالون.

لطالما حلمتُ بشيء من هذا القبيل، لكن البنت التي شغلتْ أحلامي حتى هذه المرحلة هي البنت التي كانت عليها ماما ذات يوم؛ قبل أن يحدث ما حدث، قبلِ أن تُرغم على الزواج من الرجل الذي أصبح أبي. كان توقًا لا متناهيًا؛ شنيعًا وممجوجًا، يتعدّى حدود المنطق والتحقق، مثل كلب ينهش أوصاله. أما هذا فكان حلوًا.

ناولتُ الشيخ كوبه. كنتُ قد دلقتُ شيئًا منه في طريقي إليه، مما جعل أصابعي والكوب دبقيْن. «ضعه هناك،» قالت لي ماما مشيرةً إلى الطاولة الصغيرة، ثم تابعت حديثها مع بو ناصر. «كان الخطّ مراقبًا لذلك لم أتلق مكالمته. رأيتُ أن هذا أفضل. أعني أفضل له.»

«رحل بسرعة منزعجًا مني، حتى إنه لم يودعني. أنا متأكّد من أنه ذهب إلى تلك الشقة اللعينة في ميدان الشهداء.»

علقتْ كلماته بأذني، فتسمّرتُ خارج المدخل.

«ذهبتُ أبحث عنه هناك. وانفطر قلبي لما أخبرني الناس أنهم شاهدوا شابًا يعبر الميدان جريًا وهو يتأبط آلة كاتبة، وجمع من رجال اللجنة الثورية يطاردونه.»

شعرتُ بالدوارِ، شعرتُ بغثيان.

مرة، غادرتُ المدرسة خلسة مع ذلك الصبي الذي لا أتذكّر حتى اسمه، لأننا لم نكنِ صديقينِ. ما جمعنا فقط هو الرغبة في الهروب. عندما ضُبِطتُ وجُلِدتُ بقضيب خيزران على ظاهر يديّ وباطنهما كذبتُ وقلتُ إنها فكرته. لم أر حينها أن ما فعلته غير أخلاقي، لكن لما استُدعِي في النهاية إلى الغرفة ورآني تملّكني شعور فظيع، اكتشفت أنني خنته. وما سمعته من بو ناصر استحضر فيَّ الشعورِ نفسه. بل كيف لي الآن أن أتزوج سهام في يوم ما وقد خُنتُ أخاها، الرجل الذي سيصبح خال أولادي؟

عدتُ إلى المطبخ أجرجر قدميّ. لمِ أجدها فيه، لكن كوبها وقف فارغا على طاولةِ الفطور. رأيتُ الباب المؤدي إلى الحديقة مفتوحًا، خرجتُ ورأيتها هناك. بدتْ حانقة. «أينَ كنتِ؟» هتفتْ. «مِن هنا،» قلتُ وأنا أقود الطريق على الدرج إلى السطح برأس مطأطئ. ما تخيّلتُ أن الأمر سيجري هكذا. «هذه ورشتي،» أعلنتُ لما وصلنا. كان السطح مشتعلاً بنور شمس الصباح، وأدواتي متناثرة قرب خزان الماء بعد أن تضرّر دلوي.

«بابا يقول إن أباك جلب الخرابِ على رأس أخي. أنا أحبّ أخي، وأعتقد أن أباك ليس لطيفا جدًا.»

«ناصر مثل أخي الكبير،» كذبتُ. أما هي فواصلت تأمّل السطح بعينين نصف مغمضتين. «أنا، أيضًا، أحبّ أخاك.» كان الهواء ساكنًا. وضعتُ ذراعي حول كتفيها، فتسربتْ إلى أنفاسي رائحة برتقال. لكنها انفلتت على عجل ونزلتْ الدرج جريًا.

عندما وصلتُ إلى الصالون وجدتها تقف بين ركبتي أبيها.

«ما بكِ يا أمّورة؟» سألتها ماما. «من أزعجكِ؟»

وقفتُ عند مدخل الباب هامدًا، وجلدي يِحكّني من الخزي.

«ماذا فعلت لسهام يا سلومة؟ هل ضايقتَها؟»

«أنا أعرف من ذاكَ!» قالت سهام وهي تشير إلى صورة العقيد الهائلة والزينة الذهبية تلمع على كتفي بزته العسكرية، والسماء وراءه صافية؛ زرقتها وضّاءة وحلوة كسكرة.

استأذنتْ ماما فجأة. لم أجد في نفسي رغبة لأُترك وحدي معهما. عندما حوّل بو ناصر نظره عني تمليتُه وابنته الصغيرة وهما يرنوان إلى الصورة؛ كان كبير السن، وهو على الأرجح لن يشهد مطلقًا زواجِها، وكذلك لن يجتمع أطفالها أبدًا بجدّهم. تركتهما ولحقتُ ماما.

كانت جاثية أمام الخزنة، تُدخِل الشفرة، وتغمغم بالكلمات التي قالها لها بو ناصر: ''حلّتْ الكارثة. اتصلتُ بك أمس لأمنع حدوثها،'' لماذا جئت إذًا؟ ماذا تتوقّع مني أن أفعل؟»

استعصتْ الخزنة عليها. كانت تُدخِل الشفرة بأسرع من اللازم. ليس ثمة مجال للخطأ: أي اختلاف طفيف على الشفرة السرية ولن تفتح الخزنة. كررت المحاولة وهي تردد ما قالته سابقًا أمامي وأمام موسى، «أطفال يلعبون بالنار.» أخيرًا فُتح الباب الفولاذي الثقيل، جبارًا ولا مباليًا. أخذتْ رزمة أوراق نقدية من فئة عشرة دنانير وطوتها في قبضتها بإحكام.

كانا لا يزالان يحملقان إلى صورة العقيد، وبمجرد دخولنا وقف الشيخ وقال، «علينا أن نذهب الآن.»

«تغدّيا معنا،» قالت ماما بطريقة مرائية جعلت الرجل يحجم حتى عن الإجابة. «صدقًا، ابقيا،» أضافت، لكن الشيخ تابع طريقه إلى الباب وهو يمسك يد سهام. «صدقًا،» كرّرت ماما فيما تبعتهما إلى الخارج. هزّ الشيخ رأسه رافضًا وربّت صدره. حاكت سهام حركته. أحزنني أن أراها تقلّد إيماءة شخص مسنٍّ مثله. عندئذٍ، مدّتْ ماما يدها بسرعة إلى جيب

قميص الرجل. لكن وبخفّة مدهشة قبض العجوز على رسغها. كان ردّ فعله الفوري مفاجئًا، كما لو أنه عاش طوال حياته مستعدًا لأي هجوم. ثم بدأت نغمة الجدال المعتاد:

«بالله عليك.»

«لا.»

«من أجلي.»

«لا داعي لهذا.»

«طيب إن لم يكن من أجلي فمن أجل سهام.»

رنت سهام إلى البالغيْن، وفيما هي تغمض عينًا تحت وطأة الشمس، ربّتتْ صدرها مرة أخرى. لم تكن إيماءتها هذه المرة في محلّها.

تردّد الرجل، ولاحظتْ ماما بارقة أمل فدسّتْ المال في جيبه. «أقسم عليك بحق أغلى شيء...»

جمد الشيخ في أرضه للحظة، ثم وكرجل هُزم هزّ رأسه بوهن.

«ليس لديكَ فكرة كم يعزّكم بو سليمان،» أخبرته ماما.

مشى بجانب بنته إلى سيارتهما السوداء القديمة. ومع انطلاقهما بانت من جديد سيارة رجل اللجنة الثورية شريف، الرجل الذي قبع في سيارته البيضاء غير آبه بالحرارة، مخلصًا أبدًا لقضيته، ومسدسه لا ريب ما زال يشغل المقعد المجاور له. كان ثمة تباين صارخ بين ثقته بنفسه وشبابه وبين الشيخ الحزين. بدا شريف في مرحلة تتجاوز الشيخوخة والحاجة، كان رجلاً يطالب العالمَ أن يجاريه.

جرّتني ماما إلى البيت، وكلما استدرتُ حثّتني، «يلا، يلا،» وقبل أن تغلق الباب، لمحتُ "شريف" يلوّح لي. أدارتْ ماما مزلاج الباب مرتين.

١٥

في اليوم التالي استيقظتْ ماما منقبضة الصدر بدون شكّ. وما لبثتْ أن انهمكتْ في صنع كعكة. لزمتْ الصمت طوال الوقت، وتحركتْ في هذه الأثناء بسرعة وانضباط. ظننتُ أنها وخالة سلمى ستعودان أخيرًا إلى سابق عهدهما. إلا أنها بعد أن انتهتْ من تزيين الكعكة بالفراولة حملتْ القالِب واجتازت الشارع إلى بيت أستاذ جعفر وأمّ مسعود. وقفتُ في مدخل بيتنا أراقبها، وشريِف أيضًا راقبها من داخل سيارته. كان قد أصبح عنصرًا ثابتًا في حيِّنا، وما عدتُ أفاجأ كلما وجدته هناك. ضغطتْ ماما على الجرس وهي تلقي نظرة عجلى على شريف، ثم فركتْ راحة يدها المثنية والمنفرجة الأصابع بثوبها. وكما لو أنها في حيرة مما يمكن أن تفعله، لوّحتْ لي لآتي. وتمامًا قبل أن أمسك يدها الباردة الرطبة فتحتْ أمّ مسعود الباب.

«مرحبًا،» قالت ماما بصوت فيه رعشة طفيفة. «هل أستاذ جعفر هنا؟ أحتاج إلى رؤيته بخصوص شأن مهم لوِ سمحتِ.» ثم أضافت وهي تناول أمّ مسعود الكعكة، «صنعت لكم هذه.»

*

بقيتْ آثار تلك الزيارة ملازمة لي منذ ذلك الوقت. ولا أواجه مرة شخصًا يمسك بخيوط مصيري، كموظف هجرة أو أستاذ،

إلا ويحضرني ترجيع ذلك اليوم؛ تدشين الدخول في فنّ الاستسلام المظلم. ربما لهذا السبب غالبًا ما أستشعر تلذّذًا مخجلاً في الإذعان للسلطة. حتى في الصلاة - وأنا ساجد أسمع بأذني صلاتي المهموسة، جبيني يضغط الأرض، ظهري منحنٍ تحت وطأة ثقله، صدري هابط بين كتفيّ، راحتاي مبسوطتان على الأرض وأصابعي متراصّة - غالبًا ما يهيمن عليَّ الندم والخزي من ارتياحي الخبيث، من استمتاعي بانتقاصِ قدري. ولهذا السبب نفسه، كلما حسبتُ في النهاية أنني حظيتُ برضا السلطة، نبع شعور من البغض الذاتي داخلي وتصاعد ليمسك بخناقي. ولطالما امتلكتُ القدرة على التخيّل بأنني مكروه كرهًا لا مبرر له.

*

تركَنا أستاذ جعفر ننتظر، شأنه في ذلك شأن معظم المسؤولين الحكوميين. جلسنا في غرفة الضيوف، حيث طالعنا وجه القائد من صورة أصغر بكثير من التي علقها موسى في بيتنا. كانت الغرفة مؤثثة بلون الثورة: الحيطان باللون الأخضر الفاتح، الأثاث منجّد بنسيج أخضر داكن وما زال مغطى بالنايلون، وعندما تتحرك وأنت عليه يصدر صوتًا يشبه الضراط، فتضطر إلى التحرك مرة أخرى لتثبت أنك لم تضرط. في الوسط طاولة صغيرة ليس من السهل الوصول إليها، عليها منفضة سجائر فارغة وعلبة مناديل ورقية نتأ منها منديل وردي اللون، يليه مباشرة آخر أصفر، كانت الستائر مفتوحة - هي أيضًا خضراء - وعاليًا فوق الطاولة الصغيرة ثريا صغيرة يشعّ منها ضوء ضعيف. في إحدى الزوايا انتصب تلفزيون ضخم، ربما كان بحجم البيانو الذي في بيتنا. قعدت

ماما مستقيمة متلاصقة الركبتين، بينما راحت يداها تتصارعان: كلما عاود الدم اندفاعه في إحداهما سارعت إلى دعكها من جديد. دخلتْ أمّ مسعود وجلستْ قريبًا منها.

«إنه قادم،» قالت.

نظرتْ إليها ماما وأومأتْ برأسها.

«لماذا أتعبتِ نفسك بالكعكة؟»

«إنها لا شيء.»

«نحن جيران...» بدأتْ أم مسعود، لكن ماما شرعتْ تبكي وهذا أصابني بالدهشة، أما أمّ مسعود فلم يبدُ عليها أنها فوجئتْ. لا ريب أنها اعتادتْ هذا، قلتُ لنفسي. «في الحقيقة كنتُ أفكّر، بل قلتُ لجعفر،» تابعتْ أمّ مسعود، "لماذا لا تقصدنا نجوى وهي تعلم أننا نستطيع مساعدتها؟" أعرف أننا لم نكن دائمًا على وفاق في الآراء ولكن...» انحنتْ إلى الأمام وسحبتْ المنديل الوردي.

«أردتُ أن...» قالت ماما وهي تأخذ المنديل من بين أصابع أم مسعود المنتفخة.

«لا تتردّدي أبدًا، نحن مثل الأخوات.»

«أقسم بالله أنني أحببتكِ دائمًا،» قالت ماما بعينين شاخصتين، متلهّفة لتبدو مقنعة.

«لا تهتمي،» ردّتْ أمّ مسعود بصوت متكاسل. كانت ثقتها بنفسها بغيضة. «الرجال هكذا. يحبّون المغامرة. والقائد يدرك ذلك وهو متسامح جدًا.»

«حقًا؟»

«نعم،» طمأنتها أم مسعود، ثم خفضتْ صوتها وأضافت همسًا، «دعيني أخبركِ هذه الحكاية. مرة صمّم رجل على قتله.»

«معقول؟» هتفتْ ماما متظاهرة بعدم التصديق.

«إي، ماذا يمكنكِ أن تقولي؟ مجنون. فقدَ عقله. ولما قُبِض عليه جلس معه القائد وسأله، ”لماذا أردت قتلي يا ابني؟“ يقولون إن الرجل ذاب مثل الثلج في النار وهو يبكي سائلاً العفو، وسامحه القائد في تلك اللحظة وذلك المكان.» بدتْ ماما مشدوهة، مفعمة بالأمل، وساذجة للغاية. سحبتْ أم مسعود المنديل الأصفر وناولته لماما. «لا أقصد التفاخر، لكن لجعفر مكانة خاصّة في قلب القائد. وجعفر طبعًا مخلص له روحًا وقلبًا. إي نعم، ففِي النهاية،» تابعت وهي تفتح يديها نحو السقف، «أليستْ هذه النعمة التي نترع فيها بسبب كرمه؟ ليس من الصواب أن يعضّ المرء اليد التي تطعمه.»

«بالطبع،» وافقتها ماما ثم أردفت على نحو ما يفعل الناس في الأعراس، «الله يبعد الحُسّاد ويديم عليكم النعمة.»

«من فمكِ إلى باب السماء،» قالت أمّ مسعود.

*

نادرًا ما وقف أستاذ جعفر ليدردش مع أي من الجيران. لم يكن عدائيًا، إنما فضل دائمًا إبقاء المحادثات عند أدنى مستوياتها، وفرض حوله جوًا خاصًا - استطعتُ تمييزه في وقتٍ لاحق - حدّد أي نوع من الرجال هو. النوع الذي يريد أن تُدركَ جسامة المسؤوليات الملقاة على عاتقه؛ وأنه رجل دفعته يد القدر الخيّرة إلى معترك دوامة زمانه. كان يحيي الناس بنوع من الاحتشام المفتعل الذي يهدف ضمنًا إلى جعلهم يشعرون بالخنوع. يتأنق دومًا ببذلة وربطة عنق، يُصفف شعره بالمجفف، ويفرقه بعناية ليخفي مواضع انحساره، ويضع نظارة شمسية ذات إطار ذهبي نادرًا ما ينزعها وهو يصافح الآخرين. لم يُظهر قطّ أنه حريص على إثبات ولائه،

بالرغم من كونه عضوًا بارزًا في المخابرات. دُرِّب في موسكو على يد الكي جي بي، ومهمته تتعلق بالإطار العام؛ بتقنيات الأمن التي تحسب مَن سيبقى أمام الشمس ومَن سيثبّت وراءها. كنا كأطفال يخشاه أغلبنا، وعند مقارنته بذوينا كنا معجبين سرًا بقوته. ولم يكن فينا من لم يطمح بامتلاك سلطاته.

دخل غرفة الضيوف، حيث جلستُ أنا وماما ننتظر كأننا مريضيْن في عيادة طبيب. وقفتْ ماما ولم أفعل مثلها. توجّه مباشرة إليَّ، داعب رأسي وقال ببساطة، «سليمان.»

وقفتُ وعيناي على ماما أملاً في أن أتجنب عينيه المتفرستين.

«كيف حالكَ؟»

«ردّ علىِ عمكَ،» أمرتنيِ ماما.

طأطأتُ رأسي وهمهمت، «لا بأس أستاذ جعفر.»

جعله هذا يصفق يدًا بيد ويضحك. أخيرًا التفتَ إلى ماما وصافحها بدون أن ينظر إلى وجهها وهو يقول ويكرّر، «اجلسي، اجلسي.»

«جاءت نجوى لتتكلم معكَ يا جعفر،» قالت أمّ مسعود بصوت أعلى مما ينبغي، وطيف ابتسامة متخلّف على وجهها. «هي جارة غالية علينا، والنبي أوصانا أن نحبّ جيراننا.»

«طبعًا، طبعًا،» أكّد أستاذ جعفر بنبرة صادقة.

«شكرًا،» قالت ماما وانبرتْ تعيد إفادتها: «أقسم أنني أحببتكم دائمًا،» وأضافت أن، «مسعود وعلي مثل أولادي، أقسم أن لا فرق بينهما وبين سليمان.» ثم، ولدهشتي الكبيرة بدأتْ تبكيِ ثانية.

نظرتْ أمّ مسعود إلى زوجها وزمّت شفتيها. تراءى لي أنها صادقة في تعاطفها مع ماما.

«أعدّي لنا الشاي،» خاطبَ زوجته بصوت منضبط،

فتركتْ أم مسعود الغرفة. كانت نبرته قد تغيرتْ وهو يخاطب زوجته، بدتْ قاسية وآمرة.

«أقسم لكَ يا بو مسعود،» قالت ماما، «هذه الأيام مثل جهنم.»

لم يسألها ما عنتْ، كأنه يعرف، كأنه يعرف كلّ شيء.

«إنه بريء. وإذا فعل شيئًا فذلك لأن الآخرين دفعوه إليه. لطالما كان بو سليمان مخلصًا، فهو ليس من ذلك النوع. كلّ الحكاية هي أن بعض الناس، سامحهم الله، كانوا يهمسون في أذنيه.»

«ما كان ينبغي أن يستمعِ إليهم.»

«أعرف، أعرف،» هتفتْ، «لكن ماذا يمكن أن تقول، الشيطان خبيث.» ثم، وإذ انبعث فيها الأمل من جديد أردفتْ، «أقسم لك أننا منذ أن عرفنا عن رشيد، ما عاد لنا علاقة به أو بعائلته.» بكتْ مجددًا. «أرجوكَ صدّقني يا أستاذ.»

«هيا، هيا،» قال بصوت رقيق جدًا جعلني أشعر بحاجة ملحة إلى أن أعانقه. «الله كبير، وقادر على كل شيء.»

هذا كان كلّ ما قاله، «الله كبير، وقادر على كل شيء.»

حضر الشاي، وقُدِّم مع الكعكة التي خبزتها ماما. رفضتُ تناول أيّ شيء منها، لكن أمّ مسعود أصرّتْ، فحملتُ الصحن بيدي وتأملته، ثم رحتُ أقتلع الفراولة من قشدة السطح وأضعها كلّها في فمي. «يا للولد اللطيف،» قالت أمّ مسعود، فرنا إليَّ أستاذ جعفر وصاح، «مسعود، علي،» ثمّ سأل زوجته عن الولدين. كانا في بيت أسامة مع بقية الأولاد يشاهدون التلفزيون. تخيّلتهم كلّهم مجتمعين هناك، يشاهدون واحدًا من أحدث أفلام رعاة البقر، تلك الأفلام التي يجدها أسامة دائمًا لأنه كان يتمتع بموهبة فذة في تعقّب أحدث أشرطة الفيديو. وإذ ذاك خفق قلبي تشوقًا.

*

أوصلتنا أمّ مسعود إلى الباب، ثم ونحن هناك تماماً شهقتْ وقالت، «لحظة فقط.» ولما عادت كانت تحمل قطعة الكعكة التي قدّمتْ لي والتي نهبتُ منها الفراولة. «خُذ يا سليمان، كن ولداً طيبًا وأعط هذه للسيد الجالس هناك في السيارة.» ثم أضافت لماما، «إنهم يجهدون كثيرًا في العمل، ويجلسون تحت الشمس طوال النهار.» حدّقتْ ماما بعينين مشدوهتين في أمّ مسعود.

أخذتُ قطعة الكعكة لشريف مسرورًا لأنني لستُ المقصودِ بها، فتناولها شريف وهو يبتسم لأمّ مسعود من ورائي. رأيتُ الأولاد يخرجون من بيت أسامة في تلك اللحظة بعيون ناعسة. لا بدّ أنهم كانوا يشاهدون الفيلم في غرفة الجلوس المعتّمة، وقد رفعوا الصوت، واسترخى كل منهم في موضع ما على السجادة السميكة وطوى وسادة تحت رأسه. ولا بدّ أنهم عندما قبّل البطل البطلة ضحكوا وتراشقوا بالوسائد.

مشيتُ مع ماما إلى بيتنا، ولكنني عندما لمحتُ مدخلنا بظلّه الداكن قرّرتُ البقاء في الخارج. تجولتُ في الحديقة، هززتُ غصنًا من أغصان شجرة البرتقال، لم يسقط منها شيء. خرجت إلى الطريق ووقفت عند الرصيف أركل حصاة بقدمي على أمل أن يقول الأولاد شيئًا، أن يشركوني في لعبة ما أو محادثة.

بدأ عدنان يكدّس أحجارًا بعضها فوق بعض. أدركتُ أنهم على وشك أن يلعبوا لعبة ستّة أحجار، فجلستُ على الرصيف. في تلك الأثناء انكبّ شريف على قطعة الكعك يلتهمها. وعندما أصبح الأولاد مستعدين للبدء باللعب، أمسكتُ حصاة ورميتها من تلك المسافة البعيدة لأسقِط لهم كومة الحجارة. أردتُ أنْ أثير إعجابهم بمهارتي في التصويب. لكن الحصاة أصابت

عدنان. التفتوا جميعهم تجاهي. ثم أقبل أسامة نحوي، أسامة الجبار، أقبل وهو يتوعّدني.

«هل أنت مجنون؟» صرخ. حينها تذكرتُ أنه إذا وُخز جلد عدنان قد ينزف حتى الموت. أصبح أسامة أمامي مباشرة. «هل فقدت عقلك؟» صاح ودفع صدري بكعبي راحتيه فوقعت. سمعتُ "شريف" يغادر سيارته. «هل تريد قتله؟» صرخ أسامة مجددًا وهو يركلني وأنا مطروح أرضًا. «كفى،» سمعتُ "شريف" يقول، وتلقيتُ ركلة أخرى. أين كريم يا ترى؟ «قلتُ كفى،» صاح شريف ثانية وقبض على رقبة أسامة من الخلف، «كفى يعني كفى.» رجع أسامة برأسه إلى الوراء ليخفّف من ألم رقبته، دفعه شريف صوب بقية الأولاد، ففقد توازنه ووقع. رمقني بعينين مفعمتين كراهية. ولما وصل إلى عدنان وضع يده على كتفه، وانحنى ليتفحّص كاحله، الموضع الذي أصابته حصاتي.

«لا يمكنكم أن تتعاركوا من أجل لا شيء،» قال شريف وهو يعود إلى سيارته، ولطخة من القشدة ملتصقة بإحدى زاويتي فمه.

هرعتُ إلى عزلة بيتنا. كانت ماما في غرفة نومها وبابها مغلق. لا بدّ أنها نائمة أو مريضة. بعد دقائق قليلة قرع سمعي بوق سيارة إسعاف في حيّنا. استرقتُ النظر من نافذة الصالون، ورأيتُ عدنان يستند إلى ذراع أسامة وبقية الأولاد محتشدين حوله. ترنح وهو يسلم نفسه لذراعي الطبيب الأبيضين، وكاحله كرة من الضمادات. وهناك وقف شريف وأمسك له الباب، ثم أغلقه وراءه بعناية بالغة.

١٦

بقيِ وجيب كعبي راحتي أسامة يرجع صداه في صدري. كنتُ متأكدًا من أننِي سأتكدّمِ، وأن الأثرين الأزرقين سيتفشيان فوق حلمتيّ. كنتُ قد كشطتُ مرفقي أيضًا على الرصيف الجلف. والخوف بل وأكثر منه رِثاء الذات ترجرجا خلاِلي مثل تيار كهربائي بينما اضِطجعتُ في سريري. تقوقعتُ على جانبي ككرة واسترجعتُ في ذهني كيف تجمّع بقية الأولاد بقلق حول عدنان، كيف نظروا إليَّ شزرْرًا. كان كريم الوحيد الذي لم يُفاجأ، لأنه سبق له وأصدر رأيه، أو هكذا تراءى لي، بشأن نوع الشخص الذي أمثّله. حتى مسعود بدا مصدومًا، وفي الوقت نفسه مستمتعًا بإثارة الهرج والمرج حول كاحل عدنان المصاب. أما شقيقه الصغير علي، ففعل ما يفعله دائمًا عندما يربكه ظرف ما، بكى، ونظر مرارًا وتكرارًا إلى أخيه الكبير مسترشدًا به، في حين انكبّ عدنان على جرحه يتفقّده بجدّية وكأن الأخبار السيئة المتوقعة قد وصلت أخيرًا. لم يشجع هجوم أسامة عليَّ ولم يعترض، ولعله لم يلاحظه حتى. بيد أن "كريم" إن كان قد ظهر عليه شيٍء فيٍ ذلك اليوم، فقد ظهر عليه الارتياح، كما لو أن شيئًا مشكوكًا فيه، تمّ تأكيده أخيرًا. ومن يدري، لعل الشكّ أسوأ من الحزن، واليقين أثمن من الحب.

إسراع شريف لنجدتي قسم البحر، خلق تيارًا رجعيًا زاد في جرّيٍ بعيدًا عن كريم. فنحن دائمًا ننجرف مع ولاءاتنا؛ تلك التي نخلق عليها، وتلك التي تستدعيها الظروف، ملحفين

في تغريب أنفسنا. تذكّرتُ كيف أن "شريف" لما رفعني من على الرصيف ممسكًا يدي، تنهّد قائلاً، «سلومة» - هذا التحريف الحلو لاسمي الذي تستعمله عائلتي فقط، والذي لا أكاد أسمعه الآن - شبه هامس به، كأنه يستدعيني، يطالب بي. وتذكّرتُ أيضًا كيف أنه بعد دقائق قليلة أغلق باب سيارة الإسعاف وراء طيف عدنان المنبطح ومسدسه ناتئ من خلال فتحة سترته، متفهّمًا حنق أسامة، موافقًا معه على أنني لست بريئًا، وأن عدنان هو الضحية المطلقة وأنا الطفل القاسي، أو في أحسن الأحوال الطائش الذي وخز جلدًا غير قابل لأن يخيط نفسه بنفسه.

كانت الكدمة التي على مرفقي - والتي هي في وقتنا الحاضر بلون البنجر، صلبة وحلزونية مثل الجلد المحيط بعين فيل - تلسعني إلا أنها مع ذلك ملتئمة.

فيما أنا راقد في سريري حاولتُ جاهدًا تذكّر أسماء. ولم يخطر ببالي سوى أستاذ رشيد وناصر وموسى. كنتُ متيقنًا من أن هذا لا يكفي، ومع ذلك داعب الأمل صدري، ولم أطق الانتظار لأهرع إلى شريف. رفعتُ الحشية، أخذتُ الكتاب وجريتُ وأنا أردّد بدون صوت، رشيد ناصر موسى، كلتا يديّ متشبثتان بالكتاب، تعصرانه كما لو أنه سمكة تحاول الإفلات. لكن "شريف" لم يكن هناك. ولا الأولاد. وعلى التراب دائرة من آثار عجلات. لا بدّ أن "شريف" لحق سيارة الإسعاف ليطمئن على عدنان، بل ربما، قلت لنفسي، قرّر مرافقته. وقفتُ هناك يملأني الخواء. والأسماء رشيد ناصر موسى، تطنّ في رأسي، تتفقع على لساني، غير مألوفة لي البتة، وكأنني أسمعها للمرة الأولى.

الاهتمام. أعتقد أنه الاهتمام هو ما سعيتُ وراءه ورغبتُ فيه. اهتمام دافئ ثابت غير متبدل. في زمن الدم والدموع في

ليبيا المشبعة برجال تبقع أجسامهم الكدمات والرضوض، يلطخهم البول، ويعتمل فيهم الاضطرار الملحّ للغوث، كنت ذاك الطفل السخيف الذي يشتهي الاهتمام. وبالرغم من أنني حينذاك لم أفكّر في الأمر من هذا المنطلق، تحول إشفاقي على ذاتي إلى بِغض فاسد.

أعدتُ الكتاب إلى ما تحت الحشية في غرفتي وتقوقعتُ ثانية على جانبي. أصغيتُ إلى الصراصير التي راحت تزخرف الفضاء بأزيزها خارج نافذتي، كان الشحوب قد بدأ يتخلل لازوردية السماء العميقة الآخِذة في الاضمحلال. سمعتُ ماما تدخل الغرفة، فتظاهرتُ بالنوم. كان سريري ضيقًا، لا يتسع إلا لشخص واحد، لكنها وجدتْ لنفسها مكانًا قربي ودفنتْ وجهها في رقبتي. بدتْ كالأسيرة دائمًا، أسيرة في بيتها، وأخفقتْ باستمرار في قولبة نفسها إلى شيء آخر. غدتْ أنفاسها متقطّعة. أحسستُ بدموعها على جلدي، كان نفسُها دافئًا ومالحًا ونفّاذًا من أثر دوائها.

«ماذا أفعل؟» أنّتْ. «ماذا أفعل ماذا أفعل ماذا أفعل ماذا أفعل ماذا أفـ...»

«ماما،» قاطعتُها وقد أخافني صوتها الشبيه بعاصفة رملية.

«ماذا لو فشلوا أو لم يرغبوا في مساعدتنا؟» تساءلتْ بطريقة مفاجئة.

«مَن؟»

«هذا الجعفر وأمّ مسعود،» قالت بنبرة حادّة غاضبة أشعرتني أنني أستحق اللوم. «لا أريد أن أعيش إذا اضطررتُ إلى العيش هكذا.»

«عندما أكبر سآخذكِ إلى اسكتلندا. أعدكِ بحياتي.»

أعادني ذهني إلى الزمن الذي سُجنتْ فيه؛ فأيقظت

أوهامي المتعلقة بالمستقبل ذلك الحلم الأصلي: إنقاذ تلك الفتاة التي أصبحتْ أمي لاحقًا.

«ماما، أخبريني ماذا حدث بعد أن رآك خالي خالد في المقهى الإيطالي.» كانت هذه أول مرة أطلب إلى ماما أن تتحدّث عن الماضي. عادةً، عندما تكون مريضة، أبقى صامتًا كجدار، هامدًا كالمنوَّم ومُروّعًا.

لم تقل شيئًا.

أتراها تفكّر من أين تبدأ، تساءلتُ. أم تراها تتظاهر بأنها لا تعرف ما الذي أتحدث عنه؟

أخذتْ نفسًا عميقًا وبدأتْ تهمس في رقبتي. شعرتُ بارتياح عظيم يجتاحني. كان بإمكاني أن أستمع إليها إلى الأبد. أردتُ أن أستدير وأعانقها، لكنني خشيتُ أن يتغير كل شيء إذا تحركتُ. «خالتكَ نورة هي التي أخبرتني،» بدأتْ. «استرقتْ السمع على جلسة المجلس العالي الأولى،» قالت وكركرتْ تلك الكركرة الغريبة التي تقع في مكان ما بين الضحك والبكاء. فابتسمتُ لأنها عادت إلى أرضيتها المألوفة. «وجودنا بين سبعة إخوة كان لعنتنا. اجتمعوا كلهم مع جدّكَ. احتل خالد الصدارة طبعًا؛ فأخيرًا وجد الشاعر مَن يستمع إليه، وأخيرًا حظي بانتباه المنافقين الكامل، كما اعتاد أن يدعوهم لأنهم درجوا على الاستهزاء به، عجزوا عن استيعاب حسّه المرهف، أفكاره المعقدة، ذلك الشاعر الموهوب!» كانت مريضة حتمًا، إلا أن ذلك لم يهم على نحو ما. كان من الجيد أن أجدها هناك قربي، تعانقني وتروي لي القصص ثانية. حتى رائحة نفسِها المشبع بالدواء بدت مقبولة، بل أكثر من مقبولة. فقد ذكّرتني بالماضي. أصبحتْ جزءاً منا، جزءاً من القصص؛ لأنه إذا كان للماضي أي رائحة، فهذه هي رائحته؛ لاذعة، ثقيلة ونفاذة.

بدأت رقعة السماء المكشوفة من نافذتي تعتم. ثم تسللتْ غيوم شفيفة طلتها الشمس الهابطة باللونين البرتقالي والقرمزي في أثناء اجتراعها آخر نفس عميق قبل غرقها في البحر. كان النسيم الرحيم الذي وفد إلينا في وقت مبكر مِن المساء يتراقص حولنا بلطف. استرختْ أطرافي، وتمنيتُ سرًا ومن صميمي أن لا يعكّر صفونا شيء، أنِ يبقى الهاتف وجرس البابِ صامتين. بل حتى تمنيتُ أن يؤخر بابا موعد وصوله. كنتُ أنا وهي أسيرين، بيتنا والماضي سجننا، لكنه سجنٌ مألوف، غير مفعم بالحاجات المريبة والعزلة الباردة. تذكّرت الأولاد وسيارة الإسعاف و"شريف" فأحكمتُ قبضتي على ذراع ماما، راضيًا على نحو مبهم بالعالم المقدّر لي، ممتنًا لأنني ابنها، سعيدًا لأنها أمّ؛ لأن الشيخ مصطفى أكّد لي أن جميع الأمهات سيدخلن الجنة. وكم فوجئتُ من سلاسة انسكاب كلماته من فمي: «وعد الله الأمهات بالجنة لأن المعاناة التي تتحمّلها النساء تفوق جميع أشكال المعاناة الإنسانية.»

«ذات مرة، عندما كنتُ في عمركَ تقريبًا،» قالت تستأنف حديثها، «وقفتُ أدردش مع ابن جيراننا. قال شيئًا وضحكتُ، ورآنا جدكَ. ما زلت أتذكر لسعات سوط القنب وهي تطاردني على طول الشارع، والناس يرمقونني بعيون فيها فضول همجي، وعويلي الشنيع الخارج عن السيطرة، وأزيز السوط ورائي كأنه فواق، وصمتُ جدكَ الغامض وابتسامته المتكلّفة التي ترتسم على وجهه دائمًا في مثل تلك اللحظات. هربتُ إلى بيتنا وأنا أزعق. وعندما رأتني خالتكَ وجدّتكَ صرختا، رجتاه أن يتوقف. لم يردّ، واستمرّ يطاردني إلى فناء الدار. فعلقتُ هناك، حُصرت، ثم هبطت يده الثقيلة ككيس رمل على خدّي.

ذكّرني وصف ماما لابتسامة جدّي بابتسامة أستاذ رشيد

حينما فضّ العراك بين الطالبين في لِبدة، وابتسامة بابا حينما يتصل بنا ناصر في العيد.

«فيما بعد، عندما أخبر خالد جدّكَ أنّه ضبطني في المقهى الإيطالي مع رفقة مختلطة، حبسوني ثلاثين يومًا في غرفتي، وسارعوا يبحثون لي عن عريس. وبذلك حكم خالد على الزهرة، على ابنة الأربعة عشر ربيعًا، الصبية الساذجة الغبية بالسجن المؤبّد.»

«حبسوني في غرفتي شهرًا كاملاً،» تابعتْ ماما بصوت حالم. «شهرًا بأكمله،» همهمتْ وهي تشدّد التفاف ذراعها حولي، فغمرني شعور هائل بالحب لها. «عندما قالت جدّتك: ''ابقي هنا إلى أن تُراجعي ألف مرة ما اقترفتِه،'' خطرتْ شهرزادك على بالي. كانت كلمة ''ألف'' هي ما استدعى تلك المرأة التعسة إلى ذاكرتي. وعلى نحو ما، لم أشعر بالوحدة وأنا أفكّر فيها. أتذكّر أنني وعدتُ نفسي أن أقرأ المزيد من الكتب، أن أوسّع من خيارات انتقائها، لولا أن جزءاً من عقابي تضمّن حرماني من الكتب. ''لا تعطوها أي ذخيرة،'' قال جدِك. ''العقل الفاسد يحوّر كل شيء لمصلحته،'' كم افتقدتُ القراءة. كم افتقدتُ المدرسة. إلا أنني افتقدته هو أكثر؛ الفتى – لا أتذكّر اسمه حتى – الذي جلس قبالتي في المقهى الإيطالي. في ذلك اليوم، بعد أن دفع خالد ثمن الكابوتشينو وغادر المقهى، تأثرت إلى درجة أنني أمسكتُ يده فوق الطاولة، وليس خفية من تحتها كما درجنا أن نفعل هناك، حيث نحن عرضة لأن يرانا الجميع. كانت عيناي مغرورقتين بدموع السعادة الخالصة. وكان الفتى أكثر ارتباكًا مني – ليتني أتذكّر اسمه، لديه عينان جميلتان، ما زلتُ أستطيع إلى الآن رؤيتهما – من شدّة ارتباكه تضرّج وجهه بطريقة حلوة. فكّرتُ فيه في أثناء أسري، والتفكير فيه قوّاني. قلت لنفسي:

"كلّ هذا لا يهمّ لأننا هو وأنا موجودان في العالم نفسه، بأنهاره وبحاره وجباله ذاتها." أي بنت حمقاء كنت. قلت لنفسي: "لا يهم أين هو، ومهما حاولوا تفريقنا لن يمنعونا مطلقًا من أن ننظر إلى السماء عينها والقمر عينه، تدفئنا الشمس عينها." وكم تملّكتني غبطة عظيمة وشعرت بالانتصار على عقابهم كلما لمحت إحدى تلك الكائنات الأبديّة؛ الشمس، غيمة ما، وزرقة السماء. لكن في النهاية، كانوا هم من انتصر. ومنذ ذلك الحين تقلّصت ترسانة مخزوني الأدبي بسرعة، حتى شهرزاد أقدمت على خيانتي. وها قد بتّ الآن عاجزة عن قراءة أيّ شيء أطول من قصيدة شعر أو مقالة في جريدة. فالكتب تتطلّب الكثير من الأمانة.

«عندما أطلقوا سراحي يمّمت الحديقة لأمدّ نظري وأستنشق الهواء النقي. احتجاجي الوحيد خلال ذلك الشهر انصبّ على حرماني من الاستحمام. شعري المسترسل إلى ركبتي كان معقودًا أعلى رأسي ومهملاً. حطّت عيناي على أشياء في المدى وذابتا. تمكّني من مدّ بصري بدا شبيهًا بالتثاؤب. فاحت من تحت بلوزتي رائحة كريهة، والنتانة فاقت في قوتها عبق النسيم العليل. كانت مثل رائحة البطاطا المسلوقة. وتساءلت كيف ستكون رائحته في الليالي التي يتوجب عليَّ خلالها أن أضطجع تحته؟ ثم فجأة تحوّل نزوعي للبكاء إلى ما تراءى لي أنه غضب. لكنني الآن أدرك أنه كان حقدًا. شعرت أن قبضته المباغتة السريعة، قبضته العنيفة الموثوقة إنما هي قبضتي. وذاك ما حرّضني لأكلّم نفسي جهرًا كبنتٍ مجنونة، مفصحة عن أفكاري لأبي، أبي الذي لم أعرف أنه واقف في الطرف الآخر من الجدار يسمعني. حاججته بصوت عالٍ، كما لو أن ليبيا وعائلتي تقفان أمامي. "ماذا تريدها أن تفعلَ؟" قلت للريح، "تموت؟ تختفي من

على وجه الأرض؟ حرمتَها المدرسة، حبستها ثلاثين يومًا، وتريد الآن تزويجها لغريب ضخم الأنف. يا للغرابة!" ثم رأيته، رأيته يتقدّم نحوي بتلك الابتسامة الساكنة التي تسبق عقاب الضرب. كانت أقرب إلى تعبير ألم منها إلى الابتسام، وشفتاه المشدودتان أثّرتا على عينيه، فبدا كأنه نادم تقريبًا. آنذاك، استنزفتني حتمية المواجهة، لم أستطع حتى دفع نفسي إلى الكلام، إلى قول "لا،" ناهيكَ عن الفرار. تسمرتُ بلا حراك، قابعة تحت عريش كرمة العنب المتشابكة، تلك التي تُظلِل موضعًا فرشناه بالبسط، حيث نجتمع أحيانًا في وقت متأخر من العصر لنشرب الشاي ونحمّص اللوز، ونستمع إلى جدّتكَ تسرِد علينا أقاصيص *ألف ليلة وليلة*.»

شعرتُ بقلبي ينقبض خوفًا عليها. أتراه انقضّ عليها بتلك اليد الثقيلة ككيس رمل، تساءلتُ.

«إن مناقشة أنف خاطب تقترح وجود الرغبة، وهو إيحاء فضّلتُ الموت على طرحه في حضرة جدّكَ الحاج مفتاح.»

أحبّتْ ماما الإشارة إلى أقربائها على حسب صلتي بهم: أبوها كان «جدّك،» وأخوها «خالك.» ولطالما جعلني هذا أحس أنني مسؤول، كما لو أن تبعة تصرفاتهم تقع على عاتقي، وجعل واقع غيابهم الكامل عن مسرح حياتنا أمرًا بالغ الغرابة. كان بيت جدّي في بنغازي، لأن العائلة من هناك، وهي على مسيرة اثنتي عشرة ساعة منا، وهناك أيضًا عاش أخوالي وخالتي نورة وذرّياتهم التي تفوق العدّ والحصر. ودرجتُ على الاعتقاد أنهم لم يكونوا يزوروننا بسبب بعد المسافة، ثم اكتشفتُ فيما بعد أن تورّط أبي السياسي هو ما أفزعهم. كان الناس أحيانًا يُعتقلون لمجرّد وجود صلةٍ ما بينهم وبين مَن هم موضع اتهام. في ذلك الزمن بدا لي الأمر طبيعيًا، كما هو حال معظم الأمور في الطفولة، لكن إذ أعاود

التفكير فيه الآن، أدركُ مدى ما كنا عليه من عزلة حينذاك.

«البنت العفيفة المستقيمة الشريفة،» أكملتْ ماما، «عليها أن تهتم فقط بشخصية الخاطب، لا بأنفه. وقلتُ لنفسي إن عقابي بالضرب حتمي الآن. لولا أنني لاحظتُ شيئًا ما في مماطلته، وتهيأ لي حينها أنه يتلذذ بالأمر. وشعرتُ بالحقد يشدّد الخناق حول قلبي. ثم جلس بجانبي، لفّ ذراعه حول كتفي وتكلم بنبرة لم أسمعها قطّ من قبل. في تلك اللحظة اكتسبتْ ابتسامته الغامضة معنى جديدًا. ولأنها في السابق اقترنتْ دائمًا بجلد السياط، اعتدتُ على تأويلها كتعبير ندم على شيء يشعر أنه مضطر إليه، وأن حتمية الحالة تتسبب في زعزعة روحه بسبب التناقض بين الحب والعدالة. ما ظننتُ قطّ أنه استمتع يومًا بضربي. بل، وبالرغم من أنني دائمًا عارضتُ عقابه، آمنتُ أيضًا أنه ربما، بسبب خلل قديم حالَ دون أن يسوي الآباء والأبناء خلافاتهم، يجب أن أتحمّل تسلّم نصيبي منه، كما يتحمّل هو نصيبه من توزيعه. ولذلك اعتدتُ ترجمة ابتسامته باعتبارها ابتسامة رجل منزعج، ممزق بين الواجب والرغبة؛ بين ما يفضّل أن يفعله وما يجب أن يفعله. بهذه الطريقة أنقذتُه في ذاكرتي، لأنني لم أشكّ يومًا في حبه لي. لكنني رأيتُ في ابتسامته ساعة جلس بجانبي معنى آخر. رأيت أنها ارتسمتْ لتهدئ هي وصوته الحاني وعناقه من روعي. فبكيتُ. بكيتُ لأن رحمته كانت أخشن من قسوته؛ بكيتُ لأنني أدركتُ أنني صرتُ من أملاك رجل آخر، وأن ضربي ما عاد من الامتيازات التي تحقّ له. حينها، رأيتُ في تلك الابتسامة المخنوقة وداعه لي.

«"أيُعقل أن أبيعكِ؟" قال لي وهو جالس بجانبي تحت عريش العنب المتشابك. "أيُعقل أن أعطيكِ إلى رجل لا يستحقكِ؟"»

«هكذا عرفتُ أن كلّ شيء انتهى. أن كلمةً أُعطيتْ وكلمة لاقتْ قبولاً، كلام رجال من المستحيل التراجعِ عنه أو تبديله. كفّتْ عِيناي عن التثاؤب. صار بإمكاني أن أركز نظري جيدًا. تذكّرتُ ضربه لي وشعرتُ بظهري يستقيم، يطول، بمجرّد إدراكي أن ذلك انتهى إلى الأبد. أطرقتُ أنظر إلى ركبتي تلامس ركبته ودهشتُ كم أن جسم الإنسان مطواع وقادر على التحمل.»

تذكّرتُ كيف استطال ظهري أنا أيضًا واستقام بعد أن توقّفتْ السيارة البيضاء عن ملاحقتنا. ثم فكّرتُ بأستاذ رشيد – لم تكن لدي أي فكرة عما كان بابا يعانيه – كيف أنه محبوس وجسمه وسخ ومبقّع بالكدمات. ربما هو أيضًا يجلس الآن قرب أحد مستجوبيه، وفجأة ولدهشة أستاذ رشيد المطلقة، يلفّ الرجل ذراعه حول كتفيه المهروستين، ثم يبتسم لنفسه. وربما هو أيضًا نظر إلى الأسفل، إلى فخذيهما المتجاورتين واعتراه الذهول من قوة الجسم البشري. تحسّستُ صدري، في المواضع التي استهدفتها طعنات يدي أسامة، ومع أنها آلمتني بدا لي وجعُها طفيفًا؛ أخفّ حدّة.

أطلقتْ الجداجد في الحديقة صريرها، وعلى نحو غير متوقع تعالى شدو طير، ثم كما لو أنه أُحرج لِما فطن إلى أنه يشدو منفردًا صمت. بعد فترة قصيرة أصبحتْ أنفاس ماما عميقة وطويلة، وفيما استغرقتْ في النوم، تراختْ ذراعها التي ما زالت تلفّ خصري. تخيّلت ماذا كنتُ سأفعل لأنقذها. ورأيتُ في أحلام اليقظة أنني أنقر على نافذة الغرفة التي احتجزت فيها فأساعدها على القفز. ثم نهرب إلى مكان ما، حيث لا يمكن لأحد أن يعثر علينا. ولنتفادى ثرثرة الناس نزعم أننا شقيقان، لأنني سأكون في التاسعة من العمر وهي في الرابعة عشر. وسأصنع أصابع السمسم وأبيعها للأطفال،

أوزعها على دراجتي النارية الكبيرة. وأشتري لها كتبًا بالمال الذي أجنيه. ثم تجتمع ذات يوم بفتى المقهى الإيطالي - ربما عند شاطئ البحر أو في مقهى، أو في طابور انتظار أمام مخبز - فتقع في حبّه ثانية. وأمرّ من أمامهما عدة مرات على دراجتي النارية وأرى أيديهما متشابكة فوق طاولة في مقهى، على وجهيهما ابتسامات عريضة صامتة. وبعد أن يجدا العديد من الأسباب ليبقيا معًا، وتكون كتب الدنيا كلها قد قُرئتْ، يأتي دوري لأولد. وهكذا واصل خيالي تدوير الحكاية في رأسي - أنقذها، أهرب معها، ثم أعود لأنقذها من جديد - إلى أن ضفر النوم نفسه حولي فوقعتُ أسير شباكه ووهج أمل دافئ غامض ينتشر في أعماقي.

١٧

في الصباح التالي وثبتُ من السرير لحظة فتحتُ عينيّ. كنت ما زلتِ قادرًا على الإحساس بملمس ذراع ماما الملتف حولي. بادرتُ قبل كل شيء إلى الاغتسال – أمر لطالما دُفعتُ إلى القيام به دفعًا – ثم لبست بنطالاً قصيرًا وقميصًا قطنيًا وصندلاً. وجدتها مستيقظة وجالسة إلى طاولة الفطور والصحيفة منشورة أمامها. قبّلتُ يدها وأخذتُ أدردش.

«متى سنذهب في مشوار بالسيارة؟ دعينا نقصد سينيور آل كالزوني.»

حطّت إصبعا تحت السطر الذي كانت تقرأه وقالت، «لماذا لا تذهب وتلعب مع رفاقك يا حبيبي؟»

لم أرد رؤية الأولاد. لذلك مضيتُ لألعب في ورشتي على السطح لبعض الوقت. ثم انتابني قلق عليها، فنزلتُ أبحث عنها. لم أجدها في المطبخ، وكان باب غرفة نومها مغلقًا.

«ماما؟»

تهيأ لي أن الصمت الذي أطبق قبل أن تتكلم كان لانهائيًا.

«نعم،» أجابت.

لم أجد ما أتحجج به.

«ماذا تريد؟» سألتني بصوت لم أحسّه مطمئنًا. فألحّتْ عليّ غريزتي لأدخل وألازمها.

«هل تعرفين كم الوقت؟»

«الوقت؟!» استوضحتْ، ثمّ سمعتها تقول لنفسها، «يا له من سؤال!» ثم تنحنحتْ وقالت بصوت أعلى مما ينبغي، «إنها

التاسعة. اذهب والعب.»

عدتُ إلى الحديقة وكمنتُ في فيء شجرة الصمغ. كان نور الشمسِ ينفذ من بينِ الفروع والأوراق ملهبًا أطرافها. استرجعتُ حلمًا أبصرتُه في إحدى الليالي. عاد لي من حيث لا أدري. كانت ماما مريضة من جديدٍ، وكانت تسخرِ مني لأنني لا أستطيع أن أمشي. عندما نكستُ بصري رأيتُ أنني بلا ساقين. سمعتها تكركِر بتلك الطريقةِ المجنونة التي تفعلها عندما تمرض. ثم اكتشفتُ أنني قدْ اكتسبتُ جناحينِ؛ جناحين بطول شارع التوتِ. حينها صفقتْ يديها وضحكتْ بشدّة حتى دمعت عيناها. تذكّر الحلم أعطاني عذرًا وجيهًا لأهرع إليها ثانية.

فتحتُ بابها بدون أن أقرع. أبصرتها راقدة فِي السرير والصحيفة بمتناول يدها. فبادرتها قائلاً، «تذكّرتُ الآن حلمًا، هل يمكن أن تفسريه لي؟» وعندما قاطعتني لم أكن قد وصلت في قصّ حلمي إلا إلى «وكنتِ مريضة.»

«لماذا تستحضر الكارثة؟»

«لستُ أفعل. إنه حلم.»

«لا تدعِ مثل هذه الأفكار السيئة تسيطر عليك.»

أطرقتُ أواجه الأرض. «ماذا ستعدّين للغداء؟»

«الغداء؟ الوقت مبكِر جدًا على الغداء. هل أنت جائع؟»

«لا،» قلتُ وتركتُ الغرفة.

*

كنتُ أتجول فِي الحديقة عندما لمحتُ "شريف" يتكلّم مع أستاذ جعفر. جريتُ إلى غرفتي، سحبتُ الكتاب من تحت الحشية وانطلقتُ خارجًا. وقفتُ قريبًا منهما غير راغب في مقاطعة حديثهما، ولكنني في الوقت نفسه لم أكن قادرًا على ضبط

انفعالي. نظرا معًا إليَّ.

«ماذا تريد؟» سألني أستاذ جعفر.

هززتُ رأسي بالنفي وانصرفت. وضعتُ الكتاب على الرصيف أمام بيتنا وجلستُ عليه متظاهرًا بالرسم على الرمل. رأيتُ "شريف" يومئ برأسه عدّة مرات وأستاذ جعفر يتكلّم ويشير إلى بيتنا ثم بيت أستاذ رشيد. أخيرًا لوح بيده في وجه شريف كما لو أنه يقول له، «هيّا انصرف.» وما لبث أن توارى في بيته المعتم.

لما ركب شريف سيارته ذهبتُ إليه.

«هذا هو الكتاب الذي أخبرتك عنه،» قلتُ وأنا أسلمه *الديمقراطية الآن*.

أخذه، قلّبه بين يديه ثمّ أعاده.

«إنه من أستاذ رشيد لبابا.»

«ممم،» همهم بدون اهتمام.

«انظر،» هتفتُ وأنا أفتح الكتاب وأشير إلى الإهداء، فتملاه بعينيه. «عندي أسماء أيضًا.» إلا أنه لم يظهر عليه أنه يعرف ما كنتُ أتحدث عنه أو حتى يكترث له. «أسماء تشهد لمصلحة بابا. هل نسيتَ؟ لدي اسم رشيد،» أردفتُ مشيرًا إلى بيت أستاذ رشيد. «وناصر وموسى.»

«لا شيء جديد،» قال بنبرة نزقة، ويده تحاول الوصول إلى المفاتيح ليشغّل المحرك. من حيث وقفتُ تمعنتُ في الخطّ الذي تنتهي عنده جلدة شفته السفلى السمراء الجافة، ويبدأ ظهور اللحم الطري الأكثر شحوبًا في باطن فمه. تأملتُ آثار الجدري اللانهائية المحفورة على خدّيه، كل منها بحجم وشكل مختلفين، البشرة داخلها لامعة وأفتح درجة في اللون. شغّل المحرك. «لو كنتُ مكانك لما قلقت،» قال. «كان أبوك متعاونًا جدًا، وذاب مثل الزبدة.» ثم أشار نحو بيت أستاذ جعفر.

«والآن جاءت يد جبارة لتنقذه.» كنتُ متكئًا على السيارة، «تحرّك،» نهرني وانطلق بدون أن يودعني.

بقيتُ واقفا في الشارع، وقد التبس عليَّ فهم ما عناه شريف بـ «متعاون،» و «ذاب مثل الزبدة.» كانت الشمس قد قضمتْ الفيء كله، ملهبة تربة شارعنا. شعرتُ أن إبقاء عينيّ مفتوحتين يحتاج إلى جهد. دخلتُ بيتنا، ممتنا لفيئه البارد، ممتنا لسقفه، ورحت أطرف وأطرف لأزيل لطخات الضوء التي دُمِغتْ في شبكيتي عينيّ.

*

في وقت لاحق من ذلك اليوم جاء موسى. كان في حالة اهتياج شديد وبدا غير قادر على الاستقرار في مكان واحد.

«قلِبتْ طرابلس رأسًا على عقب. اعتقلوا الجميع، جمعوهم كالخراف.»

«أين فرج؟»

«لا أعلم. افتحي التلفزيون. رشيد، رشيد سيحاكَم... *سيحاكَم*؟ هه... يا للأوغاد.»

«متى، متى؟» سألته ماما وقد انتقلتْ إليها عدوى قلقه.

فتح التلفزيون في غرفة الجلوس وجلس على الكنبة. جلست هي بجانبه. وكلما حاولتْ أن تقول شيئًا رفع يده في الهواء.

ظهر أستاذ رشيد وهو قاعد وثمة ضوء مسلط على وجهه. كان البثّ إعادة لما رأيته سابقًا خلال فترة القيلولة، لكنه الآن يُبثّ في المساء، ولا بدّ أن العالم بأسره صاحٍ ليراه. «هل كنتَ حاضرًا في الاجتماع؟» تردّد أستاذ رشيد قليلاً ثمّ أومأ برأسه وقال، «نعم، كنتُ حاضرًا.» ثمّ كرّر، «حاضرًا،

حاضرًا،» بصوت عالٍ بما يكفي ليزيل أي شكّ. تغيرتْ الصورة بعدئذ، لم يظهروه وهو يقول «لا» عندما ذُكر اسم بابا. بدلاً من ذلك أظهروا رجلاً يجلس إلى مكتب تكاد الأوراق تغطي سطحه. قبع الرجل كمراسل الأخبار. لكنني عرفت من ملابسه وشعره المجعد المنفوش كأنه خوذة أنّه من أعضاء اللجنة الثورية. «العناصر السيئة،» قال بتلك النبرة العاوية المجلجلة التي تُعلن بها عادةً بيانات اللجنة الثورية. «الخونة الذين يحتقرون ثورتنا ويضمرون لها الحقد تمّ ضبطهم. نحن، اللجنة الثورية، حراس الثورة، قبضنا على جميع أعضاء هذه المجموعة المضللة وأولئك الذين موّلوهم وآووهم، وسوف نعاقبهم عقابًا عسيرًا.» نظر الرجل مباشرة إلى عدسة التصوير وأضاف، «هُزم العدو هزيمةً نكراء. عاش القائد. عاشت ثورة سبتمبر.» ثم وإذ بقيتْ الكاميرا مصوّبة عليه مدة أطول مما ينبغي، صاح، «كفى، انتهيت.» بعدئذٍ، اسودّتْ الشاشة بضع ثوان قبل أن تظهر الأزهار المعهودة، مصحوبة هذه المرة بالأناشيد الثورية.

كنتُ أقف في المدخل، المدخل نفسه الذي وقف فيه شريف؛ شريف الذي عاد بدون شكّ إلى الجلوس في سيارته خارج بيتنا، وفيًا، أبديًا، واثقًا من مكانه في العالم، مثقلاً برائحة الرجولة. دخلتُ الغرفة، وتربعتُ على الأرض بين الكنبة والتلفزيون. لا أحد منهما طالبني بالمغادرة. قعدنا نراقب الأزهار الوردية، ونستمع إلى أغاني الثورة المفعمة بالثقة، ثم، وبدون تعليق أو تفسير عاد البث. كل ما استطعنا تمييزه هو سماء الليل المظلمة، وفي أسفل الشاشة رؤوس تلمع تحت الأضواء. همس أحدهم، «زوِّم،» ثم وبصوت حانق، «عدّل التزويم.» تأرجحتْ الكاميرا نزولاً فما عدنا نرى سوى الأرض الأسمنتية. ظهرتْ قدم في الصورة. اجتليت درزات

خياطة رثّة في حذاء جلدي أسود لرجل ما، ورسم نسر باسط جناحيه على الإبزيم المعدني الضيق الذي اخترق مقدمة الحذاء. «قلتُ عدّل التزويم يا مغفل. تحرّك.» خرجت القدم من الصورة وتحركتْ الكاميرا نحو الأعلى وصغّرتْ التزويم.

«إنهم في ملعب كرة السلة الوطني،» قال موسى بصوت خافت لماما أو ربما لنفسه.

«أيّ واحد؟ أين؟»

«الجديد الذي على الطريق إلى المدينة.»

«وماذا يفعلون هناك؟» سألته ماما رافعة من صوتها.

كانت الاستجوابات تُجرى دائمًا في قاعات بلا نوافذ. لم يقل موسى شيئًا، وأنا خوفًا من أن ترسلني ماما لأتمرّن على السلّم الموسيقي، لم أنظر إلى الوراء.

كان ملعب كرة السلة الوطني مكتظًا. جالت الكاميرا بين الصفوف، ما من مقعد واحد شاغر. معظم الحاضرين لبسوا شيئًا أخضر؛ قميصًا، ربطة ذراع أو ربطة رأس. من ترانا نلاعب؟ تساءلت في سرّي. لم تكن كرة السلة باللعبة التي أحب، لكنني كلما لعبتْ ليبيا ضد بلد آخر، بغضّ النظر عن اللعبة أو الرياضة، تسمّرتُ أمام التلفزيون، بل التصقتُ به. مرة جلستُ أمامه لست ساعات أتابع مباراة شطرنج بين ليبي وكوري في بطولة الشطرنج الدولية في موسكو. عندما ربح الكوري كدتُ أبكي قهرًا.

أخيرًا اتجهت الكاميرا إلى المحكمة. كانت ثمة طاولة طويلة في مركزها، ومَن وضعها تأكّد حتمًا أن منتصفها متطابق مع خط القاعة المركزي. كانت منسّقة بدقة بالغة لتحاكي طاولات المؤتمرات الصحافية. سطحها جُلّل بعناية بمفرش أبيض، ومن مقدمتها تهدّل نسيج أخضر بلغ الأرض تمامًا وأخفى أقدام أعضاء اللجنة. كان هناك ثلاثة أشخاص

جالسين إلى الطاولة الطويلة؛ رجلان وامرأة. وأمام كل منهم قنينة ماء وكوب فارغ، إضافة إلى مكبّر صوت أمام الرجل الذي في الوسط، والذي نقره مرتين، ثم بدأ يقرأ من ورقة في يده.

«القائد الثوري الأوحد للانقلاب العالمي من أجل حضارة جديدة، معمر القذافي، قائد الشعب الليبي، رمز الأمل والحرية، ابن الصحراء...» رفع عينيه عن الورقة ونظر إلى الحشود يفحص مزاجها، «...لأنه،» تابع رافعًا صوته ومشيرًا بسبابته نحو السماء، «لأنه في الصحراء وُلد قائدنا، في الصحراء كلّم الله موسى، في الصحراء سمع النبي إيليّا صوت الله الساكن يأمره بمواجهة طغيان حاكم مستبد، في الصحراء هيأ السيد المسيح نفسه بالصوم والصلاة من أجل مهمةٍ أعادت صياغة التاريخ الغربي، في الصحراء اختلى النبي محمد بِنفسه ليتدبّر في الخلق وفي أحوال قومه المحزنة،» - حرصت وهو يذكر أسماء الأنبياء على أن أقول عليه الصلاة والسلام بعد ورود اسم كل واحد منهم، لكن ماما وموسى لم يفعلا - «وفي الصحراء وُلد وعاش وحلم وتفكّر زعيمنا، القائد، منقذ الأمة، معلّمنا العظيم والمحسن إلينا، أبو ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة، معمر القذافي.»

هاج الحشد وماج وتعالى هتافه. ثم همس صوت، «استدر، استدر،» فحوّل المصور عدسة الكاميرا نحو الجمهور الذي صفّق سعيدًا. بقي كلّ من ماما وموسى ساكنين وصامتين. «هذا القلب الأطهر...» حاول الرجل متابعة القراءة. نظر إلى الورقة، رفع يده عاليًا مكوّرًا قبضته، ولكم الهواء بطريقة إيقاعية. «هذا...» استحال عليه قطع عواء الجمهور المبتهج. «هذا القلب..» أكمل بصوت يشبه صفارة إنذار عالية التردّد، مثل صوت الشيخ مصطفى عندما يجيش

بالعواطف في أثناء خطبة الجمعة. «هذا القلب الأطهر، شعار التفرّد، رمز الشجاعة والإخلاص وحرية الإرادة، قائدنا الكلي والمحسن إلينا الذي يدأب على تعليمنا الاقتداء به، قد انتصر.» للحظة فقدَ الرجل صوته. صبّت له المرأة التي عن يمينه كوب ماء. أخذ منه رشفة وتابع، «أيها الناس، أيها الحضور، إخوتي وأخواتي اليوم يوم الظفر. اليوم هزمنا العناصر المخرّبة التي حاولت تقويض إنجازاتنا وإعاقة مسيرتنا.» تدافع الناس الذين ازدادوا ابتهاجًا وتهليلاً، متلهفين للتعبير عن التزامهم. حاول أحدهم أن يقول شيئًا للمصور. لم يستطع سماعه وصاح، «ماذا؟» في تلك اللحظة اتحد الهتاف وتحول إلى الهزج، حتى المصوّر والرجل الذي بجانبه انضما إلى المنشدين: *الفاتح، ثورة الجماهير! الفاتح، الجماهيرية!* ثم سيطر الهتاف الفوضوي مرة أخرى قبل انبثاق أهزوجة أخرى: *بالروح! بالدم! نفديك يا قائد!* تحرّكت الكاميرا، عتمت الصورة لحظة، ثم تحول المشهد نحو إحدى شبكات كرة السلة، صُغر التزويم بسرعة وصُوبت العدسة على لوح تثبيت السلة، ثم نزلت إلى الأسفل وحطّت على رجل جلس على كتفي رجل آخر، وكافح ليربط حبلاً عند اللوح. وبعد هنيهة وكز الرجل الذي تحته بكعبي حذائه فتحرك. عندما أصبحا خارج الصورة زوّم المصور الكاميرا على حبل متدلٍ يتأرجح خلف لوح تثبيت السلة وفي نهايته أنشوطة.

نظرتُ ورائي إلى الكنبة. رأيتُ ماما وموسى يجلسان منتصبين. يدا موسى متشابكتان بين ركبتيه، وعلى وجهه تكشيرة متجهمة. أما وجه ماما فبدا خاليًا خلوًا تامًا من أي تعبير. ولم يسبق لي قط أن رأيته في يوم هكذا؛ لا يفصحُ عن أي شيء إطلاقًا. تذكرتُ لما أرانا أستاذ رشيد أنا وكريم ذات مرة كتابًا فيه صور قديمة جدًا من الفيوم. كانت صورًا جميلة

إلا أنها احتوت في الوقت نفسه على شيء مستهجن. ثم أخبرنا أستاذ رشيد كيف صُنعت. «لأنهم لم يملكوا آلات تصوير في تلك الأيام،» قال، «كانت العائلة عندما تفقد عزيزًا تحضر رسامًا ليرسم له صورة. وبما أن أحدًا لا يحبّ أن يتذكّر الميت ميتًا، يبذل الرسام جهده ليظهِر الميت حيًا. ولذلك جعلوهم بوجنات وردية جميلة، وعيون كبيرة مستديرة، بل أحيانًا بهرجوهم بتيجان من الياسمين أو أوراق الزيتون.» هكذا بدت ماما في تلك اللحظة، مثل صورة من صورِ الفيوم. هامدة، واسعة العينين، جميلة، ولكن بلا حياة. تذكّرت تعليق أستاذ رشيد الغريب حينذاك: «إذا نظرت جيدًا تستطيع رؤية شبح الموت في الصورة. إنها صور فريدة، فرادتها تكمن في أنها كلها بدون استثناء مفرغة من الرغبة.»

كان هتاف الحشود وزئيرها صاخبًا وهستيريًا ومتواصلاً إلى درجة أنه انصهر في همهمة غير منقطعة، كهمهمة مكنسة كهربائية عملاقة. عندما هدأ الناس عادتْ الكاميرا إلى منصّة المحكمة. وهناك، رأينا أنه قد ظهر رجل آخر أمام اللجنة، على بعد بضعة أمتار منها. كانت يداه مكبلتين وراء ظهره، يجلس متربّعًا على الأرض أمام مكبّر صوت على منصّة، وعيناه لا تكفّان عن النظر إلى الحبل خلفه.

«ذاكْ هو،» صاح موسى.

كبّرتْ الكاميرا المشهد، وصار بإمكاننا أن نرى أن الرجل المقيد المتربّع على أرضٍ ملعب كرة السلة الوطني هو أستاذ رشيد؛ جبهته تنضح عرقًا، وشارباه مخضلان بالعرق أيضًا، وخدّاه فضضتهما الدموع. لم يبك بكرامة، بل ناح كطفل. نظر خلفه إلى الحبل، ثم إلى أعضاء اللجنة الذين كانوا على أحد جانبيه، وقال شيئًا غير مسموع. «استخدِم مكبر الصوت،» أمره الرجل الذي في الوسط.

التفت أستاذ رشيد ورأى رجلاً يأتي من المؤخرة. جلّى ببصره إليه، حاول أن يقول شيئًا. ولو اضطررت إلى تخمين ماذا قال، فأعتقد أنه شيء مثل: «أقبّل قدميك، بحق الله، بحق والديك،» لأنه ساعة وضع الرجل يده على مكبّر الصوت ليضبطه حاول أستاذ رشيد تقبيلها. ولما ابتعد الرجل نظر أستاذ رشيد إلى الوراء باحثًا عنه.

«ماذا لديكَ لتقوله دفاعًا عن نفسكَ؟» قال الرجل الذي في الوسط.

نظر إليه أستاذ رشيد وبكى مرة أخرى. تحرّى الحبل المعلّق ثمّ التفت إلى الرجل، وتضرّع إليه وهو يرفع حاجبيه ويزمّ شفتيه كالطفل المذنب.

«إننا نعطيكَ فرصة للدفاع عن نفسك. إذا كنت بريئا تكلم،» أردف الرجل وهو يفترّ عن ابتسامة عريضة، ثم رجع بظهره إلى الوراء ونظر إلى المرأة والرجل الجالسين إلى جانبيه، واللذين بدا عليهما أنهما فهما طرفته.

«برِيء، بريء... بريء.» ردّد أستاذ رشيد الكلمة مستمسكا بها.

«لكن لدينا اعترافكَ هنا،» صاحت المرأة التي مع اللجنة عبر مكبّر الصوت. هاج الحشد. مال الرجل الذي في الوسط نحوها وبدا كأنه يقول، «دعيني أتولى هذا.» فهزّت رأسها بوقار موافقة وهي تسوي بلوزتها، ثم فجأة ظهرت عليها معالم دهشة وسرور، وأخذت تلوح لأحد ما بين الناس.

«أتقول إنكَ لم تعترف؟» سأله الرجل وهو يحمل ورقة بيده.

هزّ أستاذ رشيد رأسه نافيًا، ثم أومأ به موافقًا، وامتعضت قسماته ثانية فيما مال برأسه جانبًا. «أعترفُ، أعترفُ،» كرّر، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا وتنهّد، «أعترفُ،» قال من جديد، كما لو أنه

احتاج إلى سماعها مرة أخرى وهو متربّع تحت الأضواء القاسية على أرض ملعبنا الوطني الجديد لكرة السلة بكلّ تموجاتها وألوانها. الملعب الذي صُمّم وفق أعلى المستويات الدولية. ثم بدا وكأنه يفيق. نظر إلى اللجنة. «الرحمة،» قال، مائلاً برأسه مكررًا الكلمة عدة مرات، ومتحريًا الحبل وراءه قبل أن يعاود البكاء.

جنّ جنون الحشود، كما لو أن تلك الكلمة المُفردة حملتْ الدليل القاطع الذي ينتظرونه. طار حذاء في الهواءٍ وحطّ قربه. حملق إليه، ثم رمق الجماهير وبكى، كرّر شيئًا غيرِ مسموع. لعله كان يقول، «الرحمة،» أو «أعترفُ،» أو «بريء،» أو لعله هو أيضًا لمح في الحشود شخصًا يعرفه، وجه صديق ربما.

جاء رجلان من خلفه وشدّاه من تحت ذراعيه. كان لا يزال مرتديًا ذلك القميص الأبيض شديد الاتساع عليه، القميص الذي ظهر به في أثناء استجوابه المتلفز. بدا كأنه يستجدي الرجلين اللذيْن قاداه نحو الحبل المتدلي. ذكّرني بطريقة مقاومة امرأة خجول لصديقاتها وهن يدفعنها للرقص؛ ترفع كتفيها إلى أذنيها وتلوّح بسبابتها بعصبية أمام فمها. بدأتْ الحشود تقفز، تقفز وتعوي، *اشنقوا الخائن! اشنقوا الخائن!* عندما أوقفه الرجلان تحت الحبل حاول ثانية أن يقبّل يدِ أحدهما. غدتْ شفتاه رقيقتين كحلوى عروق السوس عندما تُمطّ من نهاياتها. أشارِ شخص ما خلفه بلهفة طلبًا للمساعدة، ثم ظهر سلّم. كان سلّمًا عريضًا متينًا من الألمنيوم. لمع تحت الأضواء الساطعة وبدا أنه جديد لم يستعمل من قبل، بل ما زالت أشرطة البلاستيك الممزق عالقة بقاعدتيه. أُرغم أستاذ رشيد على تسلّقه. عند كل درجة توقّف وطلب الرحمة. بيد أن دفعه إلى الأعلى تواصل ولكن برقّة غريبة، مجرد وكزة خفيفة

على مرفقه. ثم بعد مرتين أو ثلاث مرات، عيل صبر الرجل الذي دفعه، فصعد إليه وجذبه من ذراعه. عندما أصبح أستاذ رشيد في منتصف طريقه إلى الأعلى، لامس الحبل وجهه، فطرف بعينيه. وهنا وضع الرجل الحبل حول عنق أستاذ رشيد وشدّه. ثم صفع الهواء قريبًا من أذنه كما لو أنه يقول، «أرأيتَ، انتهينا،» أو «أترى كم هذا سهل؟» ونزل. حينئذ تهالك جسم أستاذ رشيد قليلاً.

«إنه يغيب عن الوعي،» قال موسى بذلك الصوت البطيء الممطوط الذي لازمه طوال الوقت وهو يعلّق على الحدث.

لم تقل ماما شيئًا.

كان موسى محقًا، فقد زلّتْ قدم أستاذ رشيد من على السلّم وثبّته الحبل في مكانه. أدّى هذا إلى تزايد هياج الجمهور الذي أصبح مستعدًا. دُعم أستاذ رشيد، صُفع مرتين، ثم أُدير نحو الكاميرا. لاحظتُ أن بنطاله قد تبلل، وشيئًا ما أصفر سال من فمه وأخذ ينمو وينمو. لا أحد مسحه له، لا أحد جلب له كوب ماء، أو فرشاة أسنان ومعجونًا ليغسل الأسيد الحارق النهم. وهو لم يهزّ رأسه تقززًا، إنما تصرّف وكأنه مستريح على نحو غريبٍ مع قيئه.

اتجهتْ الكاميرا إلى المشاهدين. كانوا يلكمون الهواء ويهتفون. وتعالت زغاريد بعض النسوة. ثم فجأة، كموجة تعلو وتتصاعد، اشتدّ الهتاف وازداد حدّة وضراوة. اهتزّت الكاميرا واستدارتْ بسرعة، رأينا أستاذ رشيد متدليًا من الحبل، وسلّم الألمنيوم اللامع على بعد متر أو مترين منه، أبعد بكثير من ساقيه المتأرجحتين. تدافع الناس إلى المحكمة، بعضهم قذف أستاذ رشيد بالأحذية، تعانق رجلان وتعلّقا بكاحليه، ثم لوحا للآخرين ليأتوا ويفعلوا مثلهما. كانا مثل طفلين راضيين عن أرجوحة نصباها الآن. عمّتْ السعادة الجميع. نظرتُ ورائي.

فوجئت بخدي موسى اللذين فضضتهما الدموع، موسى الذي ما رأيته يبكي من قبل قطّ. أما ماما فاستمرّت تحدق في التلفزيون بوجه خالٍ من الحياة. التفتُ لأتابع المشاهدة. بعد عدة ثوان أخرى منً الفوضى عادت الأزهار؛ ساكنة وورِدية ومصحوبة بالنشيد الوطني الذي صدح بثقة. وعندما التفت إلى الوراء ثانية اكتشفتُ أن ماما وموسى قد ذهبا.

*

وجدتُها جالسة إلى طاولة الفطور تدخّن سيجارة من سجائر موسى. وهو يملأ إبريق الشاي بالماء. أخذتُ مكاني إلى جانب ماما.

«جنون،» تمتمتْ والسيجارة ترتعش في يدها. تراءى لي أن الصمت الذي خيم بعد تعليقها يوافقها الرأي. «كان عليه أن يقول شيئًا بدلاً من استعطافهم.» أضافت.

وضع موسى الشاي على الطاولة.

«هل رأيتَ كيف تصرّف الناس؟» قالت ماما.

«جنون،» أكّد موسى.

وعلى هذا النحو راحا يوغلان في تفاصيل ما شاهدناه، كأنهما وجدا سلوى في استرجاع الحدث. أشرتُ إلى بنطاله وكيف تلطّخ بالبول. لم تلاحظ ماما ذلك، أما موسى فلاحظه. وسررتُ لأنه أيّد أقوالي. ولأنها لاحظت القيء، أبدتْ ميلاً إلى الاقتناع بأننا مُحقّان بشأن البول.

«مسكينة سلمى،» قالت.

«الله يعوضها ويلهمها الصبر والسلوان،» أضاف موسى.

«آمينٍ،» ردّت ماما.

فكّرت في أن أقول، «مسكين كريم،» لكنني لم أفعل.

١٨

هطل المطر في تلك الليلة لساعات. غطّت المستنقعات شارعنا وعكستْ أضواء البيت. تحول سطحنا إلى بركة ضحلة من ماء المطر. خضتُ فيه مستمتعًا بمقاومة الماء لقدميّ الحافيتين. ثم كمنتُ في سريري مستغرقًا في استعادة مسلسل الأحداث المظلم، باحثًا عما كان من الممكن أن يجعله مختلفًا، لكنني لم أستطع تخيّل أي نهاية سعيدة له. ظلت عيناي، سواء فتحتهما أم أغلقتهما، تشاهدان جسم أستاذ رشيد النحيل متأرجحًا في الهواء، وبقعة البول الداكنة وهي تتسع حول إربيتيه، وكاحليه المرتعشين للمرة الأخيرة كما ترفس النعجة بعد الذبح، والرجال يتعلّقون برجليه والنساء يزغردن في فضاء الليل.

ماما أيضًا كانت مضطربة. ففي وقت ما من الليل أفقتُ خائفًا وهرعتُ لأنام بجانبها، فجفلت. «لا،» قالت، ويدها تدفع صدري وصوتها بائس لكن نفّاذ في الظلام. «عُد ونم في سريرك،» ثمّ، كما لو أنها راجعتْ نفسها أضافت، «حبيبي.»

*

لم أجد ماما في الصباح التالي. دفعني فزع لا متناهٍ من غرفة إلى غرفة بحثًا عنها. ثمّ سمعتُ مفاتيحها في الباب الرئيسي. دخلتْ وهي تناديني.

«ألم تلبس بعد؟» كانت متشحة بالسواد، وجهها خالٍ من

مستحضرات التجميل، شعرها معقود بشكل كـرة. «أسـرِع. عليك أن تأتي لتقول مع السلامة.» قالت وهي منهمكـة فـي جمع أكياس بلاستيك فارغة. «سلمى وكـريم راحـلان إلـى بنغازي. لديها أخ هناك، وقد جاء لاصطحابهما، قاد الـسيارة طوال اللّيل. لا تنس أن تعزّيهما.» ثمّ أشرتْ بسبابتها وقالت، «قل: ''عوّضِكما الله وتغمّد أستاذ رشيد برحمته،''»

أحسستُ ببطني يغور مثلما يحـدث معـي تمامًـا فـي الصباحات التي يكون علينا أن نأخذ حقنة مضادة للأنفلـونزا في المدرسة، حيث نقف كلنا في طابور وأكمامنا مرفوعة إلى الكتف، نراقب الذين في المقدمة يبكون من الألم. مرة هربـت وطاردني معلمان ثم جرّاني إلى رأس الطابور: «احقنيه الآن حتى لا نضطر إلى مطاردته ثانية،» قالا للممرضة. أفزعتني إمكانية رؤية كريم بعد ما حدث لأبيه. وقد قالت ماما: «الحزن يعشق الخواء؛ كل ما يريده هو أن يسمِع رجع صداه.»

لحقتها بمنامتي وعندما استجمعتُ ما يكفي من الـشجاعة قلتُ، «أريد البقاء هنا.»

«ألا تريد أن تودّع "كريم"؟ ذلك المسكين يبدو كأنه قضى ليلة فظيعةٍ. عيناه متورمتان مثِل حبتي طماطم.»

حرتُ في الجواب. تخيّلتُ وجهه، وتخيّله جعلنـي أشـعر بالرغبة في أن أجري إليه.

«هذا عائد لكَ، إنه في النهاية صديقكَ *أنت*.» قالت وهـي منهمكة في جلبِ أشياء أخرى؛ مناديل، وقنينة ماء وغيرهـا. «لكن إذا رغبتَ في رؤيته عليكَ أن تسرع، إنهـم يحمّلـون السيارة.» ولماِ لم أجِب قالت، «هل أخبرهمـا أنـكَ مازلـت نائما؟» أومأتُ برأسِي موافقًا.

بعدِ أن غادرتْ مشيتُ في البيت متمهّلاً وبـدون هـدف. خرجتُ إلى الحديقة. كنا في الصباح، لكن قوة حرارة الشمس

التي بيّضت كل شيء كادت تماثل قوتها في الظهيرة. تذكّرتُ كلمات صلاح عبد الصبور: *أواه يا نور الضحى، ملأت قلبي فزعا وترحا، لأنني رأيتُ فوق ما أردتُ أن أرى.* كانت برك المطر قد اختفت، وغدا لون الأرض في مواضعها أحلك بدرجة. صعدتُ إلى السطح لأتلصّص عليهم. كانت حديقة كريم خاوية، جميع النوافذ مغلقة ومحجوبة بالستائر، وثمة سيارة تقف أمام البيت، جانباها ملطخان برشق من الطين. كان القدوم من بنغازي يستغرق اثنتي عشرة ساعة. استطعت تمييز ركبتين تحت المقود، ركبتي رجل. ثم سمعته يصيح، «هيا!» فخرجتْ ماما من منزلهم ومشت على عجل وهي تحمل أكياس البلاستيك التي جمعتها، وقد غدت منتفخة الآن. نزل الرجل من السيارة، وصفق الباب خلفه بعنف. «تلكؤهم غير معقول!» قال بنبرة محتدّة. فتح الصندوق لها. «سيأتون حالاً،» قالت ماما وهي تضع أكياس البلاستيك بعناية في السيارة. لا ريب أنه الخال الذي ذكرته ماما. وقفتْ ماما بجانبه وهي تفرك يديها. تبينت قبضتيه بوضوح في جيبيه. وتساءلت كيف سيتدبّر كريم أمره معه. ثم ظهرتْ خالة سلمى، هي أيضًا كانت متشحة بالسواد. عانقتْ ماما ونحبتْ. ربتت ماما ظهرها وقالت، «الصبر يا عزيزتي الصبر.» صاح الرجل مجددًا. «كريم، ماذا تفعل عندكَ؟» تخيّلتُ "كريم" يمشي في أرجاء بيته، وربما يشمّ وسادة أبيه للمرة الأخيرة. في النهاية ظهر ومشى بتؤدة بدون أن يعير خاله أي انتباه. فتح باب السيارة الأمامي وجلس في المقعد المجاور للسائق. نظر إلى الأمام، وتمكنت من رؤية طرف وجهه. شعرتُ أنه في أي لحظة سيلتفتُ ويواجهني، ثم ابتعدوا، وبقيتُ أراقب الغبار وهو يتطاير وراءهم.

*

أمضت ماما ذلك اليوم بأكمله على الهاتف، تتسلّم مكالمات من الأقارب. أجبتُ على بعض المكالمات الأولى منها. «الناس يثرثرون،» قال المتصلون، «هناك من يزعم أن رجل الأمس، لا قدّر الله، كان جاركم وصديقًا حميمًا لبو سليمان. نأمل ألا يكون هذا صحيحًا.»

ثمّ، في وقت باكر من المساء، أعادت لنا أمّ مسعود صحن الكعكة البلوري عامرًا بالبسكويت. «لم آتِ فارغة اليدين،» قالت وعلى وجهها ابتسامةٍ ماكرة. «ولا أعني البسكويت، بل أحمل أخبارًا.» ثم سارت قُدمًا وإلى المطبخ مباشرة. كان التعبير على وجه ماما معلقًا بين الأملِ والخيبة. فجأة استدارت أمّ مسعود وواجهتنا مبتسمة، فأسرعتْ ماما إلى جوارها.

«اهدئي يا بنت اهدئي،» هتفتْ ضاحكة. «أعدّي لنا الشاي أولاً.»

وبدون أي تباطؤ باشرتْ ماما المهمة. راقبتُ أمّ مسعود جالسة إلى طاولة المطبخ وتساءلتُ ما إذا كانت هذه هي طريقة معاملة زوجها أستاذ جعفر لها. تهيأ لي أنها تلذّذت بالصمتِ الذي كان لزامًا أن يُفرض إلى أن تعدّ ماما الشاي. ارتعشتْ يِدا ماما وهي تصفّ الأكواب.

«حسنًا،» بدأتْ أمّ مسعود. «اتصل جعفر و...»

«ماذا قال؟ هل عثر عليه؟»

ابتسمتْ أمّ مسعود، ولما سألتها ماما، «أين هو؟» رفعتْ يدها وأغمضتْ عينيها. «لا أملكُ الوقائع كلها، لكنني متأكدة من أنكِ سترينه في القريب العاجل.»

شرعتْ ماما في البكاء. «شكرًا، شكرًا،» قالت.

في طريقها إلى الباب قالت أمّ مسعود، «قد لا يبدو منظره جيدًا،» ثمّ رنتْ إليَّ وأردفتْ، «تعرفين كيف تراود الكوابيسُ الصغار.»

*

ذرعتْ ماما الرواق ذهابًا وإيابًا. غسلتْ ذراعيها إلى المرفقين، قدميها، غطّتْ رأسها بمنشفة، وفرشتْ سجادة صلاة، وتمتمتْ شفتاها الكلمات. لم تبدِ مرتاحة وهي راكعة على ركبتيها. وعندما رنّ الهاتف جرتْ إليه.

«نعم يا أمّ مسعود، إليك رقمه،» قالت. «اسمه موسى ياسين.»

ثمّ اتصلتْ بموسى. «ابق قرب الهاتف، يمكن أن يتصلوا بك لتحضِرِ "فرج". كلّمني حالما تسمع شيئًا.»

دخّنتْ بلا انقطاع على الرغم من أنها لم تكن مريضة. عندما قلتُ إنني جائع، هيأتْ لي شطيرة والسيجارة بين شفتيها. لم تتمكن من البقاء ساكنة.

حوالي الساعة العاشرة تلفن موسى.

«أيّ أخبار؟ لماذا تتصل إذن؟ ماذا لو تلفنوا الآن ووجدوا الخطّ مشغولاً؟ أغلِق السماعة.»

غدا الوقتُ متأخرًا، وما عدتُ قادرًا على فتح عينيّ إلا بصعوبة. فوضعتني في السرير وعندما قبّلتْ جبهتي شعرت أنها تتباطأ.

*

في الصباح التالي جاءت إلى غرفتي.

«أحمِلُ أخبارًا سارّة،» قالت وهي تفتح الستارة. دخل ضوء الصباح رائعًا وقاسيًا. شرّعت النافذة، وفي الخارج بدت الطيور التي تشاغلتْ بالتغريد متحمسة جدًا. كان وجه ماما طافحًا بما تهيأ لي أنه سعادة. «لقد رفق الله بحالتنا، وحدث

شيء رائع.» مشتْ فيِ غرفتي تلتقط الملابس وتطويها. «يجب أن نذبح خروفا، لا بل عجلاً، وندعو جعفر وأمّ مسعود وابنيهما. يا لهم من أناس جديرين بالاحترام.»

رنّ جرس الباب لكنْ ليس بطريقة بابا المميزة.

«الحمد لله،» تمتمتْ ماما لنفسها، «ابق هنا، لا تخرج من غرفتك.» قالت لي وأغلقت الباب وراءها. سمعتُ صوت موسى يناضل تحت رزح وزن ثقيل. لعله جلب لنا صورة أخرى للقائد قلت لنفسي، ربما الآن، يجب أن نعلّق واحدة في كلّ غرفة. «انتظِر،» همستْ ماما. «حسناً، أحضره إلى هنا.» سمعتهما يدخلان غرفة ماما ويغلقان الباب. بقيا هناك لفترة. ثمّ سمعتُ أحدهما يترك الغرفة. قصدتُ المطبخ ووجدتُ موسى جالسًا. بدا ساهمًا، مثل شخص نجا الآن من حادث. كان قميصه ملطخاً ببقع بُنية داكنة. ولما سألته عنها قال، «قليل من الدمّ، ليس إلا.» وبعد هنيهة صمتٍ أضاف، «فقدتُ سناً.»

سمعتُ ماما تذهب من غرفتها إلى الحمّام بضع مرات، ودائمًا تغلق باب غرفة النوم وراءها.

«سأعود في وقت لاحق،» قال لي موسى ورحل.

يممتُ غرفة ماما وقرعتُ الباب.

تهيأ لي أنني سمعتُ صوت رجل أولاً، ثمّ سمعتها تهمس، «لا تقلق، لا تقلق.» بعدئذ فتح الباب بما يسمح لها أن تحشر جسمها منه. «ماذا؟»

«مَن هناك؟»

أخذتني من يدي إلى المطبخ. «اسمع يا سليمان، سأخبركَ شيئًا مهمًا جدًا. عاد بابا. وهو متوعك قليلاً ويحتاج إلى السكينة والهدوء.»

«با.. با.. هـ.. ل..» تكسرت الكلمات في فمي كيفما حاولتُ نطقها لكنها فهمتْ ما أعنيه.

«إي، إي، إلا أنه ليس بصحة جيدة وهو يرتاح الآن. يجب ألا تزعجه. يجب ألا تزعجه أبدًا،» قالت وهي تبتعد عائدة إلى غرفة نومهما.

عندما ذهبتُ لأستعمل الحمّام وجدتُ مرآة المغسلة مغطاة بملاءة سرير بيضاء. رفعتُ أحد أطرافها ولم أر أي تغيير وقع على المِرآة.

بعد فترة جاءت ماما لتسألني، «أين موسى؟ إلى أين قال إنه ذاهب؟ ألا يعلم أنه علينا أن نبقى معًا في وقت كهذا؟»

«قال إنه سيعود لاحقًا.»

«هل قال متى؟»

«لاحقًا. فقط قال لاحقًا.»

«في وقت كهذا علينا أن نبقى معًا،» كرّرتْ.

«لماذا غطّيتِ مرآة الحمّام؟» سألتها.

«يعرف أنني أريد التكلّم معه. كم يضايقني الأمر عندما يغادر بدون أن يقول.»

«لماذا غطّيتِ المرآة؟»

«هل كشفتها؟» استفهمتْ بقلق.

هززتُ رأسي نافيًا.

«لا تلمسها.»

*

لم يُسمح لي ولا حتى بإلقاء نظرة خاطفة على بابا.

«في الصباح،» قالت ماما وهي تقف بيني وبين مدخل غرفتهما.

كان الباب قد تُركَ منفرجًا، وكان كلّ شيء في الداخل أسود. لم أسمع رجع تنفّس بابا الثقيل، ولم تفح رائحة النوم في

الغرفة، لكن السكينة التي فيها كانت سكينة شخص يشغلها.
«بابا؟» ناديت.
«قلتُ في الصباح،» كرّرتْ وهي تدفعني بعيدًا. «ولا تأتِ إليه. إذا شعر أنه يريد ذلك فسيأتي إليك هو.»
في البداية لم أمعِن التفكير في ما قالته. لكنني عندما وقفتُ أنظّف أسناني تذكّرتُ أننا في ليلة الخميس وأن اليوم التالي هو يوم عطلة بابا، وحيّرني عدم سماح ماما لي بإيقاظه في حين أنني اعتدتُ في صباح الجمعة أنٍ أركض إلى سريره وأنقضّ عليه. هذا كان يجعله يقوم مذهولاً وهو يشهق.

*

كيف تمّ ذلك بتلك السهولة؟ من كان غائبا عن الملعب؟ لماذا لم يتدخّل أحد لإنقاذ أستاذ رشيد؟ لعلها أفلام رعاة البقر ومفهومها الخاص عن النهايات السعيدة هي التي دفعتني إلى التفكير على هذا النحو، وذلك أنه ليس الله بل ربما هي التي اخترعت الأمل والوعد بأنه في لحظة التفاف الحبل حول عنق البطل، تخرج فجأة بِقدرة الله ومن مكان مجهول طلقة لتقطع الحبل. فيركل البطلُ الرجل الذي بجانبه. وآنذاك يعتلي بقية الرعاع - *الجبناء* - سروجهم ويولّون الأدبار نحو التلال. حينها يتقافز جميع مَن في السينما، وهم يتصايحون ويصفقون ويتعانقون كأنهم في مباراة كرة قدم. عند ذلك لن أبالي بالدموع وهي تسيل على وجهي، لأن العديد من الخدوِد، بما فيها خدود رجال بالغين تكوّن لامعة بالدموع. تذكّرتُ بهجة مثل هذه اللحظات. أين اختفى الأبطال، والرصاص، والرعاع المسرعون، والنهايات السعيدة التي كانت تخرجنا من صالات السينما المظلمة بخدود وردّتها البهجة، يربّت الواحد ظهر

الآخر، مهللين لأن رجلنا انتصر، وأن الله كان معه؛ أن الله لم يتركه وحيدًا في ساعة الحاجة، أن العالم يعمل بالطريقة التي نتوقعها منه ولم يتداع؟! شيء ما كان غائبًا في الملعب، شيء لم يعد من الممكن الاعتماد عليه. وبمعزل عن جعلي أفقد الثقة بفرضية أن «الأمور الحسنة تحدث للناس الطيبين،» ترك إعدام أستاذ رشيد المتلفز في داخلي انطباعًا آخر أكثر رسوخًا، انطباعًا بقي حيًا في ذهني ورافقني إلى رجولتي؛ هو نوع من فزع كامن، كما لو أن البساط قد يسحب من تحت قدميّ في أي لحظة. وبعد موت أستاذ رشيد، تخلّصت من وهم أنني أو بابا أو ماما محصنون ضدّ تعرّضنا للاحتراق بنار الجنون الذي هيمن على ملعب كرة السلة الوطني.

١٩

ظننتُ في بادئ الأمر أنني أبكرتُ كثيرًا في النهوض، لأن الضوء من نافذتي تلألأ كنور الصباحِ الباكر، ثم إنني لم أسمع حسّ أحد في البيت. تبولت، واستمتعتُ بمشهد بولي المتدفق، والرغوة الكريستالية التي شكّلها. ذهبتُ إلى الساعة الكبيرة في الرواق لأتفقّد الوقت؛ كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف. اعتراني انقباض مخيف من فكرة أن ماما وبابا خرجا بدوني. كان باب غرفتهما منفرجًا، ومن خلال الفتحة الضيقة اجتليت هيكليهما المدفونين تحت الملاءات، واكتشفتُ أن الستائر مفتوحة، لكن النافذة مغلقة. شعرتُ برغبة في أن أقول لهما، «استيقظا يا كسولَيْن،» لأنني ما عهدتهما ينامان إلى هذا الوقت المتأخر، لكنني لم أفعل. تهيأ لي أنني أشمّ رائحة غريبة تنبعث من غرفتهما. وفوجئتُ لما رأيتُ أن المرآة الكبيرة الخاصة بطاولة زينة ماما قد غُطيتْ بملاءة بيضاء، وأن مرآتها اليدوية الصغيرة مطروحة على وجهها. ما وراء حجب المرايا هذا؟ ساءلتُ نفسي.

ذهبتُ إلى المطبخ وجلستُ إلى طاولة الفطور. كان الوقت مشرفًا على الظهر تقريبًا. ألا ينويان النهوض؟ أتراهما ماتا وهما نائمان؟ تخيلتُ حياتي بدونهما، وتخيّلها بعث في بطني رعشة إثارة. لم يكن هذا شيئًا غير عادي، على الرغم من أنني ما فهمته قطّ، ولا تجاسرتُ أو عرفتُ كيف أقرّ به. كنت أتصوّر دائمًا في أحلام اليقظة أنني أفقد المخلوقين اللذين أحبّهما أكثر من أي أحد آخر: متخيّلاً الجنازة والنادبين وأنا اليتيم

الوحيد متشحًا بالسواد. عدتُ لأتأكّد من أنهما على قيد الحياة.

دخلتُ غرفة نومهما. صُعقتْ من الرائحة الفظيعة التي فاحت فيها. ذكّرتني بنتانة كلب ميت وجدته أنا والأولاد مرة في طريق عودتنا من المدرسة، وحول بطنه المنتفخ يطنّ سرب من الذباب. بيد أنني سرعان ما رأيتُ ظهر ماما وهو يتردّد بالأنفاس صعودًا وهبوطًا. وبابا راقد قربها ومحتجب كليًا تحت الغطاء.

رجعتُ وجلستُ إلى طاولة الفطور. بعد دقائق قليلة سمعتُ أحدهما يدخل الحمّام، ثم تدفّق ماء المرِحاض وهسهسة الصهريج. لما سمعتُ باب الحمّام يُفتح حملتُ الكرسي الذي إلى جانبي وتركته يسقط. أملتُ أن يكون ذاك بابا. إلا أن ماما ما لبثتْ أن أتت. كانت عيناها مزمومتين بسبب وهج الضوء «صباح الخير،» قالت وهي تفتح الثلاجة وتتثاءب. وبينما ضغطتْ رأس قنينة الماء على شفتيها رحتُ أراقب السائل وهو يضخم حنجرتها مع كل جرعة. أخذتْ نفسًا عميقًا وعيناها إلى السقف ثم همهمتْ قائلة، «نجونا من الجنون.»

«ما زال بابا نائمًا؟»

أومأتْ بالإيجاب وقبّلت رأسي، لكنني لم أقبّل يدها. ملأتْ إبريق الشاي بالماء وطقطقتْ المشعل عدة مرات قبل أن يلتقط المُضرم النار.

«إنه متعب جدًا،» قالت وهي تتثاءب. «بقينا ساهريْن نتحدث الليل بمعظمه، ولم ننم إلا بعد طلوع الضوء.»

«ما الذي تحدثتما عنه؟»

«لا شيء معيّن.»

«أين كان؟»

«في رحلة عمل.»

أحسستُ بالغضب يشدّ خناقي.

«متى سيستيقظ؟»

«سيستيقظ عندما يستيقظ.»

أحسستُ بتقلّب دفق من الأشياء في رأسي قبل أن أسمع نفسي وأنا أصرخ، «متى سيستيقظ؟» ثمّ غاب عني النفس، امتصني عالم لا هواء فيه. احتجزني. خمشتْ أظفاري سطح الطاولة الخشبي.

«ما بكَ؟ اهدأ. تنفّس. انظرِ إليَّ، انظر إليَّ. جيد. أبقِ عينيك عليَّ. تنفّسْ. حسنًا انتهت. أنتَ بخيرٍ الآن. تنفس حبيبي تنفس.»

صبّتْ لي كوب ماء وأصرّتْ أن أشربه.

«أنتِ تكذبين دائمًا. أنا لست طفلاً، وأنتِ تكذبين دائمًا.»

نظرتُ إليها ولم أجدها غاضبة مني، بل بدت قلقة وحانية. «لا تطلبي مني أبدًا أن أذهب وأتمرّن على السلّم الموسيقي. لقد قتلوا أستاذ رشيد. هل بابا ميت أيضًا؟» لاحت عليها معالم الدهشة من سؤالي. «ألهذا ليس مسموحًا لي أن أراه؟ هل بدأ يتعفّن؟ ألهذا تفوح غرفتكما برائحة كريهة؟»

«لا، لا.» هتفت، ثمّ تنهّدتْ وأردفتْ، «انتظر هنا، سأعود.»

بعد وقت قصير سمعتها تنادي، «تعال يا سلومة. أبوكَ يريدكَ.»

ذهبتُ إليها ووقفتُ في المدخل. ألمّ بي الاضطراب فورًا لأنني وجدتُ أن الستائر قد أُسدِلتْ والغرفة بظلام الليل، ونتانة الموت فيها لا تطاق.

«ادخل،» قالت.

كان دخول الغرفة كولوج البحر. وبصيص الضوء الوحيد فيها جاء من ورائي وسقط على الأرض.

«أغلق الباب خلفك،» قالت.

تكثّف الظلام، وستائر المخمل الفرنسية الهائلة حرِصت على إبقاء نور الشمس في الخارج «أين أنتما؟» سألتُ.

«هنا،» قالت.

بابا، إذا كان هناك حقًا، إذا كان ما زال حيًا، كان ساكنًا كصخرة.

«أين بابا؟» أردتُ أن أضيء النور.

«أنا هنا،» قال. باغتني صوته. كان غليظًا عميقًا شوهته الأسنان والأنف المسدود. إلا أن المخيف أكثر من ذلك هو أنني تمكنتُ من تمييزه فيه. إنه بابا. بابا بعد أن ما عاد بابا، بل ربما حتى، فكّرت وأنا في خضم خوفي وتشوشي، بابا بعد أن ما عاد حيًا.

«لماذا لا أستطيع أن أراه؟» سألتُ والفزع يستحثني لأضيء النور أو أفتح الستائر السميكة.

«بل تستطيع حبيبي، لكن ليس الآن. ربّما غدًا،» قال وأسلاك من الأسى تعمل تمزيقًا في صوته.

«ولماذا ليس الآن؟»

«لأن بابا يعاني من صداع فظيع والضوء يضايقه،» ردّتْ ماما بسرعة، وأدركتُ أنها تكذب.

«إلى أين ذهبتَ بابا؟»

«لا تضايق أباك بأسئلة كثيرة،» نهرتني ماما. «أخبرتكَ أنه يعاني من الصداع.»

بعد عدة ثوان صامتة في الظلام، حطّتْ راحة ماما الباردة على عينيّ وشفتيّ. أدارتني ودفعتني إلى الخارج.

أخذتني إلى المطبخ وقالت، «أرأيت؟ بابا بخير.» ثم وضعتْ يدًا على خدي وأردفتْ، «اذهب الآن حبيبي والعب في الحديقة،» ثم ابتسمت لي كما لو أنني فعلتُ شيئًا جيدًا، كما لو أنني انتهيتُ الآن من عزف إحدى أغنياتها المفضّلة على البيانو، لها ولضيوفها، شيء من تأليف عبد الوهاب أو فريد الأطرش.

كانت شمس الظهر عمودية. وما إن سقطتْ أشعتها على

رأسي حتى أحسستُ بضغطها. كذلك ضغط الشكّ على صدري من أن يكون الرجل الذي احتل سرير بابا هو بابا حقًا، وشعرت بالعجز عن الهروب منه.

«طبعًا هو بابا.»

«كيف تعرف؟»

«لأنه هناك ولأن أمكَ تقول هذا.»

«لكنّك تعرف كم تكذِب.»

«لا تقل هذا. هي تُخفي الحقائق، وتفعل ذلك من أجل مصلحتكَ.»

تمشّيتُ حول البيت تحت ظلّ الأشجار. ولما وصلتُ إلى نافذة غرفة نومهما رأيتُ الستائر مفتوحة. «لكنني فهمتُ أن النور يضايقه،» سمعْتني أقول. لم أستطع مشاهدة أي شيء داخل الغرفة بسبب انعكاس الضوء على الزجاج. دنوتُ من النافذة، كوّرت يدي حول عينيّ ونظرت. رأيت رجلا عاريًا جالسًا على السرير، على ظهره خطوط متقاطعة داكنة اللون لامعة، بعضها ينزّ دمًا. فجأة استدار نحوي. رماني وجهه المروّع أرضًا. وقعتُ أسفل شجرة الصمغ. كانت عيناه مطبقتين، منتفختين بالهواء أو الماء أو الدم، مثل نصفي حبة طماطم متعفنة، وشفته السفلى ضخمة وأرجوانية مثل باذنجانة صغيرة. سمعته يصيح بصوت فظيع بقباق، «نجوى، نجوى، أغلقي الستائر.» ظهرتْ ماما عند النافذة، تأملتني للحظة – كان قلبي يدقّ بعنف، وأنا جاثم أرضًا ألهث – ثمّ وبحركة واحدة أسدلت الستائر.

«أرأيتَ؟» همهمتُ لنفسي. «إنه ليس بابا.» جريتُ إلى البيت. ووجدتُ نفسي أقفُ أمام باب غرفة نومهما. قرعته. «مَن في الداخل؟» زعقتُ بصوت لجلجهِ الفزع. لم يجيبا. «إذا لم تردّا أقسم أنني سأفتح الباب،» صحتُ ودفعتُ الباب.

أسرعت إلى الستائر وفتحتها. كان المسخ العاري قد عاد

واختفى تحت الأغطية، متظاهرًا بالنوم، متظاهرًا أنــه بابـــا. وماما تجلس علىٍ السرير إلى جانبه وعيناها عليَّ. تهيــأ لـــي أنها خائفة. أردت أن أقولٍ لها، «لا تقلقي، سيكون كل شـــيء على ما يرِام.» لكنني بدلاً من ذلك فتحت النافذة. وعلى نحـــو ما شعرتُ أنني، أنا وماما، سنغدو في أمان هكذا. تهيأ لـــي أن الهواء الجديد يغسل الغرفة.

«لا يريدكَ بابا أن تراه وهو بهذه الحالة،» قالت ماما.

فجأة، جلس المخلوق الذي تحــت المـــلاءة علـــى حافــة السرير، وأولاني ظهره، محكمًا لفّ جسمه بمـــلاءة الِـسرير البيضاء الملطّخة بخطوط رقيقة من الدم. وببطء بدأتُ أميزِه: شعره الأسود المتموج، تلال كتفيه المعتدلِة، الرقبة التي دلكتها مرات عديدة، ومرات عديدة أخرى دفنتُ فيها وجهي لأقبّلهـــا مصدرًا ذلك الصوت الدقيق الذي يشبه الضراط، والذي كـــان يجعله يستغرق في الضحِك دائمًا. خنقتني الدموع.

«بـــابـــا؟!» حاولتُ أن أقول.

انتفض. «أخرجيه أرجوكِ.»

«لا فائدة من هذا الآن وقد رآك.»

«بـــابا؟»

«نعـــم،» أنّ، كما لو أن الجهد الذي يبذله ليتكلم يؤذيــــه. «أخرجيه. ستراوده الكوابيس.»

«أنا نادرًا ما أرى أيٍ كوابيس بابا»

بعد ثوانٍ قليلة، رأيتُ خلالها أنه ينبغـــي لـــي أن أغـــادر الغرفة وإلا فلن يستمر العالم، تكلّم بابا. «عيناي ليستا على ما يرِام، أنا... أنا مريض.» ثم هزّ رأسه ولوّح بيده وراء ظهره. فكرتُ لحظتها في أن أهرعِ إلى تقبيلها ألـــف مـــرة ومـــرة. «نجوى،» عاد وقال وقد بدأت حركة يـــده تـــصبح مفهومـــة أخيرًا، «أخرجيه أرجوكِ.»

٢٠

جاء موسى في وقت متأخر من ذلك اليوم. سألته ماما أين كان، ولماذا لم يقل شيئًا قبل أن يغادر؟ قال موسى إنه ظنّ أنها وبابا يحتاجان إلى البقاء وحدهما بعد هذه المعاناة القاسية.

«أخبرت سليمان أنك ستمرّ لاحقًا، لا تقل إنكَ ستمر لاحقًا ما دمت لا تنوي أن تفعل. آخر ما أحتاجه الآن هو أن أقلق عليكَ.»

«كيف حالكَ يا بطل؟» سألني موسى وهو يغتصب ابتسامة واهية اغتصابًا.

«في بيتنا مِسخ،» فكّرت أن أخبره، لكنه بدا نائيًا جدًا، اجتلتْ عيناه الغرفة ثم مضى إلى الحمّام. تبعته أنا وماما. انحنى أمام المغسلة وبدأ يغسل يديه. «كيف حال بو سليمان؟»

«نحمد الله لأن جميع جروحه سطحية،» أجابتْ ماما. «كسروا ضلعًا واحدًا، ولا شيء عدا ذلك. إنه فقط يبدو...» هزّتْ رأسها وتنهّدتْ بعمق. أنا، لسبب ما، حاكيتُ حركتها. وتذكّرت كيف قلّدتْ سهام إيماءات أبيها العجوز. لاحظ موسى ملاءة السرير التي تحجب المرآة فوق المغسلة. «جعلني أغطي المرايا. لا يريد رؤية نفسه. ولا يريد أيضًا أن يراه سلومة،» قالت وهي تمرّر أصابعها على شعري كما لو أنني أنا وهي ناقشنا كلّ هذا من قبل، تداولنا جميع التفاصيل وأعدنا طرحها كلّ منا على الآخر مرات ومرات حتى ما عاد أي منا بقادر على أن يعرف حقًا من الذي بدأ أولاً بقصّ الحكاية.

كان موسى قد خلع القميص الملطّخ بالدم الذي ارتداه في

اليوم السابق. بيد أنه بدا تواقًا إلى تنظيف نفسه، كأنه قد عاد الآن من رحلة طويلة بالسيارة عبر الصحراء. خفض ياقة قميصه كاشفًا عن رقبته الطويلة الغليظة. صوبن وجهه ولحيته وأذنيه ورقبته، ثم رشّ ماءً باردًا ليزيل أثر الصابون. رجعت أنا وماما خطوة إلى الوراء لنتجنب التعرّض للبلل. جفّف نفسه بنشاط، ثم أخرج مشطًا من جيبه الخلفي، نفخ خدّيه ومشّط لحيته. لما انتهى، رنا إلينا للحظة، ثم خرج. قرع الباب على بابا مرتين، «بو سليمان؟» نادى وفتح الباب بقدر يمكّنه من الدخول فقط وأغلقه خلفه. وقفت أنا وماما في الخارج، وسمعنا كلّ ما قاله موسى، فقد كان يتكلّم بصوت عالٍ جدًا كما لو أن بابا أصمّ.

«كيف حالكَ؟» سمعناه يسأله. وضعتْ ماما أذنها على الباب. «الحمد لله على سلامتكَ. تبدو أحسن بكثير من الأمس. وستستعيد عافيتك قريبًا.» لا بدّ أن بابا حينها طرح عليه سؤالاً لأنه قال، «لا تقلق. الجميع بخير. والكلّ يتفهّم ما حدث، لا أحد يلومكَ، لقد اضطررتَ إلى فعل ما فعلته.» وبعد هنيهة صمتٍ سأله موسى، «هل أجلب لكَ كوب ماء؟» ثم بوغتت ماما بالباب يُفتح. رمقها موسى بنظرة عاجلة، حشر نفسه عبر فرجة الباب وأغلقه خلفه. تبعناه إلى المطبخ. ملأ كوبًا بالماء وتجرّعه. «هل يعرف ماذا حلّ برشيد؟»

«لا أدري،» أجابت ماما. «لم أخبره.»

شطف الكوب، ملأه بالماء ثانية وتوجّه عائدًا إلى بابا. إلا أنه خارج المطبخ تمامًا، تريّث لثانية كما لو أنه سمع بالونا ينفجر في الغرفة المجاورة، ثم تابع طريقه. سمعته يقرع الباب مرتين ويقول بالنبرة العالية المتفائلة نفسها، «بو سليمان؟»

طوال هذا الوقت لم ينظر موسى في عينيّ لفترة تكفي كي أسأله أو أخبره عن شيء ما. كانت تحرّكاته ميكانيكية.

تشوّقتُ لأصف له بالتفصيل الممل ما شاهدناه معًا في التلفزيون. تذكّرتُ كم وجدتُ سلوى في استعادة ذلك الحدث عندما جلستُ أنا وماما وهو حول طاولة الفطور بعده مباشرة. كان هناك العديد من التفاصيل التي أهملناها. تفاصيل، لاحظتُها وبدأتُ أتساءل ما إذا لاحظها هو أيضًا، مثل بقعة البول الداكنة التي غابت عن ماما. فهناك الطريقة الرقيقة التي دُفع بها أستاذ رشيد فوق السلّم، بلمسة بسيطة على مرفقه، ثم الخيبة المفاجئة التي اجتاحتْ الرجل في أسفل السلّم إزاء تقاعس أستاذ رشيد. لم أُطق صبرًا، لم أطق صبرًا في أن نعيد ونعيد تداول ذلك مرة تلو مرة، كما اعتدنا أن نصف مشاهد الأفلام التي نحبّها. هناك أيضًا ذاك الرجل الذي كان يجتاز ملعب كرة السلة الوطني في خضم الفوضى، وهو يمشي بتؤدة من إحدى زوايا الشاشة إلى زاويتها الأخرى متأبطًا آلة كاتبة سوداء مكسورة كأنها جرو؛ هل لاحظه أي منهما؟ تشوقتُ أن أسأل موسى عنه، إلى أين كان ذاهبًا؟ وما الذي سيفعله بآلة كاتبة مكسورة، ولماذا في ذلك الزمان والمكان بالتحديد؟ يومها لم يخطِر لي أنها قد تكون الآلة الكاتبة الخاصة بناصر. الدليل الذي غنم في أثناء المطاردة.

ملأتْ ماما إبريق الشاي بالماء ووضعته على شعلة الغاز. كانت تتحرّك بثقة الآن وقد رجع بابا إلى البيت. عندما نظرت إليَّ نظرة متفحصةً ورأتني أتمعّن فيها ابتسمتْ، ثم جاءت وقبّلتْ خدّي. وبالرغم من أنها بدتْ منهكة، كان وجهها متورّدًا وعيناها لامعتان. «مررنا بمحنة شاقّة، وعليَّ الآن أن أهتم بكِ،» قالتْ. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما عنته، لكنني وجدت نفسي أبادلها الابتسام.

سمعنا حسّ شخص يدخل الحمّام ويقفل الباب. وظهر موسى بعد بضع دقائق ميممًا المطبخ وإحدى يديه قابضة على

الملاءة البيضاء. طرحها جانبًا وقال، «دعيه يرى نفسه وكيف يبدو،» كانت شفته السفلى ترتجف والدموع تملأ عينيه. استدار وترك المطبخ. نظرتْ إليَّ ماما وكأنني أعرف لماذا تــصرّف موسى على هذا النحو، ثم لحقتْ به. تناهى إليَّ صوتاهما من الصالونِ، فوقفتُ خارج مدخله.

«لا أحتمل النظر إليه،» قال موسى. «الخيانة في عينيه – اعذريني، اعذريني – صوته يلذعني، هذا أسوأ من الموت – سامحيني – إنه أحلك يوم في حياتي.»

بعد صمت طويل قالت ماما، «أمس فقط كنــت مــستعدًا للموت من أجله، الآن تتمنّى لو أنه مات من أجلك.»

«لم أنمِ منذ يومين...»

شعرتُ بوجود شخص خلفي في الرواق. استدرتُ ولم أجد أحدًا هناك. ليس سوى الحيطان الطويلة المكــسوة بــالطيور الأبدية نفسها، تنقر الغصين الأبدي نفسه، الباب الهزاز بدفتيه مغلق وساكن في نهاية الرواق، والساعة تتكتك برتابــة مثــل شخصين يتجادلان.

«قتلوا أقرب الطلاب إلينا. مات رشيد، في حــين أن بــو سليمان... الناسِ يثرثرون، يقولون أشياء فظيعة عنه.»

«دعهم يتكلمون، فلو أنهم وجدوا أنفسهم في مكانه لكــانوا أول من يتخلى عنه.»

«رشيد لم يفعل، لا لم يفعل، وها هي زوجته تلك المــرأة المسكينة، تعاني من النتائج الآن.»

«عسى أن يعوضها الله.»

«لا أدري بم أجيبهم، لا أدري ماذا أقول لهم.»

«عُد إلى ديارك،» قالت ماما فجأة. «حان الوقــت لتعــود إلى بلدك.»

«هذا بلدي. عشتُ هنا نصف حياتي.»

«السبب الوحيد في بقائكَ على قيد الحياة إلى الآن هو أنه ليس بلدك.»

«كان لدينا أمل كبير، أملٌ كبير. قبل ثلاث سنوات اتخذ اثنا عشر ألف طالب موقفًا؛ ثمانية آلاف من بنغازي وأربعة من طرابلس، اتخذوا موقفًا في بلاد أميّة لا يتجاوز تعدادها ثلاثة ملايين. لم ننجح حينها. واستغرقَنا مولد أمل جديد ثلاث سنوات، لنشهد فقط أولئك القلّة الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الكثير من الناس. أحدهم صديقي محمد...» قال وبكى.

غصّ صوت ماما بالبكاء أيضًا. «كفى موسى أرجوك، صلِّ على النبي.»

«كان يتسقط الأخبار، سألني عن مكان بو سليمان ورشيد. لم أملك الجرأة لإخباره. كان يتصل من الداخل، وقد تحصّن مع الآخرين في الجامعة. لم أملك الجرأة لأخبره عمّا يحدث في الخارج.» ثم، أردف بصوت مهتاج وكأنه يلقي اللوم على ماما، «ضحوا بحياتهم في سبيل بلادهم.»

بعد صمت طويل قالت ماما، «لم يكونوا يمثلونني، رحمهم الله وعظّم أجر عائلاتهم، لكنهم لم يكونوا يمثلونني.» ثمّ عادت وأضافت بنبرة متوسلة، «إذا أردتَ مساعدتنا يا موسى، احزم حقائبك وارجع إلى وطنكَ وإلى عائلتكَ في القاهرة.»

تنهّد. «لا تخافي لقد تسلّمنا مذكرة ترحيل.»

«ومتى ترحلون؟»

«غدًا. لكن بابا غاضب جدًا ولذلك رحل اليوم.»

شعرتُ مجددًا بوجود شخص خلفي، مصحوبًا هذه المرة بأنفاس مكتومة مستنزفة. قبل أن أتمكن من الالتفات أمسكتني يد من كتفي ودفنتُ وجهي في طيات نسيج رخو. وعلى الفور لففتُ ذراعيّ حول خصر بابا حيث ابتلعتني تلك الرائحة الكريهة ثانية. ضغطتُ ذراعيّ أكثر فجفل. همهم بشيء لم

أفهمه. ثم أدركتُ أنه اسمي. عندما حاولتُ انتزاع نفسي بعيدًا لأرى وجهه، شدّد ضغطي إليه. أقبلتْ ماما وموسى ليستطلعا مصدر الضجة. فأرخى بابا قبضته قليلاً، وحينها تسنّى لي النظر إليه. كان الاحمرارِ والازرقاق والورم قد ازداد تفشيًا في عينيه وشفته. وتبينتُ تفاصيل أخرى لم ألحظها من قبل؛ تفاصيل فاقمت من اضطرابي. كانت عينه اليسرى مغلقة تمامًا، أما عينه اليمنى المفتوحة قريبًا من قصبة أنفه فحمراء كالدمّ. وخداه وذقنه تبقّعتْ جميعها بشبكة من العروق الأرجوانية الدقيقة. عند أحد صدغيه حرق صغير؛ دائرة حمراء وصفراء. لم أتمكّن من رؤية الجانب الآخر من وجهه لكنني توقعتُ وجود حرق آخر هناك يماثله. لم تكن جلابيته مزررة، ومن فتحتها بزغ الشعر الشبيه بالأسلاك سالمًا من الأذى، الشعر نفسه الذي جذبته مرة.

«ماذا تفعل خارج السرير؟» استفسرتْ ماما.

«ما زال هذا بيتي، أم ماذا؟» ارتعشتْ شفته السفلى الأرجوانية المتورمة وشوّهتْ طريقة نطقه للكلمات.

«تعال واجلس،» قالت وهي تشير إلى الصالون.

لكنه مضى في طريقه. مشيتُ بجانبه وذراعي حول خصره. كانت الساعة تتكتك بوتيرة أكثر نشاطًا من سرعتنا. أفلتّه وجريتُ إلى الساعة، فتحتُ بابها الزجاجي وأوقفتُ بندولها. بقي حيث تركتُه منحازًا إلى أحد جانبيه. هرعتُ إليه ولما عانقته جفل ثانية، وشدّد ذراعه حولي. عندما عبرنا باب الرواق الهزاز، توقف للحظة وكأنه يتنفس الصعداء لأننا أصبحنا وحدنا، ثم قال هامسًا كما لو أنه يسارّني، «لنخرج إلى الحديقة.»

كان قد تبقّى ساعة أو ساعتان على غروب الشمس، وكانت أنوارها ناعمة وبرتقالية.

«خذني إلى سطحكَ،» قال.

إنه سطحكَ أيضًا، أجبتُ في سرّي. إنه سطحنا. وبالرغم من أنني كنتُ أمسِكه وكنا نسير جنبًا إلى جنب شعرتُ ببعد شديد عنه. شدّدتُ من عناقي له قليلاً وتطلعتُ إلى وجهه المشوه في وميض الشمس الدافئ المحتضر.

انتظرتُ إلى أن أصبحتْ كلتا قدميه على الدرجة الأولى قبل أن نصعد الثانية. ولا أدري لماذا قلتُ في إحدى وقفاتنا، «خطوة خطوة وسنصل إلى هناك.» وتمنيتُ فورًا ألا يردّ لأن أي شيء قد يقوله سيجعلني أشعر بالارتباك.

كان بمقدور الحياة أن تنقضي فيما نحن نصعد ذلك الدرج، وما كنتُ لأمانع انقضاءها.

ذكّرني السطح بكتبه التي أحرقناها. «سنشتري لكَ كتبًا جديدة بابا.» كان *الديمقراطية الآن* لا يزال تحت حشيتي. وعندما وصلنا السطح انزلقتُ من تحت ذراعه، ووضعتُ له يديه على السياج وركضتُ لأجلب الكتاب. لما رجعتُ كان قلبي ينبض بسرعة إلى درجة أنني عجزتُ عن الكلام. «هاك بابا،» قلت وأنا ألف يديه حول الكتاب وأهمس، «أنقذتُ هذا، لا تخبر ماما وموسى.» ضمّه إلى صدره بيد واحدة، واستند على كتفي بالأخرى، ووقفتُ أنا وبابا الذي تلّع عنقه نتأمل البحر.

فجأة سمعتُ أنفاسه تتغير. «لا أكاد أرى البحر،» غمغم.

«البحر هادئ اليوم بابا،» قلتُ آملاً أن أصرف انتباهه. «إنه يوم مناسب للسباحة. يوم مناسب لتستلقي على ظهرك وتعوم.»

ومض النور بسرعة على الماء كأنه نوارس تحتشد حول طعام كان البحر الغيور يحبسه عنها. حاول أن يتطلّع صوب بيت أستاذ رشيد لكنه حدّق إلى أعلى مما ينبغي. «ربما يتسنى لنا أن نذهب للسباحة،» قلت، ومرة ثانية تمنيت ألا يردّ. ثم

التفت، والتفتُ معه مثل «نصفي روح واحدة، صفحتين من كتاب واحد مفتوح». «دعنا نمشي تحت الأشجار،» قال.

نزلنا ومِشينا على الرسوم التي بعثرتها الشمس الواطئة تحتنا. رأيتِ السلّم المسنود على الحائط حيث تركته بعد أكلي للتوت. أفلتُّ بابا وتسلّقتُ السلّم. عندما أصبحتُ في منتصف الطريق نظرتُ إليه ورأيته يستريحِ على الحائط ويده على ضلعه. بدأتُ أتصيّد التوت. كرّستُ عينيّ لتبحثا فقط عن تلك الكائنات الصغيرة الداكنة. حبوتُ على يديّ وركبتيّ على طول الحائط العالي متفقّدًا الفروع إلى أن عثرتُ على تاج من التوت، داكن الحمرة، ناضجًا غنيًا بالعصارة وكل حبة منه بحجم خنفساء. كان يقتعد الأرض وظهره مستند إلى الجدار، يمسك حجرًا صغيرًا - حجرًا يشبه كثيرًا الحجارة التي قذفتها على بهلول والتي أصابته إصابة موفّقة لما حطّت على ظهره - ويطعنه في التراب قريبًا منه. عندما نزلتُ إلى الأرض أريته التوت الذي يملأ يدي، «توت بابا توت. لقد سرقته الملائكة من الجنة لتسهّل الحياة علينا. إنه أحلى شيء في الدنيا.» تناولتُ واحدة وحشرتها بين شفتيه المتورمتين. ولما لم يفعل شيئًا قلت، «امضغ.» حرّك فكّه السفلي إلى الأعلى والأسفل عدة مرات ثم بصق التوتة في يده. لم أفهم لماذا. ذقتُ واحدة ووجدتها لذيذة كعهدها أبدًا. «ألا تحبّ التوت؟» سألته لأن شفتيه المشوّهتين جعلتاه يبدو كالمتقزز. رمى التوتة الممضوغة على التراب، ومسح يده بجلابيته، ثم أشار بإصبعه إلى الحرق المستدير الصغير على صدغه وقال وهو يزدرد الهواء، «أطفأوا سجائرهم هنا.» أطرقتُ أنظر إلى التوت في يدي.

٢١

لازم بابا غرفته معظم الوقت في الأسبوعين التاليين. ثم استيقظتُ ذات صباح لأسمعه وماما يضحكان. كانا طبيعيين كما لو أن شيئًا لم يحدث. صوتاهما صافيان يحلّقان مفعمَيْن بالحب في بيتنا. ثم سمعتها تغني لنفسها شاردة الذهن، بتلك الطريقة التي اعتادتها وهي تستحم أو تعلّق الملابس في الخارج لتجفّ أو تكحّل عينيها أمام المرآة أو ترسم في الحديقة. ذلك الغناء الذي استدعى فيها دائمًا صبية غافلة عن نفسها تمشي من المدرسة إلى البيت، تمرر أصابعها على الحيطان، قبل لحظة من المقهى الإيطالي، قبلي وقبل بابا وهذه الحياة. سماعها أربكني. كان قد مضى وقت طويل منذ أن سمعتها تغني هكذا.

بعد فترة قصيرة دُفِع بابي ودخل بابا. تصنعتُ النوم، بيد أن قلبي خفق بشدّة وتردّد وجيبه تحت أذنيّ. أحسستُ به يجلس على السرير قربي. «سلومة،» قال برفق. كان صوته قد تحسّن وغدا طبيعيًا تقريبًا. عندما لم آت بحركة وقف وغادر الغرفة. وما لبث أن تناهى إليَّ صوت ماما في المطبخ يرتفع وينخفض.

أبقيتُ نفسي أسير غرفتي لبضع دقائق، ثم نهضتُ وذهبتُ إلى الحمّام. حين خرجتُ لم أدر أي وجهة أقصد: المطبخ حيث تعالى صوتاهما وصوت احتكاك أدوات المائدة بالصحون، أم غرفتي لأنال قسطا آخر من النوم. ربما، قلتُ لنفسي، أستطيع قضاء اليوم بأكمله نائمًا.

«سـلومة،» نادتني ماما بصوت مرح.

كانا معًا جالسيْن إلى الطاولة، وثمة ابتسامة علـى وجـه بابا. تملّكتني رغبة عارمة في أن أسأله لماذا يبتسم، لكنني لم أفعل. فتح ذراعيه وقال، «تعال سلومة.» كان شعره ممشطا وجسمه يفوح برائحة الكولونيا، لا بدّ أنه اغتسل ولا بـدّ أن جروح ظهره قد اندملتْ بما يكفي ليستحم.

«احمدِ الله يا سلومة لأن بابا يشعر بتحسّن كبير اليـوم،» قالت ماما.

حمدتُ الله بصوت عالٍ لأبيّن مدى سروري. حرّرني من بين ذراعيه واحتوى وجهي بيديه. كانتْ يداه ترتعشان، أمـا عيناه فبدتا كعهدهما السابق تقريبًا. تمعنتُ فيهما، لكنني وجدتُ صعوبة في العثور عليه هناك.

بعد الفطور تولّتْ ماما قراءة الصحيفة له. ركّـزتْ فقـط على الأخبار الدولية، وكلمـا ورد ذكـر بلادنـا أو زعيمنـا غمغمتْ بالكلمات بسرعة. عندما ضبطني أراقبه ابتسم.

«أعتقد أنني سأرسم اليوم،» أعلنتْ مامـا وهـي تطـوي الصحيفة.

نظر إليّ بابا. فبدأتُ أشعر بالتوتر؛ التوتر الـذي ينتابـكَ عندما تجد نفسك وحيدًا مع غريب في المصعد.

«وماذا ستفعل اليوم يا سليمان؟» سألني.

اكتفيتُ بهزّ كتفيّ.

عادت ماما ويدها تقبض على أقلام رصاص. كان هنـاك وعاء فاكهة متنوعة في وسط الطاولة. أمسكتْ كلّ واحدة منها على حدة وقلّبتها بيدها، ثم اختارتْ برتقالـة. خرجـتْ إلـى الحديقة وهي تهتف، «سأعود لآخذ كرسيًا وطاولة صـغيرة. إي، سأحتاج إلى طاولة صغيرة. أوه، أنا متحمسة كثيرًا.»

بقيتُ أنا وبابا وحدنا من جديد. وفيما هو يأخذ نفسًا ليتكلّم

رنّ جرس الباب.

ركضتُ لأجيبِ. كان الطارق أستاذ جعفر.

«أهلاً،» سمعتُ بابا يقول من خلفي.

تصافحا. كانت هذه أول زيارة لنا على الإطلاق يقوم بها أستاذ جعفر.

«يسعدني أن أراكَ مستيقظًا وعلى قدميكَ.»

قاده بابا إلى الصالون، ليس مبتسمًا إنما متضرّجًا بعض الشيء. عندما أضاء النور ندّ عنه ردّ فعل مباغت تجاه صورة القائد الكبيرة. «أنا ممتن لمساعدتكَ،» قال بذهن شارد تقريبًا ثم التفت إليَّ. «قُل لأمكَ أن تعدّ الشاي.»

وجدتُ ماما تنصب طاولتها وكرسيها في الحديقة.

«أستاذ جعفر هنا.»

أشرق وجهها.

«بابا يريدكِ أن تحضّري الشاي.»

«إي طبعًا،» قالت ومشتْ بخفة إلى المطبخ.

ذهبتُ إلى غرفتي. شعرتُ بحاجة إلى سماع العالم، أخذتُ مذياعي واستلقيتُ في السرير.

القوات الثورية [كان صوت القائد] قادرة على وتمتلك الحقّ في أن تستخدم الترهيب لتقضي على أي فرد يقف ضدّ الثورة. الآن أصبح ممكنًا لنا أن نضع حدًا للمجتمع الليبي القديم ونبني المجتمع الجديد، حيث تتكاتف العناصر الثورية معًا لتحارب الحركات المعادية للثورة في الجامعات، في المصانع وفي الشوارع.

تعالتْ هتافات الحشود فجأة، جامحة وصاخبة إلى درجة أنها تحولتْ إلى موجة من الضوضاء، مجتاحة في طريقها كلّ

شيء، ولأنها طغتْ على كلِ شيء، وكانت بلا معنى، تُقتُ إلى عودة صوت القائد. جلتُ بالمؤشر على المحطات في دورتين أو ثلاث، وكلما عدتُ لم أجد سوى الضجيج الهائل الأجوف للحشود.

قرّرتُ الذهاب للسباحة. ارتديتُ لباس البحر، حملتُ زعنفتيّ وهرعتُ خارج البيت. كانت ماما في الحديقة ثانية، ترسم برتقالتها وتغني لنفسها. رأتني بلباس البحر وزعنفتاي تحت ذراعي.

«انظر أولاً،» هتفتْ وهي تريني رسمًا لبرتقالة بقلم الرصاص، ضعف حجم الحقيقية.

«إلى اللقاء،» قلتُ ومضيت.

«حينما تعود سيكون لدي رسم آخر. ربما مع القشرة مطروحة جانبًا. أتذكّر رؤية لوحة هكذا لرسام أوروبي. إن أولئك الأوربيين يهتمون بالفاكهة كثيرًا، وأتساءل ما السبب،» قالت متفكرة وهي تتأمل رسمها.

*

كانتْ الأرض ساخنة، فكّرتُ في العودة لآتي بصندلي. كان أمامي مسافة لا بأس بها حتى أصل إلى البحر. بيد أن وقف اندفاع خطواتي تطلّب مني جهدًا أكثر من مواصلة المشي. خطر لي أن أنتعل زعنفتيّ، لكنني رأيتُ أن ذلك سيجعلني أمشي ببطء وسماجة كحمامة. حاولتُ المضي محتميًا قدر الإمكانِ بفيء حيطان المنازل، لولا أن الشمس كانت عمودية، والظل ضيق وشحيح. لذلك وجدتُ أن السير تحت الشمس أسرع. مشيتُ كحشرة؛ مرفقاي مرفوعان إلى أذنيّ، ظهري منحنٍ، وقدماي متقوستان فوق الأرض الملتهبة. وثبت بسرعة

كأنني أكاد أموت رغبة في التبول. توقّفتُ عدة مرات وقعدتُ أرضًا لأمنح قدميّ استراحة؛ أفركهما وأنفخ عليهما. فكّرتُ في الجسر الذي يزمزم فوق نيران جهنمٍ، الجسر الذي علينا جميعًا أن نقطعه لنصل إلى الجنة. اعتبرت البحر هدفي؛ جنتي. ولما بلغتُ شارع جرجارش، الشارعِ العريض الذي يتبع الطريق البحري إلى وسط المدينة، رأيت الحرارة تموج فوق الإسفلت. قطعته جريًا، قطعتُ الرمال جريًا أيضًا إلى أنْ وصلت إلى رمل الشاطئ المنبسط المندّى بالماء. وحظيتْ قدماي أخيرًا بالإغاثة المباركة. كانت المويجات الواهنة تضفر رغوة أطرافها البيضاء على وجه الماء الفيروزي، والريح شبه ساكنة. تطلعتُ إلى الرمل الجاف خلفي وتساءلت كيف سأتمكّن من العودة.

في نهاية جسر الميناء، حيث ترقرق الماء صافيًا كالزجاج، لمحتُ شخصًا يجلس مدليًا قدميه في الماء. لوهلةٍ، قبل أن أتذكّر أنه وأمّه قد انتقلا إلى بنغازي، أملتُ أن يكون كريم. عندما تقدّمتُ أكثر وتبيّنتُ أنه بهلول كدتُ أضحك. بدا كأنه مستغرق في أحلام اليقظة. لم أتصوّر "بهلول" قطّ يجلس هكذا في حالة تأمّل انفرادي. صرّ جسر الميناء تحت قدمي. حينما أصبحتُ قريبًا منه لم أستطع سوى أن أقرقر، وإذا به يلتفتُ بوجه طمس الخوف معالمه. لاحظتُ أنه يرتعد، فأغاظني ردّ فعله هذا. خبطتُ خشب الجسر بقدمي وزمجرتُ في وجهه «غررر،» وفي الحال عادت لي ذكرى تلك الفورة الخفية من القوة التي اجتاحتني وأنا أطارده في حديقتنا، أرشق ظهره بالحجارة، وأسمع حجارتي تصيبه بضربات تشفي الغليل، تلك الإصابات التي جعلته يزعق على نحو بشع كفرس. وقف وبدأ يتحرّى وسيلة للهروب. ولكن، كيف يمكن أن يقع في الشرك مع كل ذلك البحر وراءه؟ تظاهرتُ أنني

أنوي الهجوم عليه، فاستدار بطريقة شعائرية نحو البحر وبعد وقفة قصيرة قفز إلى الماء. كان في طريقة سقوطه شيءٍ مبالغ فيه، كما لو أنه قفز من ارتفاع شاهق. حينها فقط أدركتُ لماذا لم يبلل بهلول قاربه، لماذا، بالرغم من أنه ادّخر النقود ليبتاع قاربًا لم يبدأ بمزاولة الصيد؛ بهلول لا يحسن السباحةِ!

سمعتُ تخبطه العنيف العقيم في الماء. أفلتُّ زعنفتيَّ وأسرعتُ إلى طرف الجسر. مددت يدي إليه. أردتُ أن أنقذه - وهو أيضًا عرف ذلك - حاول أن يشق طريقه إليَّ. كان يبتلع الماء، وجلابيته التي انتفختْ حوله كبالون عوّقت جهوده. تذكرتُ تحذير ماما لي بخصوص الغوص لإنقاذ غريق. «إياكَ أن تفعل،» قالت. «الغريق متعطش جدًا للحياة ويمكن أن يغرقكَ معه بمنتهى السهولة.» حاولتُ جهدي الوصول إليه، لكن "بهلول" كان يغرق. عندما توقفت عن محاولة إنقاذه اجتاحته قوة ما. خبط الماء وركله حتى نجح في القبض على واحدة من دعائم جسر الميناء.

مددتُ له ذراعي لكنه بصق عليها ونظر حواليه كما لو أنه يتوقّع أن ينقذه شخص آخر. إلا أنه لم يكن هناك أحد غيري. لا أحد إلا أنا. وبدون أي تخطيط مسبق وجدتُ نفسي أدفعه إلى الماء بقدمي. كان شعره المتشابك خشنًا ولزجًا. قبضٍ على كاحلي في محاولة منه للدفاع عن نفسه. زادني هذا حنقًا. وفيما أنا أحرّر كاحلي رفسته على وجهه. تدفّق الدم من أنفه ولوّث الماء. بيد أنني كنتُ أعرف جيدًا أن الماء المالح مفيد للجروح. بدأ يزعق بطريقته تلك التي تشبه صياح فرس بصوت أعلى من أي وقت مضى. دفعته إلى الأسفل ثانيةً لأخرسه. فجأة، بدون سابق إنذار، تلاشت مقاومته، فسحبتُ رجلي من الماء. وبعد سكون أحسستُه أبديًا، طلع بهلول مجددًا وهو يسعل ويتقيأ، موسخًا الماء الصافي. عاد وتمسّك بدعامة

الجسر ورمقني بنظرة جمعتْ بين الخوف والسخط.

«كيف أنفكَ؟» سألته.

لم ينبس ببنت شفة فيما عانق الدعامةِ وأبقاها حاجزًا بيننا.

خطر لي أن أعتذر، إلا أنني التقطتُ زعنفتيّ وانصرفتُ. وقلبي ما برّحه الحنين أكثر مما برّحه حينذاك؛ الحنين إلى صديقي الحقيقي في بنغازي على بعد اثنتي عشرة ساعة مني.

٢٢

تبدّتْ لي الأيام التي تلتْ مشوبة بالرهبة. أي شيء قيل فيها كان أجوف وبدون معنى. وفي أغلب الأوقات أحسست بغضب كامن يعتمل في داخلي، وسمعتُ الباب يُصفق خلفي بعنف في حين ما قصدتُ إلا أن أغلقه. في بضع من المرات الأولى التي حدث فيها ذلك، هرعتُ إلى حيث كان بابا وماما ونظرت إليهما متوقّعًا من أحدهما أن يوبّخني. لكن أيًا منهما لم يفعل. عندما ساعدتُ ماما في تحضير المائدة، تركتُ الصحون تسقط بصخب. وكثيرًا ما قذفتُ حذائي إلى الحائط إذا استعصى عليَّ فكّ رباطه. استشففتُ داخلي موجة عصبية مكتومة تحوّم حول تلك الثورات المباغتة، جعلتني أعتقد أن تأثيري في هذا العالم قد لا يكون بالتفاهة التي ظننتها. في بعض الأحيان، كنتُ وأنا في الحمّام وبعد أن أدفع الماء في المرحاض، أسمع في هدير الصهريج وهو يمتلئ صوت ماما يناديني. وحينما حدث هذا في البداية كنتُ أخرج في عجلة متلهّفة صائحًا، «ماما؟!» ليأتيني صوتها بعد سكون يُخيّل لي أنه أبدي، «نعم، ماذا هناك؟»

كفّ موسى عن زيارتنا. ولما تلفن مرة كان الخطّ مشوشًا. «سلومة،» سمعته يقول، ثم مباشرة، «أين ماما؟» مع أنه ليس من عادته أن يكون مقتضبًا. أسرعتُ ماما إلى الهاتف، ثم نقرتْ أصابعها وأشارتْ إلى القلم والكراسة. ناولتها ما تريد، فكتبتْ بسرعة وهي تسأل، «هل هي مدرسة جيدة؟ متأكد؟» ثمّ قُطعتْ عليهما المخابرة.

*

ذات ليلة استثنائية القيظ أفقتُ من حلم مزعج. لم يتضمّن الحلم قصة، فقط قشعريرة فزع عميق تعتلج في صدري. لمحت نورًا خافتًا يأتي من غرفة الجلوس. لم أسمع بابا يشخر، ومع ذلك وجدتُ ماما هاجعة على الكنبة، وقد نحّت غطاءها وفتحت النافذة المجاورة لها. كان ثمة جدجد في الخارج يخترق الليل بصريره. لم أجد متسعًا لأرقد بجانبها. وقفت برهة أفكر في خياراتي، ثم انبطحتُ فوقها وعانقتها. قامت مجفلة مضطربة الحواس. «بسم الله» غمغمتْ بسرعة، يدها على صدرها وعيناها نصف المغمضتين تحاولان اجتلائي، «سليمان؟ ماذا تفعل هنا؟ هل راودكَ حلم مزعج؟» ثم أخذتني من يدي عائدة بي إلى غرفتي، أضاءت المصباح الجانبي، قبّلتني على جبيني وغادرت.

*

ما عاودها المرض قطّ، وما جاءت قطّ ثانية إلى سريري لتهمس حكايات الماضي الدفينة. بدتْ سعيدة تمامًا مع بابا. بل إنني في بعض الصباحات كنت أسمعهما يقهقهان معًا، لكنهما كانا يتوقّفان حالما يريانني. حياتهما الجديدة معًا؛ الحياة التي كفّ فيها بابا عن السفر، وماما ما مرضتْ خلالها مطلقًا، أبعدتني عنهما، ولأول مرة في حياتي على الإطلاق، رغبتُ بلهفة في أن ينقضي الصيف وتبدأ المدرسة.

ذات ليلة أيقظني من النوم أنين غريب. ذهبتُ إلى غرفتهما ورأيتُ بابا فوقها. لكن المشهد هذه المرة كان مختلفًا. لم تستلق ماما تحته بائسة، مشيحة بوجهها وإحدى يديها

ممدودة خفِية قربها ومستسلمة إلى السماء. بل كانت عيناهـا مسمّرتين في عينيه وساقاها تلتفان حوله، والأنين لم يكن أنينه وحده، إنما كما بدا، تشاركا ذلك الوجع معًا. هذه المـرة لـم أتساءل ما إذا كان ينبغي لي التدّخل. فلا شيء، كما رأيـت، بقادر على إيقافهما. أردتُ أن أتقدّم خطـوة أخـرى وأدخـل الغرفة. لعلهما، قلتُ لنفسي، إذا رأياني يتوقّفان. أردتهمـا أن يتوقّفا، أو يترِيّثا برهة.

اقتحمتُ المطبخ وأنا أجري صافقًا الباب ورائي، ومنه إلى السطح حيث اختبأتُ في ورشتي. كانت السماء فيّاضة بالنجوم التي ذوت من وراء دموعي، ولم يكن هناك قمر. أنا بأمـان، قلت لنفسي، لأنهما لن يتمكنا من رؤيتي إذا صعدا إلى هنـا. قعدتُ أترقّب وأنا أكتم أنفاسي قدر الإمكـان معانقـا ركبتـيّ ورائحة جلدهما المالحة. تذكرتُ كلمات الشيخ مصطفى: «هذه الأجسام ليست إلا عربتنا، وستفنى في حين سنستمر.» توقّعتُ أن يصعد بابا نصف عارٍ، حول خصره منشفة، يصيح باسمي غاضبًا، وماما تتبعه وترجوه ألا يؤذيني. لكن لا أحـد جـاء. جفّفتُ دموعي ومضيتُ عائدًا. فجأة أفزعتني الظلمة، فعدوتُ وعدوتُ متوقعًا أن تمتدّ إليّ يد وتمسك بخناقي. تـسللتُ إلـى المطبخ ومنه إلى غرفتي على رؤوس أصابعي. كـان نـور غرفتهما لا يزال مُضاءً، كانا ساهرين يتحدّثان، يناقشان أمرًا بهمسات بدتْ ماما بشكل خاص غير قادرة على كبحها جيدًا، ليست غاضبة، إنما ملحّة، ومنفعلة تقريبًا. صفقتُ باب غرفتي خلفي.

بعد بضع دقائق جاءتْ ماما ووقفت تراقبني فـي النـور الخافت المنبعث من غرفتهما. نظرتُ إليهـا مباشـرة، غيـر متظاهر أنني نائم، غير متظاهر بأي شيء. فأغلقـتْ البـاب وعادت إلى بابا، ثم سمعتهما يستأنفان حديثهما المهموس.

*

في الصباح التالي أفقتُ على وطأة جسم ماما يغور قربي على السرير، ثم بأصابعها تعبث بشعري. «ستذهب في رحلة،» قالت، «إلى القاهرة، لتزورِ موسى وعائلته وترى الأهرام.»

«لكن موسى هنا،» قلتُ بصوت أثقله النوم.

«سافر قبل بضعة أسابيع. وطلب مني أن أخبركَ أنه ينتظركَ بفارِغ الصبر في القاهرة.»

أشحتُ عنها ووليتها ظهري.

«ما الحكاية؟ ألا تريد رؤية الأهرام؟ إنها أكبر بكثير من لبدة.»

«لا أريد الذهاب،» صحتُ.

جاء بابا وعانقني. «هيا يا سلومة، هيا،» هتف.

«الكثير من الناس يحلمون برؤية الأهرام،» قالت ماما.

«لا أريد أيِ أهرام.»

«أما رغبتَ دومًا في أن تركب الطائرة؟ أنسيت؟» قال بابا.

أومأتُ موافقًا. «ولكن المدرسة ستبدأ قريبًا.»

تبادلا النظرات، ثم قال بابا بعد مراجعة ما سينطقه ملياً: «ستحبّ القاهرة يا سلومة،» ردّد ذلك بصوت جرحه الحزن.

٢٣

أخذاني بالسيارة إلى المطار، وظلا طوال الطريق يتجـادلان بشأن أي طريق نسلك: بابا يريد أن يسلك الطريق المباشـر، وماما تصرّ على الذهاب عن طريق ميدان الشهداء. قالـت إن ثمّة شيئًا تريد ابتياعه من هناك. أجلساني إلى جواره، وجلست هي في الخلف. المرة الوحيدة التي قعدنا فيها هكذا كانت قبـل أربع سنوات، وأنا في الخامسة من عمري، حينما أعاداني من المستشفى. كنتُ ألبس جلابية بيضاء، وكان الجزء الذي فوق إربيتيَّ ملطّخا باليود ذي الحمرة المائلة إلى الزرقـة. يومهـا أبقيت ساقيّ مفتوحتين لأخفّف من حدّة الألم، وشغلتُ المقعـد الأمامي لأن فيه مزيدًا من الاتساع للأرجل. أما ماما فجلستْ في الخلف تصفّق وتغني الأغاني المعتادة. تذكّرتُ كيف رحتُ أرتجف حينها من الصدمة، من الانتهاك.

كان ميدان الشهداء مكتظًا بالناس، والشمس رحيبة كرحابة العالم. أوقف بابا السيارة قريبًا من الميدان.

«ثوانٍ وأعود،» قالت ماما قبل أن تجتاز الميدان وتختفي.

كانت يدا بابا متشبثتين بالمقود. وكان قد أطفـأ المحـرك دون المؤشر الذي واصل تكتكته. جلس يحدّق إلى الأمام بوجه خالٍ من التعبير.

تأمّلتُ الميدان وأنا أفكّر في ناصر. استرجعتُ في ذهنـي ما قاله أبوه في بيتنا: «أخبرني الناس أنهم شاهدوا شابًا يعبـر الميدان جريًا وهو يتأبط آلة كاتبة، وجمع من رجـال اللجنـة الثورية يطاردونه.» تصوّرته مع آلته الكاتبة، سوداء ولامعة،

الآلة الكاتبة نفسها التي كان يتأبطها عندما لمحته يتبع بابا إلى «مقرّهم،» موقعهم السري في الميدان، تصوّرته يعدو حافيًا، عيناه متسعتان من الخوف، قميصه منتفخ بالهواء، يتلكأ للحظة - «هذا الطريق؟ لا، ذاك؟» - قبل أن يستدير صوب السوق، آملاً في أن يختفي بين الحشود، وعندما يمسك أحد مطارديه بتلابيب قميصه، يستدير بسرعة قصوى، بينما تفلت الآلة الكاتبة من يديه باتجاه آخر. الآلة الكاتبة نفسها التي حاول، بناءً على طلب بابا، أن يعلّمني الطباعة عليها، يلتفتُ ويداه فوق رأسه تحسّبا لما سيأتي، مثل أستاذ رشيد قبل أن تُركل مؤخرته - أعتقد الآن أن التحسّب هو الجذر، هو المصدر الذي تأتي منه جميع الحظوظ العاثرة - يزعق مثل فرس، كما زعق بهلول الشحاذ، ثم يخرّ أرضًا وقد لحق به بقية مطارديه، يركلونه باسم السلطة، فيبدأ بالصراخ، يصرخ مناديًا أباه ليأتي وينقذه لأن كل ذلك كثير جدًا ومبكر جدًا، يتوسّل، يبكي، وللحظة يغدو وجهه مرئيًا وسط غابة السيقان؛ خطّ من الدم فوق إحدى عينيه، شفته السفلى متورمة كباذنجانة صغيرة، كما كانت شفة بابا. ترى، لماذا كنا نكنُّ احترامًا فائقًا لمنظر الدم؟ ولماذا الشمس شديدة القسوة؟ «أين ناصر؟» سألتُ فجأة بصوتٍ عالٍ. بدا بابا كأنه يفيق من أفكاره. «أين ناصر؟» صحتُ به. «هل قتلوه أيضًا؟» حدّق إليّ بعينين مرعوبتين. فكّرتُ في أن أصفق يديّ أمام وجهه، لكنني بدلاً من ذلك غمرتُ نفسي فيه. انقاد جسمه لي. ضمّني، طواني. تذكّرتُ أستاذ رشيد وهو يضمّ "كريم" هكذا في الحافلة بعد عودتنا من لبِدة؛ لبِدة الجميلة. «لا أريد أن أسافر، لا أريد رؤية الأهرام،» حاولتُ أن أقول لكن صوتي اختنق في ثنايا ثيابه.

ثم سمعتُ الباب الخلفي يُفتح، وجسم ماما يهزّ السيارة. انتظرتْ بصمت. لم تسارع لتسأل «ما الحكاية؟ ما الحكاية؟»

بعد هنيهة قالت، «دعونا ننطلق،» وبذلك انفصلتُ عن بابا. شغّل المحرك. كان له وقع لطيف، منتظم، همهمة مريحة محكومة بدورات معتدلة. نقر المؤشر في الاتجاه المعاكس وأقلع بالسيارة. وعندما غدونا في الطريق المستقيم توقّف المؤشر بطيب خاطر. التفت إلى ماما، كان على حضنها كيس عامر بأصابع السمسم، والنظارات الشمسية تحجب عينيها.

*

كان المطار خاويًا. استحكم بي الهلع نفسه الذي أصابني في أول يوم مدرسي. كانت كراسي البلاستيك البرتقالية متراصّة في صفوف كفرق الكشافة فوق الأرض الرخامية الداكنة. لم ألاحظ أنها بدون حقيبة إلا عندما رفع بابا حقيبتي الثقيلة إلى منصّة الكشف والتوصيل، وتذكّرتُ أنها قد قالت، «ستسافر في رحلة.» «ستسافر»، وليس «سنسافر». قرّعتُ نفسي لإغفالي هذا التفصيل من قبل؛ من قبل عندما كان يمكنني أن أتشبث بهيكل الباب، ببوابة الحديقة، أو كان يمكنني أن أهرب إلى البحر.

استغرق بابا في محادثة امرأة تلبس زيًا رسميًا. كان لديها دبوس زينة على شكل جناحٍ مثبّت على ياقة سترتها. صوّب إصبعه نحوها ثم دسّ مالاً في يدها. أومأتْ برأسها موافقة، لمسته من ذراعه وانصرفتْ والابتسامة لم تفارقها طوال الوقت. فجأة، حشر يديه تحت إبطيّ ورفعني ليحضنني.

«سنأتي لنراك،» قال وهو يعصرني بين ذراعيه بقوة بالغة.

كانت ماما تقف خلفه، إحدى يديها على فمها، عيناها مختفيتان وراء النظّارة السوداء. «ستعود إلى البيت قريبًا،» قالت وهي تومئ برأسها كأنها تعيد طمأنة نفسها.

«لا تبكِ سلومة أرجوكَ،» هتف بابا.

تسلمتني المضيفة بعدئذٍ، تلك التي بدتْ أنها تعرف كل شيء. نظرتُ إلى الوراء ورأيتُ ماما بين ذراعي بابا. هناك كانا؛ المخلوقان اللذان أحببتُ أكثر من أي أحد آخر، المخلوقان اللذان كنتُ متأكدًا من أنهما سيقدِمان على أي شيء في سبيل إخفاء الحقيقة عني، واقفيْن متلاصقيْن في المطار الفارغ يتلاشيان عن ناظري. أهذا هو وقت التلويح؟ لكنني ما عدت قادرًا على رؤيتهما، وأينما التفت لم أعد أرى أي أثر لهما.

لم يكن من الممكن إخفاء الحقيقة، كانت مخادعة، ذات طبيعة خبيثة، وتسرّبت طوال الوقت بوتيرة لا مبالية. ما يثير الدهشة هو أنها كانت منذ البداية مُدركَة ومعلومة. فأنا عرفت دائمًا أنني سأُرسل وحدي إلى القاهرة، وأن اسم المدرسة الذي دوّنَته ماما في إحدى مكالماتها الهاتفية، والسماعة تستند على كتفها، هو اسم مدرستي المستقبلية. عرفتُ ذلك قبل أن ألاحظ أنها لم تحضِر معها حقيبة إلى المطار، عرفته عندما نشجتُ «لا أريد أن أرحل، لا أريد أن أرى الأهرام،» في حضن بابا بينما كانت ماما تشتري لي أصابع السمسم التي قصدتْ بها تحلية فمي، تغليف المذاق المرّ، الاحتيال لاستدراجي بعيدًا عن حزني. عرفته ولم أهرب إلى البحر. وعندما أُخِذتُ أخيرًا إلى مقعدي في الطائرة، الطائرة التي حتى تلك اللحظة حلمت بدخولها مع أبي، كلانا ناضج، كلانا متأنق في اللباس، مشغول بشؤون العالم، مثقل بالهمّ كحال جميع الرجال، عرفتُ أنني لن أرى أبي ثانية، أنه سيموت بينما أنا أستقرّ وحيدًا في بلاد غريبة لأترعرع بعيدًا عن الجنون.

*

أخافني دويّ الطائرة وهديرها في أثناء الإقلاع قبل أن أتلفت

حولي فأرى كم كان جميع المسافرين هادئين. لم تكف المضيفة التي أخذتني من ماما ووضعتني في مقعدي، عن الابتسام لي و تدليلي بسكاكر على أغلفتها رسوم طائرات؛ المضيفة التي دسّ بابا في يدها الناعمة كمية من الدنانير المطوية بإحكام. بدت الغيوم كالقطن، والزرقة هائلة، والعالم في الأسفل صفحة أطلس حية بسيارات تشبه الديدان، والنوافذ الصماء تعكس النور. كانت ليبيا شريطًا ساحليًا، على أحد جانبيها الصحراء الصفراء المتوغلة في أفريقيا، وعلى الآخر الزرقة الملكية لبحر طفولتي المتوسطي، الزرقة المتموّجة المنثورة بالزبد.

*

عندما هبطنا في مطار القاهرة الدولي أخذتني المضيفة من يدي. تجمّعت النساء اللاتي يعملن في السوق الحرّة حولي، قبّلنني، ثم مسحن أحمر شفاههن من على خدي. كل واحدة منهنِ عبقتْ برائحة مختلفة، لكن أي منها لم تشبه رائحة ماما. ملأتْ جيوبي بمزيدٍ من السكاكر المغلفة برسوم الطائرات. قفز قلبي لما لمحتُ موسى، رأسه يعلوِ الحشود، ذراعاه تلوّحان لي بنصف هلال. عانقته وكبحتُ جماح نفسي لئلا أسأله أن يعيدني. صافح مضيفتي وهو ينْحني لها باستحياء. قبّلتني قبلة الوداع. «متى سيعود؟» سألتُ. تردّد موسى ثم قال، «قريبًا إن شاء الله.»

كانت القاهرة خضراء ومزدحمة، تعجّ بعمائم المزارعين ونساء بفساتين فرنسية قصيرة. متاهة لا نهائية مطرّزة بالسيارات، وبعيون الحمير الكبيرة الهلعة ونداءِ الباعة الجوالين: صاخبة، قلقة وغامضة الحبور. أحببتُ المدينة

فورًا. كان موسى يعرفها جيدًا، وأخبرني طوال الطريق من المطار قصصًا عن الأحياء المختلفة التي مررنا بها، توقّف عند منحدر جبل المقطم المشهور، وضع ناقل الحركة في حالة اللاتعشيق، وذهلتُ لما رأيتُ السيارةِ تواصل صعودها. إنه المكان الوحيد في العالم، قال، الذي تُشدّ فيه الأشياء إلى الأعلى بالجاذبية. بعدئذٍ توقّف عند كشك عصير فاكهة وابتاع لي كوبًا ضخمًا من عصير قصب السكر.

*

تولّى القاضي ياسين الإشراف الفوري على شؤوني. وبعد فترة قصيرة من وصولي حصل موسى على عمل في أحد مقالع الحجارة الجديدة التي ثلّمتْ الصحراء المصرية للحصول على الرمل والحصى. وبدا أن العمل يناسبه: الحجارة، الجرارات الكبيرة، سيارات الجيب، امتداد الأرض الشاسع، وساعده هذا في البقاء بعيدًا عن قبضة أبيه. كان يأتي كلّ بضعة أسابيع ليستريح أسبوعًا، شعره معفر بالتراب، يداه خشنتان، ورقبته لوحتها الشمس، ليقابَل بنظرة القاضي ياسين المتأسية، والحزن يتآكله لأن ابنه البكر بدلاً من أن يسير على خطاه، كان يهدر وقْته في ترؤس عمال مقلع حجارة.

أما أنا فصُرِفتُ معظم أيام حياتي مع ذويه. أُعجب أبوه الحازم القاضي ياسين بانكبابي المفرط على دراستي، ولذلك لم يوفّر جهدًا أو مالاً في دعمي. كان لطيفًا، كريمًا، وكثيرًا ما استرجع ذكريات أيامه في ليبيا أمامي. وخمنتُ أنه كان يحاول إطرائي بذلك. إلا أن ليبيا أمعنت في الانفصال عني، صارت أقلّ أهمية عندي. وكلّ ما ربطني بها كان مكالمات والديّ الهاتفية التي ازداد تفاوتها أكثر فأكثر. غدتْ لكنتي قاهرية

بسرعة، وكففتُ عن محاولة تلطيفها في أثناء اتصالي ببيتنـــا. كره بابا، بشكل خاصٍ، هذا. «لقد أصبحت أكيل *فول*.»

اندمجتُ بسهولة تقريبًا فـــي أســـلوب حيـــاتي المـــصرية الجديدة. ساعدني صغر سني والقاضي على جعل هذا ممكنًا. أصبحتْ دائرته الواسعة من الأصدقاء والمعـــارف دائرتـــي، وأولئك القضاة المصريون الشيوخ ذوو الشفاه الرطبة الـــذين اعتادوا طوال تلك السنوات الماضية الاجتماع في شرفته فـــي طرابلس، قريبًا من بيتنا، في الحي الذي أحبّ القاضي ياســـين تسميته جورجي بوبولي، رعوني بمودّة خاصة. وفي بلاد تعجّ بالأبواب المغلقة، فتحت لي الأبواب بدون عناء، ميسّرة تقدمي وتحديدي لكينونتي.

ما كان مدهشًا حقًا هو الشوط الذي قطعته فـــي شـــعوري بالتحرّر من ليبيا. إذا سخر أحد أصـــدقائي مـــن «أصـــولي البدوية»، أو من فريق كرة القدم الليبي غير الفعّال، ابتـــسمت ولكن لأرضيهم فقط، إنما في الحقيقة ما شـــعرت بـــشيء، لا شيء من ذلك الاتقاد الذي دفعني مرة إلى البكاء، بعـــد ســـت ساعات من متابعة مباراة شطرنج خسر فيها الليبي لمـــصلحة الكوري في بطولة الشطرنج الدولية في موسكو. إن القوميـــة رفيعة كالخيط، وربما لهذا السبب يشعر الكثيرون أنـــه يجـــب صونها بحرص. لم أبحث عن الليبيين الذين عاشوا في القاهرة ولا تجنبتهم. هذا على الرغم من أنني عرفتُ أن السفارة لديها ملف عني. صُنّفتُ أولاً «فارًا» لأنني لم أعد من أجل الخدمة العسكرية. ثمّ، عندما أصبحتُ أكبـــر ســـنًا مـــن أن ألتحـــق بالجندية، ولكن أصغر من حصولي على إعفاء، نصّ مرسوم آخر على أنني إذا عدتُ فسأقضي المدة ذاتها فـــي الـــسجن. ومثل حال جميع الليبيين الذين لا يعودون، حـــطّ علـــيّ ظـــل راسخ من الشبهات، دُعم بعدُ بمرسوم آخر، أُصدر وأنا فـــي

الرابعة عشرة، يتوعّد جميع «الكلاب الضالة» التي رفضتْ العودة بتعقّبها والقبض عليها. ثم وصلتْ هذه المراسيم إلى حالة أشدّ من الاستماتة؛ فتبدّت النقلة التالية للحكومة في حرمان والديّ تأشيرة خروج من البلاد، محتجِزة إياهما رهينتين، إذا جاز التعبير، إلى أن يعود الكلب الضال.

لماذا تشتاق إلينا بلادنا بطريقة جدُّ وحشية؟ ما الذي ما زال لدينا لنقدّمه لها ولم تأخذه بعد؟

تقتُ إليهما، وإلى غرفتي، وإلى ورشتي على السطح، وإلى البحر وكريم. وأكثر ما افتقدته رائحة بيتنا. مرة، مرة واحدة فقط، حينما كنتُ لا أزال صبيًا، بكيتُ وصرختُ وأنا أقذف أشياء كما فعلتُ سابقًا لأمنع بابا من الذهاب في إحدى سفراته التجارية اللانهائية. جاء ردّ فعل القاضي ياسين شهمًا؛ فبكل بساطة أغلق باب الغرفة التي خصصها لي في بيته، ثم أرسل الخادمة في وقت لاحق مع كوب بارد من عصير قصب السكر. دفنتُ وجهي في الوسادة العبقة برائحة الخزامى الحادّة أتفجّع على ما كان مألوفاً: إقحام وجهي في عنقها، وتقبيل يده.

*

أصبح الدواء مهنتي. أنا صيدلي الآن. شخص يحضّر العلاجات. علاقتي بالمرض شكلية بحت. أقف معظم أيامي بمعطف أبيض، وراء منضدة في صيدلية مجهّزة بالتكييف في القاهرة. إنها أشبه بنكتة. فبعد كل تلك الآمال في أن أصبح مؤرّخ فنّ مثل أستاذ رشيد، أو رجل أعمال ناجح مثل أبي، أو عازف بيانو، امتهنتُ الصيدلة في مدينة من المستحيل أن تنظر في أي شارع من شوارعها بدون أن تبصر وميض

شعار الثعبان الملتف حول قدح مارتيني لصيدلية واحدة على الأقل. وأنا على وعي كامل أن حتى هذا الاختيار جاء بتأثير منها؛ بتأثير مما أطلقتْ عليه اسمِ «مرضها» و «دوائها»؛ ذلك السائل عديم اللون الذي تزوّدتْ به خلسة من تحت منصّة الخباز، والذي ما زال إلى اليوم غير قانوني في ليبيا. وإني لأتساءل في أحيان كثيرة كيف ينظر إليها مجدي الخباز الآن.

*

ينتابني دائمًا شعور بالغياب، غياب دائم الحضور، كيتيم غير متيقن تمامًا ما إذا كان قد خسر أو كسب من فقدانه القسري. فأنا على سبيل المثال، أُذهل وأنفر في آن من مشاعري المفرطة حينما أفترق عن أناس لا تربطني بهم آصرة حميمة، فأعدهم بالتئام شمل مستحيل. لم تحل مصر محل ليبيا عندي، بدلا من ذلك كان هذا الخواء، هذا الفراغ الذي أحاول جاهدًا إدراك كنهه، كشخص خائف من الظلمة يبحث عن عود ثقاب ليشعله. فراغ أراه أيضًا في الآخرين. يتقلب تعبيري باستمرار، شأنه شأن مومس تنتظر في سيارتك ريثما تجتاز شارعًا مزدحمًا لتشتري لليلتك علبة سجائرِ. وفي طريق عودتك وأنت تمزِق السيلوفان، وقبل أن تتمكن من رؤيتكَ، تلمحها وقد تكيّفتْ مؤقتًا مع دور آخر؛ أخت أو زوجة أو صديقة. يا للسهولة والهشاشة اللتين نتقمّص بهما تلك الشخصيات الوهمية، مضللين العالم وما كان يمكن أن نصبح عليه لو أننا فقط لم نكن عقبة على الطريق، لو أننا فقط انتظرنا لنرى ما الذي قد نؤول إليه!

٢٤

تتصل بي أحيانًا لتصف لي وجبة طعام طبختها لإخوتها وأختها وأبويها المعمّرين. فبعد أن شجب بابا معتقداته السياسية، أو شُجِبت فيه، أظهر الأقارب استحسانهم لما فعل بالعودة إلى زيارة أبويّ ثانية. في الحقيقة، غدتْ ماما محبوبة العائلة، حيث تمكنت بنجاح من العثور على زوجات مناسبات لأبناء أخوالي الكثيرين، الذين ما حاولتُ قطّ تذكّر أسمائهم. «كان الطعام لذيذًا جدًا،» تنبري قائلة، «يستحقّ فمك،» حينها أسمعني أقول في سرّي، وكيف لكِ أن تعرفي ما يستحقّه فمي؟!

بدأتْ تشعر بالندم على إبعادي، بعد أن أصبحت عودة من خرج من ليبيا مصحوبة في الغالب بإذلالهم. وصارتْ تحدثني عن أسامة ومسعود وأخيه علي، وعدنان وكريم، وأنهم، نعم، بالرغم من اضطرارهم إلى أداء خدمتهم العسكرية، «كان الله رحيمًا بما يكفي» لأن يضع حدًا للحرب في الوقت المناسب بحيث أن أحدًا منهم لم يُرسل إلى تشاد. كنتُ أتلقى حالات تأسيها تلك بهدوء، لكنني بالتأكيد شعرتُ بقبضة الغضب حول عنقي. «إن تسفيري أفضل شيء قمتِ به في حياتكِ،» اعتدتُ أن أجيبها، وأنا على يقين كامل من أن الخطّ مراقب، وأن كلماتي ستسجّل بعناية بالغة في ملفي، إلى جانب تعليق المتنصّت الذي ربما يخربشه في الهوامش، ليُحفظ إلى الأبد.

كم كرهت تداعي ثقتها بنفسها مع مرور الوقت، وكيف

راحتْ تتطلع إلى الماضي، حانية ظهرها أمامه ندمًا. أردتُها أن تستعيد قناعاتها السابقة، بما في ذلك قناعتها الفولاذية القاسية التي جعلتها تسفّرني بعيدًا رغمًا عن تحفظات زوجها وتوسلات ابنها الوحيد.

*

في سنة ١٩٧٩، بعد بضعة أيام من إرسالي إلى القاهرة، مُنح الشعب الليبي بأكمله مهلة ثلاثة أيام ليودِع ما لديه من سيولة نقدية في المصرف الوطني. وذلك لأنه قد أُعيد تصميم العملة الوطنية، كما زُعِم للناس، احتفالاً بالذكرى العاشرة للثورة. أودع أُناس أكياسًا من العملة المعدنية، وآخرون حقائب من الأوراق النقدية، وأتى البعض بماله في شاحنات، ليتمّ إعلامهم في ما بعد أن سحوبات المصارف الفردية قد حُدّدت بألف دينار سنويًا فقط. تأثّر والداي سلبًا بهذا القرار، لأن عائداتهما الشهرية وحدها تفوق هذا المبلغ. وفي السنة التالية، أُلغِيتْ حسابات التوفير الخاصة التي كانت تشكّل معظم ما أصبحت عليه الحسابات المصرفية، ووقف والداي يتفرّجان على مالهما يختفي «مثل ملح في ماء». وعنى هذا، أنهما وإن سُمح لهما بزيارتي في السنوات الأولى من إقامتي في القاهرة، لن يستطيعا تحمّل نفقات الزيارة. بل، والمحرج أكثر، هو أنهما ما عادا بقادرينِ على تأمين نفقات تعليمي ومعيشتي، وبناءً على ذلك أُلقيتْ المسؤولية كاملة على عاتق القاضي ياسين، الذي تلّقى العبء كلّه برحابة صدر. «أنت وأنا واحد يا رجل، سليمان مثل ابني،» قال لأبي على الهاتف.

لم يجد بابا من خيار سوى البحث عن وظيفة. وحصل على عمل «مشغّل ماكينة» في أحد المصانع المؤمّمة. كان

مصنع معكرونة. وفي البداية بدا أنه وماما يتعاملان مع ذلك وكأنه بدعة طريفة، بل ووجدتُ أنا نفسي تشجيعًا في معنوياتهما العالية، وابتسمتُ أيضًا عندما تسلّمتُ كيس معكرونة بخطّه الجميل على الرزمة البلاستيكية: «تذكار،» ثمّ بين قوسين، «ماكينتي تختم الرزم.» وكم أكبرتُ تقبّله الحسن لهذا المصير اللئيم. بدا أنه وجد فيه شيئًا من المتعة، وأنه حسب قول ماما، أحبّ ساعات العمل؛ البدء باكرًا والانتهاء ظهرًا. وقالت أيضًا إنه قد بدأ في ترجمة كتاب عن الإيطالية.

«كتاب *Discorsi sopra la prima Deca di Tito Livio* لنيقولا مكيافيللي،» أخبرني بصوت فخور، وهو مستمتع استمتاعًا واضحًا بالتشديد على نطق الـ r و الـ o باللكنة الإيطالية. «*الأمير، وفن الحرب* فقط،» قال، «موجودان بترجمة عربية مقبولة، لكنني أعتقد أن *المطارحات* تعيد حقيقة هذا الفيلسوف الذي أسيء فهمه إلى نصابها. فقد كتبها ميكافيللي بعد ثماني عشرة سنة من *الأمير*. وكان في الثانية والستين من العمر، أي أعقل بكثير، ولم يكن يعاني من مضايقات الميدتشي،» سكت برهة، وسمعتُ صوتها من بعيد. «ليس لدى أمك أدنى فكرة عمّا أتحدث،» قال والابتسامة جلية في صوته، بل استطعتُ سماع ضحكتها. «على أي حال،» تابع، «يساعدني هذا على إبقاء إيطاليتي حية.»

لكن مؤخرًا، بعد خمس عشرة سنة من إبعادي، في شهر مايو من هذه السنة، سنة ١٩٩٤، اعتُقل بابا. حدثت في بادئ الأمر بلبلة، وظهرتْ على السطح إشاعات عن اختلاس. وما لن أعرفه أبدًا هو كيف لعملية اختلاس أن تكون ممكنة لمن يشغل منصب مشغّل ماكينة! ثم ظهرتْ الحقيقة. فبعد خمس عشرة سنة من العمل مشغّل ماكينة في قسم التعبئة في مصنع معكرونة، قرّر بابا ذات يوم أن يأخذ معه كتابه ليقرأ منه إلى

زملائه في المصنع، ليس كتاب *المطارحات*، بل *الديمقراطية الآن*. الكتاب الذي أنقذتُ من النار. كانت ماما في أوج الغضب.

«كيف يقدِم على شيء كهذا؟» قالت على الهاتف. «هل نسي أبوك في أي بلاد نحن؟ وأين عثر على هذا الكتاب؟ ألم نحرقه؟»

عرفتُ أنه من الأفضل لي ألا أقول شيئًا، لولا أن الإغراء في تزويد المتنصّت علينا بمعلومات كان لا يقاوم. «أنقذته،» قلت. بعد صمت أجوف زعقت كطفل يستعطِف، «لماذا؟ لماذا سلومة لماذا؟» وأنا، مع إدراكي الكامل أن خطّ الهاتف مراقَب، وأن المحادثة بيننا إنما هي ثلاثية الأطراف، الطرف الثالث منها صامت، أجبتُ، «إنه كتابي أنا، أنا من يستحق اللوم، فبابا لم يؤمن في يوم بمثل هذه الأفكار،» بالرغم من أنني أعلم أن كلمات كهذه لا تنقذ أحدًا، بل تورّط فقط.

كان هناك بلا ريب عامل من خداع النفس والجنون في طريقة تصرّف بابا. فهو، أكثر من أي أحد آخر، لا بد أنه عرف أن «للحيطان آذانا»، وأن التبليغ على مواطنيك رياضة ليبيا القومية. وأن الميدنتشي يتنفسون تحت الرقاب، يلاحقون الجميع عن كثب. أتراه، في سنه المبكرة هذه التي لا تتجاوز الثمانية والأربعين قد أصيب بالخرف؟ هل نجح في تضليل نفسه وإيهامها أنه ما زال يستطيع قلب المعادلات؟ أم صحا من غيبوبته وفضّل الموت على العبودية، رافضًا بخلاف شهرزادي، العيش تحت السيف؟

بدأت مكالمات إخوتها الهاتفية تتكرر، يحثّني فيها «المجلس العالي» على العودة، مع وعودهم بأنني سأعفى من عقوبة سجن الفارّين من الخدمة، وأنهم سيحرصون على أن يتلاعب «أصدقاء في مناصب رفيعة» بملفي، ويشطبوا عبارة

«كلب ضالّ». في البداية فكّرتُ في الأمر، فكّرتُ فيه بجديّة، خصوصًا لأنني توجّست الكآبة في صوت أمي، وهي تستعيد كلّ تلك الفرص التي فوتتها: التعليم والمهن التي كان يمكن أن تحصل عليها، كأن الوحدة ذكّرتها بكل الأشياء التي افتقدتها. ثم اتصلتُ بها ذات مرة، وأتاني ذلك الصوت القديم، المشتت، والكلمات المتلكئة، وتلك الكركرة العصبية نفسها المعلّقة في مكانٍ ما بين الضحك والبكاء. شعرتُ بالغرفة تدور بي. أقفلتُ الخطّ. عندما عاودتْ الاتصال بي في الصباح التالي وسمعتُ صوتها، قلقًا، مرتبكًا ارتباكًا حقيقيًا، أغلقتُ الهاتف ثانية. والرسائل، الرسائل المستعصية على العدّ التي تركتها لي محوتُها بدون أن أسمع محتواها. بيد أنها لم تتماد إلى حدّ الاتصال بالقاضي ياسين أو أن تطلب من أحد إخوتها أو أبيها أن يتصلوا بي.

ثمّ حدثٍ شيء استثنائي يفوق التصور. تسلّمتُ رسالة من كريم. تبيّنتُ من الطابع أنها من ليبيا. تراءتْ لي أشبه باقتحام قاسٍ للحياة التي كنت أبنيها في القاهرة، حيث كنت وسيمًا ومستقلاً بما فيه الكفاية كي أقنع نفسي بأوهام الخلود. كان توقًا يماثل كثيرًا الرغبة في التحرر من الماضي. جعلني خطّ الرسالة الدقيق العصبيّ، والحروف المعقوفة باعتدال، والمنقوشة بتناغم بقلم رصاص حادّ كإبرة، أحنّ إلى صديق طفولتي. لا بد أنّ القلم ظلّ مائلاً بين الأصابع بجهد مفرط لتحقيق التوازن والاتساق.

عزيزي سليمان،

لوقت طويل رفضتْ أمّكَ إعطائي عنوانك. وتعللتْ بعدّة أسباب، ليس أي منها مقنعًا. مرة قالت إن القاضي لا يسمح لك بتسلّم

الرسائل. «أعطيني إياه على أي حال،» قلتُ لها، «لن أكتب، لكنني سأزوره بدلا من ذلك.» فكان جوابها، «كُفَّ عن مضايقتي يا كريم، لا أريدك أن تلهيه.» لذا توقّفت عن السؤال بعد ذلك واكتفيتُ فقط بالسماع منها أنك بخير. أفتقدكَ يا صديقي العزيز. ويؤسفني الآن، أنني عندما تمكّنتُ أخيرًا من مكاتبتك، فذلك لأنقل إليك خبرًا يملأ قلبي بالحزن.

أمّكَ مريضة. ولم تغادر بيتكم لأسابيع. لا تقلق، فأنا أزورها، إلا أن ما تفتقده في حياتها هو أن تراكَ فقط، فأنا أعمل على ألا تحتاج إلى شيء. على منضدة سريرها تتكّدس أغلفة معنونة إليكَ. كانت في البداية تخفيها عني، لكن حالتها تدهورتْ كثيرًا مؤخرًا. وفي بعض الأحيان لا تستطيع حتى أن تميزني، وتعتقد أنني أنت. لذلك اغتنمتُ الفرصة ونسختُ عنوانك. آمل أن تصلكَ هذه الرسالة، وأرجو أن تجدكَ بخير، كذلك آمل أن تكون لا تزال تتذكرني.

نحن في هذه البلاد لا نفهم أوجاع القلوب. ما أقوله لها، مهما كان عذبًا، أنا واثق أن نكهته بالنسبة إليها عديمة المذاق كالقطن. إنها تحتاج إليكَ. اتصل بها قريبًا.

صديقك وأخوك،

كريم

أردتُ أن أعرف أخباره، ماذا حلّ به وببقية الأولاد. أردتُ أن أعرف ما إذا كان لا يزال يتذكّر خيانتي. كنتُ قد سمعتُ من ماما أن "كريم" وخالة سلمى عادا من بنغازي إلى شارع التوت، خشية أن يخسرا البيت بعد أن أصدر القذافي مرسومًا ينصّ على أنه يحقّ لأي شخص ادّعاء حقّ ملكية عقار شاغر. عدا ذلك، لم أعرف شيئًا عن حياة كريم. ما أحنقني هو كيف أنها بماضيها و«بمرضها» حقنت العالم

بالكثير من الشعور بالطوارئ بحيث إنني ورفيق طفولتي لم نحظ حتى بفرصة للاستغراق في الذكريات. لذلك حتى هذه الرسالة ذات الخطّ الدقيق المتأني رفضت الردّ عليها لأنها وصلتني رغمًا عن مشيئتها.

ثم صدر في الأول من سبتمبر «عفو عام» عن السجناء بمناسبة الاحتفال بذكرى الثورة، التي هي في الأصل من وَضَع المعفي عنهم وراء القضبان. كان أبي أحد المستفيدين من هذه الرحمة المحرّقة، واستعادتْ ماما نفسها الصاحية، وشغلتْ من جديد بمهامها، بالزواج الذي قاومته وأصبحتْ الآن عاجزة عن الاستمرار في الحياة بدونه. أما هو فلزم البيت، ودرج أن يتصل بي في بعض الأوقات ليقول، «أردت أن أسمع صوتك فحسب.» حينها كنت أحادثه لفترات طويلة من الوقت لأشبع رغبته. وعندما يناولها السماعة ألاحظ أن جفاءً عجيبًا قد تسرّب إلى صوتي. وقد حاولتْ دائمًا، أن تكسر حاجز البرود بيننا، أن تسترجعني، أن تجعلني أتكلّم بشغف.

بعد شهر واحد على إطلاق سراحه، بل وإمعانًا في القسوة، بعد بضعة أيام فقط من رفع حظر السفر إلى الخارج عن الليبيين - خبر جعلني مبتهجًا وقلقًا في آن لاعتقادي أنني سأراهما أخيرًا - مات أبي.

*

مضى على وفاته الآن أربعون يومًا. في هذا اليوم، وفقًا للتقاليد الليبية، يستطيع أصحاب العزاء أن يخلعوا ملابسهم السوداء، ويعزفوا الموسيقى، ويغنّوا ويصفّروا كما يحلو لهم وهم يكحّلون عيونهم أمام المرايا.

مات بابا ميتتين. وهما معًا تسكنان قلبي في وقت واحد. الميتة الأولى تتلاءم مع رواية أمي.

«نوبة قلبية، في الليل، وهو نائم،» ولتواسيني أضافتْ، «مات بدون أن يتألم،» أيا كان ما يعنيه هذا.

كان بإمكاني أن أسمع عبر الهاتف صوت الشيخ مصطفى الجهوري، وصخب البيت المزدحم بالمعزّين. لم أسأل ما إذا كانت بجانبه عندما حدث هذا، أم أن شخيره قد دفعها كالعادة إلى الكنبة. لم أسأل ما كانت كلماته الأخيرة. فلا شيء بدا أنه يهم. فهو قد مات.

فجأة شعرتُ أن أفكارها تشتتتْ. أنها رغبتْ في إنهاء المكالمة، لتتفرّغ للناس الذين يفوقون العدّ والحصر، والذين جاؤوا لتقديم تعازيهم. «كلّ شيء على ما يرام،» قالت بعجالة. «لا تقلق حبيبي. سنتكلمْ أكثر في ما بعد، إي؟»

إنه لمن السخف حقًا أن أبقى ذلك الصبي المسافر، الصبي الذي يعوّق حركة الحياة، والذي يحتاج دائمًا إلى أن يطلعوه على آخر الأخبار، أنْ يُشركوه فيها فعليًا.

«سهام،» نادت. «تتذكّر سهام، أختَ ناصر؟ هاك، تريد أن تكلمكَ،» وجاءني صوت سهام، خجولاً، متحمسًا وآسرًا.

«سليمان؟ مرحبًا، كيف حالكَ، هل تتذكّرني؟»

«نعم... أكيد،» قلتُ، دهِشًا من نفسي كيف استرجع ذهني بوضوحٍ حيّ شعرها الكستنائي وشفتيها اللدنتين العذريتين، ومذهولا أيضًا من السخونة التي بعد كل تلك السنوات، عادت لتضرّج وجنتيّ. «ما أخبارِكِ؟»

«لقد خُطبت!» قالت بسعادة.

تنفستُ الصعداء لأنها لم تتلفظ بالتفاهات المعهودة، راجية من الله أن يعوضني عن خسارتي. لم أرغب في أن أسألها عن أبيها العجوز، فقد كنتُ متأكدًا من أنه إما ميت أو يحتضر.

«وما أخبار ناصر؟»

«بخير. بألف خير،» قالت بنبرة جياشة. وبدا لي أن تِلك السوداوية الغامضة التي كانت لديها في طفولتها قد استبدلت بالمرح، وبحب استطلاع متوقّد وحيوي. «إنه في الهند،» أضافت مستسيغة طرافة الخبر.

«الهند؟» هتفتُ وقد عجزتُ عن مواراة تلك الدهشة التي تعترِي الليبيين الذين يعيشون في الخارج عندما يسمعون أن مواطنًا نجح في العبور من البوابة، وأنه أُعفي بأعجوبة من القيود والمراسيم اللانهائية، فيعتمل في داخلهم شعوران؛ شعور بالنصر إزاء علمهم أنه ما زال ثمة خيط يربط بلادهم ببقية العالم، وشعور بالغيرة لأنه ليس من المسموح لهم أن يعودوا. «وماذا يفعل هناك؟»

«إنه الملحق الثقافي في سفارتنا،» أجابت بصوت فخور.

لا بدّ أن "ناصر" غفر له. وكان بلا شكّ واحدًا مِن المستفيدين من تلك الإعفاءات الاعتباطية. وإذا كان قد اعتُبر ذات يوم «متآمرًا» و «خائنًا» فإنه أصبح الآن عضوًا بارزًا في الهيئة الدبلوماسية، وعُيّن في «سفارتنا» في واحدة من أشهر بلدان العالم. تساءلت في نفسي: أتراه، سيكون نسختنا الليبية من أوكتافيوِ باز؟

«عظيم،» قلتُ، «أخبار رائعة.» ثمّ، بعد صمت أخرق أردفتُ، «هل ستزورينه؟»

«ربما في شهر العسل،» أجابت وهي تضحك لشخص بجانبها.

«ومَن العريس صاحب الحظّ السعيد؟»

«هها، لن أخبركَ،» قالت مغيظة. وللحظة عبرتْ خاطري فكرة سخيفة في أنه قد يكونِ أنا، أن أمي، بموهبتها الجديدة فيِ التوفيق بين الأزواج، قد رتبتْ الموضوع كله. «حسنًا، أنت

تعرفه جيدًا،» قالت. «هاك، يريد أن يكلمك. أوه، سليمان، أنا آسفة جدًا بخصوص أبيك، كان رجلاً رائعًا حقًا، وقد فقدنا كلنا بموته أبًا.»

«آلو سليمان؟» قال صوت رجولي عميق. «ألا تعرف من أنا؟ لمِ يعرف من أنا،» قال مخاطبًا سهام. «إنه أنا كريم.»

خيّل إليّ أنني فقدتُ صوتي. أكنتُ مأخوذًا بالسرور أم الحزن؟ معِ أنه من السخف أن أشعر بأي منهما.

«كتبت إليك. ألم تتسلّم رسالتي؟»

من تلك المسافات البعيدة لا شيء كان ممكنًا سوى العتاب والاعتذار.

«أنا آسف،» قلتُ وشعرتُ فورًا بالحاجة إلى تكرار اعتذاري.

«رحِم الله أستاذ فرج وعوضكَ الصبر والسلوان،» قال، وعرفتُ من المشاعر التي في صوته أنه عنى ذلك.

لم أقلِ شيئًا. لم أستطع إكراه نفسي لأقول الشيء نفسه عن أبيه. تملكني عرفان بالجميل وحسد حارق. كان هناك، كان هناك بمختلف الطرق التي لم أستطع أن أكونها. من يدري ما الذي كان سيتأتى مني، من بابا، ومن سهام لو أنني ما زلتُ هناك؟ تخيّلتُ الزوجين الحديثين، يتسكّعان على الشاطئ، ربما في غاوا، أو ربما في طرابلس. ثم تصورتهما أكبر سنًا، يعيشان في شارع التوت، مشغولين بشؤون أطفالهما، لأن الأطفال يغيرون كل شيء، يعيدون صياغة الحياة ويجعلون الأيام السوداء وردية، أو على الأقل هذا ما سمعتُ الناس يقولونه. أشكّ في أنني سأكتشف هذا بنفسي ذات يوم. أردت أن أهنئه، أن أتمنى له حياة سعيدة رغيدة مع عروسه، لكنني شعرتُ بالعجز على نحو ما. أهذه طرفة إلهية؟ قلتُ لنفسي، أن يقدّر لها الزواج من رفيق طفولتي، أما كان بإمكانكَ أن

تجعلها تتزوج شخصًا آخر؟ لكن مهلاً، إن هذا منطقي طبعًا: فأخو سهام كان صديق والد كريم. ومن يدري لعل أمي هي من رتّب الجمع بينهما! بل ربما أبي أيضًا، ربما اعتنى باليتيم كريم كما لو أنه كان ابنه، متوليًا رعايته كما تولّى القاضي ياسين رعايتي؛ لعل العالم في نهاية المطاف عادل ومتوازن؛ لا أحد يكسب ولا أحد يخسر، أو لا أحد يكسب والكل يخسر بالتساوي. بل إنني لأكاد أرى أبي وهو يصافح يد كاتبه السابق، الملحق الثقافي، ليقرأ وإياه الفاتحة كي يباركا الخطوبة ويصادقا عليها. كان بمستطاعي أن أمنحها حياة أفضل، بعيدًا عن البلاد التي يتمنى الجميع الهروب منها. لكن المياه عادت وجرفتْ الدم، والكل واصل التقدم في حياته الحافلة، متغاضيًا عما مضى، ميالاً إلى الغفران.

«وما أحوال القاهرة؟»

«القاهرة بخير،» قلتُ وأنا أتنحنح. «نعم القاهرة بخير، وأنا بخير.»

«طيب،» قال وقد نأى صوته، «ربما نأتي ونزوركَ في أحد الأيام.»

«نعم.»

«سهام تحبّ القاهرة من كل تلك الأفلام.»

«نعم كريم، أودّ ذلك، أودّ ذلك كثيرًا.»

*

بعد فترة قصيرة علمتُ أن أمي كذبتْ. فأبي، مات بنوبة قلبية فعلاً، ولكنها جاءته في أثناء الغداء، وهو يرشف الحساء – هذه هي الميتة الثانية – جالسًا إلى طاولة الفطور نفسها في المطبخ، وليس بدون ألم. ركل الهواء بالعنف ذاته الذي ركلت

به رِجلا أستاذ رشيد الهواء فوق ملعب كرة السلة الوطني، ويداه تخدشان الطاولة، بدوني، بدون ذراعيّ تساعدانه، ذراعيّ الناميتين الآن، القويتين بما يكفي لأرفعه، لأضمّه إلى صدري، لأقول كلّ تلك الأشياء الغثة التي يقولها الناس في مثل تلك اللحظات. سمعتُ حقيقة موته من خالي خالد؛ الشاعر. ففي طريق عودته من الجنازة توقّف في القاهرة قبل التوجّه إلى أمريكا. كثيرًا ما تقابلنا على هذا النحو من قبلُ، لقاءات وجيزة، في أثناء عبوره من بلد لآخر. ولطالما شعرتُ أنه يلومني على رحيلي، على التخلّي عن أبويّ. نعم، أعرف أنه من دلالات الجنون أن يدّعي المرء الاطلاع على ما في قلب إنسان آخر. ما أخبرته قطّ أن أخته هي التي أبعدتني، لأنني عرفتُ ما قد يقوله، «إنما جاءتكَ فرص كثيرة للعودة منذ ذلك الحين،» وسيكون محقًا في ذلك، ولذلك ألتزم معه الحذر.

نلتقي عادة في "غروبي"، المقهى الواقع في ميدان طلعت حرب في وسط القاهرة. وغالبًا ما يحتاج إلى زيارة مكتبة مدبولي التي في الميدان نفسه. هذه اللقاءات تذكّرني كثيرًا بحكايةِ أمي عن المقهى الإيطالي، وكلما تذكّرتُ معاناتها شعرتُ بضغط دمي يرتفع. لا أسأله قطّ عن أطفاله – جميعهم بأسماء مثل إد وإيمي – وهو يكتفي دائمًا أن يعرف أنني بخير. لكننا عندما نتعانق تلسع الدموع عيني.

٢٥

إنه ديسمبر، ومحطة الحافلات المركزية في الإسكندرية مزدحمة كمكة المكرمة في أيام الحجّ. أقبع في سيارتي برهة لأستجمع شجاعتي. أفكّر مليًا في خيار عدم البحث عنها، في أن أبقى حيث أنا إلى أن تجدني، ثم أفتح بابي وأقف إزاء السيارة.

أنا في الرابعة والعشرين من العمر وما زلتُ أعيش في القاهرة، المدينة التي أرسلتني إليها، مثل كلب وفيّ ما زال ينتظر واثقًا من أن صاحبه سيأتي لاسترداده. وها هي آتية أخيرًا. تسافر عن طريق البرّ بسبب الحظر الجوي. من المرجّح أن الرحلة استغرقتها مع نقاط ضبط الحدود أربعًا وعشرين ساعة. ستكون منهكة. ستبقى هنا شهرًا على الأقل، شهرًا بحاله! أتساءل كيف سيمرّ. لا أستطيع حتى تذكّر وجهها. ماذا لو لم أستطع التعرف إليها؟

أطرق ناظرًا إلى ساقيّ، ساقيّ الكبيرتين في بنطالهما الكبير، من الصوف الداكن للشتاء، مكوي مع طية في الوسط. أنت رجل الآن، أقول لنفسي. وهي قادمة لتراك، لترى ما حلّ بابنها الغالي، ابنها الوحيد. ترى كيف تبدو؟ عجوزًا لا شكّ. محجّبة أيضًا. وأنا، ماذا ستقول عني؟

أرى عديدًا من الحافلات تدخل وتخرج من المحطة. لا أملك أدنى فكرة عن الحافلة التي تستقلّها. أبقى إزاء سيارتي. ثم أراها. تقف إلى جانب حقيبتها كبنت تطرق المدينة للمرة الأولى. ليست محجّبة. ليس من شعرة واحدة في رأسها شائبة.

أدرِك فجأة كم أن أمي فتية. كانت في الرابعة والعشرين عندما سُفِرت، السنّ نفسها التي أنا عليها الآن؛ في الخامسة عشرة عندما أنجبتني، العدد نفسه من السنوات التي قضيتها بعيدًا عنها. كل ما يتبقّى في النهاية مجرّد أرقام، مقاييس المسافات، كميات الأشياء. تسعة وثلاثون؛ إنها فقط في التاسعة والثلاثين. ترى ما الذي تأمله من الحياة اليوم. وكم من المناسب أن أراها هكذا في الإسكندرية، في مدينة البهاء الغابر. أبدأ بالمشي تجاهها. لم تكن قد رأتني بعد. الأم التي حاولتْ ألا تنجبني قطّ، الأم التي لم تختر قطّ إنجابي، الأم التي قاومتْ ذلك بشتى الطرق التي عرفَتها. ألوح بيدي فوق رأسي، وأنا أفكّر في مناداتها، لكنني أعجز عن نطق الكلمة. ثم تطاوعني فجأة. «ماما!» أقول وأقول ثانية وثالثة إلى أن تلمحني. «ماما! ماما!» وعندما أصل إليها تقبّل يديّ، وجبهتي، ووجنتيّ، وتمشط شعري بأصابعها، ثم تعدّل ياقتي.

إشعار

- أُخِذ نص قصيدة سيدي محرز من كتاب بعنوان: ليبيا؛ مدن الإمبراطورية الرومانية المفقودة.
The lost Cities of the Roman Empire by Robert Polidori, Antonino Di Vita, Ginette Di Vita-Evrard and Lidiano Bacchielli, published by Konemann Verlagsgesellschaft mbH, Bonner Str. ١٢٦, D-٥٠٩٦٨ Cologne, ١٩٩٩.
نظرًا إلى عدم توافر النص بالعربية، نُقل عن الإنجليزية.

- الاقتباس من القرآن، سورة التوبة، الآية ٥١

- الاقتباسات الثلاثة الأولى من شعر صلاح عبد الصبور، مأخوذة من قصيدة: في انتظار الليل والنهار. الاقتباس الرابع مِن قصيدة حكاية المغني الحزين.
نقل النص العربي من ديوان صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، ط أولى ١٩٧٢